تُراث

toratheh
تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 267 يناير 2022

الجبـال
كيف طوع الإماراتي الجبل

شواهد لصناعة النحاس
في جبـل حفيـت

"قـص العـسـل"
هدية الطبيعة لسكان الجبال

ابن جبير ورحلة التكفير عن الذنب

المسرح الإماراتي في مسيرة نصف قرن

الحكاية الشعبية وأهميتها في التراث

عقـلانية يـاقوت الحمـوي

حداثة الإمارات ودورها الفاعل
والمؤثّر في الحضارة الإنسانية

أثر الأغنية في الشعر الشعبي الإماراتي

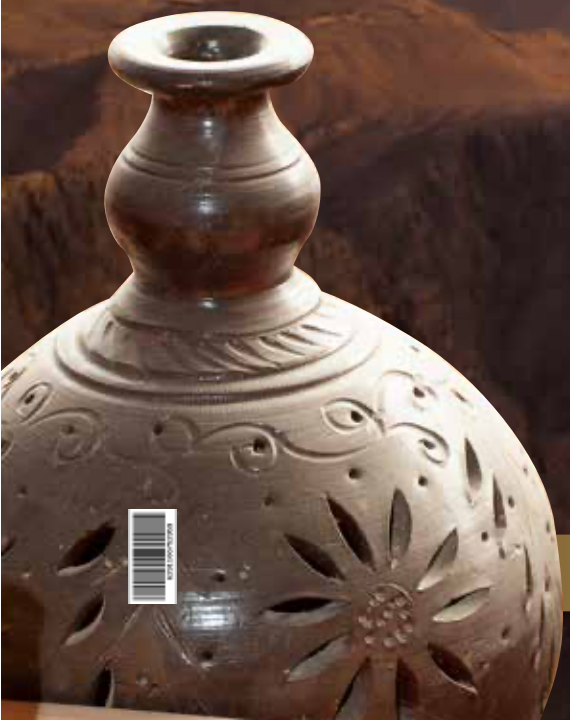

ملف: **الجبال، حِرف من أجل الحياة**

السلسلة التراثية الثقافية

مركز زايد للدراسات والبحوث

الصناعات الجبلية ... إرث حضاري وثقافي

بعيداً عن حياة المدن وبين الجبال والجروف الصخرية تبدو الحياة قاسية ولكنها تنبض بالحياة، فقد استطاع الإنسان أن يقيم لنفسه وعلى سفوحها حياة خاصة ويسخّر مصادر بيئتها الطبيعية القاسية لصالحه وأن يتعايش معها. وفي جبال دولة الإمارات العربية المتحدة، ومن خلال المكتشفات الأثرية، يمكن أن نتلمس آثار حضارة كانت نشطة امتدت لخمسة آلاف سنة بسبب تجارة النحاس المستخرجة منها، وتدل الأواني والأسلحة المكتشفة والتي دخل فيها معدن النحاس تفوق السكان القدامى في صناعتها.

كما تظهر براعة سكان الجبال القدامى في البناء والعمارة واضحة في أبراج المدافن الدائرية التي شيدوها فوق الجبال منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. لقد أسهمت الحرف والصناعات لدى سكان الجبال على استقرارهم، فعلى أجيال متعاقبة استغلوا التربة لصالح الزراعة وأوجدوا مجتمعاً زراعياً مستقراً يؤمن لسكانه الشروط الضرورية للحياة على سفوح المرتفعات، كما أن للأمطار أهميتها البالغة لحياة سكان هذه المناطق لأنها تسهم في تحسين نوعية حياتهم، وتوفر مساحات من المراعي الطبيعية لقطعان مواشيهم، كما أنها تسهم في نمو العديد من الأشجار والنباتات الطبيعية التي مثلّت جزءاً من الأنظمة الحياتية ومكنت الإنسان أن يعيش في هذه البيئة القاسية لما توفره من الغذاء للحيوانات واستخدام أخشابها كوقود وفي بناء المنازل.

ولسكان جبال دولة الإمارات مهارات فائقة في رعاية خلايا النحل فهم يعرفون سلوك وأساليب تربيتها، ولكنهم لا يجمعون العسل إلا مرتين في السنة بعد إزهار أشجار السدر وذلك في فصل الشتاء وإزهار أشجار السمر في فصل الصيف، فهي تدخل ضمن الموارد الاقتصادية لهم والتي باتت مهنة يتوارثها الأجيال ولكن تطورت عبر القرون مهارات كبيرة في تربية نحل العسل.

وبشكل عام تتداخل الحرف والصناعات لدى سكان الجبال مع البيئات الأخرى، وذلك لحاجة الناس إليها بصرف النظر عن نوعية البيئة، فنجدهم برعوا في صناعة الفخار ودبغ الجلود وجمع الحطب، واشتغلت النساء بحرفة الغزل والنسيج وغيرها من الصناعات.

ومن خلال إعادة إحياء والبحث عن الإرث الحضاري والثقافي والإنساني للحرف والصناعات لدى سكان الجبال الذين كيّفوا ذاتهم مع كل ما واجهوه من تحديات ومصاعب، مستثمرين عناصر الطبيعة صانعين منها أدواتهم المعيشية وحرفهم التقليدية مشتغلين بمهن يدوية تتناسب مع ما منحته الحياة لهم من مقدرات، جاء اختيارنا ليكون ملفاً لعدد «تُراث» لهذا الشهر. وكلنا أمل بأن تستمتعوا بموضوعات هذا العدد المتنوعة.

شمسة الظاهري

رئيس التحرير

محتويات العدد

59
ارتياد الآفاق

ابن جبير ورحلة التكفير عن الذنب

من المعتاد أن تكون الرحلة شغفاً واستكشافاً، لكن أن تكون الرحلة كفارة عن ذنب، وتوبة عن خطيئة، فهذا ما يمكن تسميته بالسبق، منسوبًا لابن جبير؛ حدث ذلك عندما استدعاه أمير الموحدين أبو سعيد بن عبد المؤمن، ذات يوم ليكتب عنه كتابًا، وناول ابن جبير قدحاً من نبيذ، فاعتذر ابن جبير عن تناوله، فأقسم عليه الأمير يميناً مغلظة ليشربنَّ من النبيذ سبعة أقداح، فشربها صاغرًا، على كره. فلما رأى الأمير أنه أكرهه ردها عليه سبعة أقداح مملوءة بالدنانير، لكن ابن جبير كان يتجرع مرارة الذنب، فأزمع أن يحج تكفيراً عن خطيئته... محمد عبد العزيز السقا

102
دراسات إماراتية

المسرح الإماراتي في مسيرة نصف قرن (2-2)

في الجزء الأول تطرقنا إلى دور المؤسسات الرسمية في دعم النشاط المسرحي الإماراتي منذ بداياته، من خلال ما نظمته من مؤتمرات وورش تدريبية، وما استقطبت من خبرات عربية لا سيما خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، وسلطنا ضوءًا على دور «أيام الشارقة المسرحية» وتأثير الفرق المسرحية، وجمعية المسرحيين، والحضور النوعي لأكاديمي المسرح من الإماراتيين، في دفع وإثراء مسيرة المسرح في البلاد. هنا محطات أخرى كان لها أثرها في تمديد وتعميق مسيرة المسرح الإماراتي محلياً ودولياً خلال الخمسين سنة الماضية... عصام أبو القاسم

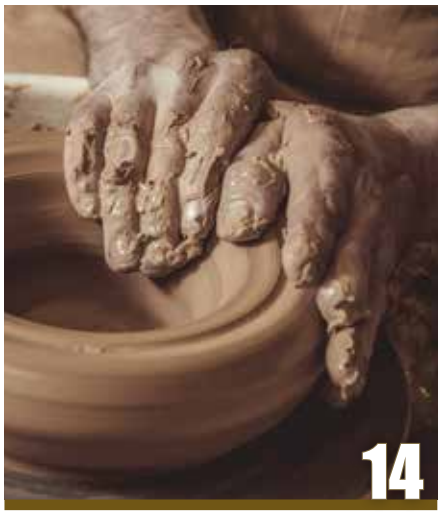

الحضور النوعي الخاص الذي تمتاز به الصورة الذهنية لدولة الإمارات العربية المتحدة في أعين العالم، نابعٌ من عناية قادتها وأهلها بكافة مكونات نسيجهم الحضاري والفكري والثقافي في البيئات المتنوعة التي تتشكل منها الدولة، ومن الحرص الراقي على ترابط مفردات وتفاصيل هذا النسيج لتصنع مجتمعةً فرادة التجربة.

في ملف هذا العدد، نصحب قرّاء تراث الأعزاء، في جولة بين قممَ الجبال، نستعرض خلالها براعة الآباء والأجداد من أهل الإمارات، ليس فقط في التصالح مع الطبيعة والتعايش مع حالاتها المتقلبة أو القاسية، بل في تطويع تلك القسوة وتحويلها إلى منتجات مبتكرة مادية ومعنوية، تُحقق لمنتجيها الأمن والاستقرار والاكتفاء، وتصبح وسيلة تبادل تجاري وتواصل اجتماعي وثقافي مع بقية أفراد المجتمع أو مجاوريه.

تحت عنوان «**في الجبال، حِرفٌ من أجل الحياة**» تضافرت أقلام نخبة من الباحثين والكتاب، من مواطني الإمارات ومن المقيمين على أرضها، في التقاط ملامح فرادة التجربة الإماراتية من زاوية البيئة الجبلية، تعقبها بعون الله ملفات أخرى لاستكمال ملامح النسيج، لنضع القراءات بين أيدي أجيالنا الجديدة فتثري رؤيتهم إلى حياة الأجداد، وتعين خطواتهم نحو المستقبل، وهو الدور الذي يكرس من أجله نادي تراث الإمارات كافة إمكاناته، لتنفيذ رؤية القيادة الرشيدة في استمرار نبض الماضي في جسد الحاضر عبر استلهام تجليات الإبداع والتحدي والصمود من تجارب الآباء والأجداد، وربط الأجيال الجديدة بتاريخهم وتراثهم عبر تدارس ما أنتجته عقول الأجداد من حلول عملية لمشكلات الحياة ، أو ما أبدعته مخيلاتهم الخصبة من أدب وحكايات وأشعار وفنون وألعاب، ومحاولة رصد ملامح المنهج الفكري والأخلاقي والتربوي الذي جمع كل تلك التجليات في جنبات حضارة واحدة هي حضارة الإمارات التي صبت كلها بفضل رؤية حكمة آبائنا المؤسسين تحت راية الاتحاد التي نحتفل معًا بمطلع خمسينيتها الجديدة. حفظ الله الوطن.

فلاح محمد الأحبابي

رئيس نادي تراث الإمارات

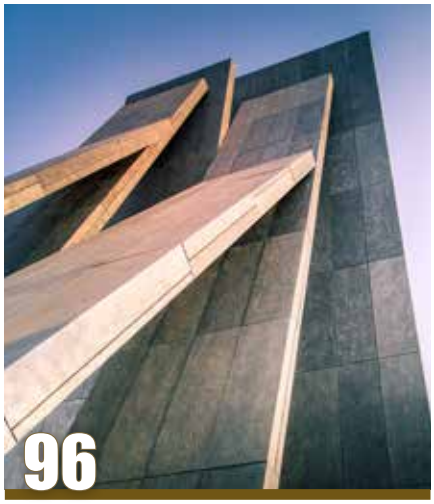

محتويات العدد

تراث الشهر

8 نادي تراث الإمارات يحتفل باليوم الوطني الـ50
«ملتقى الخمسين التراثي» يسلط الضوء على قيمة المنتجات والحرف والفنون الشعبية

58 هل العادات - الشاعر أحمد بن محمد بن دري الفلاحي
66 «سانت كاترين».. التجلي الأعظم - ضياء الدين الحفناوي
68 الباب - عبد الفتاح صبري
70 نشأة العقيدة بين كاوتسكي وفروم - فيبي صبري
73 مع ندى الحاج.. «تحت المطر الأزرق» - د. حمزة قناوي
74 القفز خارج الذهنية الخرافية - شريف مصطفى محمد
78 الحكاية الشعبية وأهميتها في التراث - علي كنعان
80 مفارقات الاغتراب في «حالة شجن» - أحمد حسين حميدان
82 محمية كهف وادي سنور - حمادة عبد اللطيف
84 الصيد بالصقور رياضة تراثية أصيلة - سوسن محمد كامل
88 طرائق نغمية جديرة بانتباهنا - 2 - مصطفى سعيد
90 عقلانية ياقوت الحموي - عبد الله يحيى السريحي
96 شهادة من أجل الحياة - عبدالله عبدالرحمن
98 حداثة الإمارات ودورها الفاعل والمؤثّر في الحضارة الإنسانية - محمد غبريس
102 المسرح الإماراتي في مسيرة نصف قرن (2-2) - عصام أبوالقاسم
106 إرث علماء المسلمين - د. نورة صابر المزروعي
108 أثر الأغنية في الشعر الشعبي الإماراتي - فهد علي المعمري
116 توظيف الحيوان في الأدب الإماراتي- محمد الحبسي
120 الشاعر عبيد بن محمد النيادي - مريم النقبي
122 محمد بن خليفة بن يوسف السويدي - خليل عيلبوني
124 الدور القومي لصحف الإمارات - د. خالد بن محمد مبارك القاسمي
129 الغطو - د. عبد العزيز المسلّم
130 مقهى ريش: سيرة المكان - د.فاطمة حمد المزروعي

أسعار البيع

الإمارات العربية المتحدة: 10 دراهم - المملكة العربية السعودية 10 ريالات - الكويت دينار واحد - سلطنة عمان 800 بيسة - مملكة البحرين دينار واحد - اليمن 200 ريال - مصر 5 جنيهات - السودان 250 جنيهاً - لبنان 5000 ليرة - سورية 100 ليرة - المملكة الأردنية الهاشمية ديناران - العراق 2500 دينار - فلسطين ديناران - المملكة المغربية 20 درهماً - الجماهيرية الليبية 4 دنانير - الجمهورية التونسية ديناران - بريطانيا 3 جنيهات - سويسرا 7 فرنكات - دول الاتحاد الأوروبي 4 يورو - الولايات المتحدة الأميركية وكندا 5 دولارات.

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكتاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو نادي تراث الإمارات

38
ساحة الحوار

حِرَف الجبال نماذج لإنجازات إنسانية ضخمة

للصناعات اليدوية في المناطق الجبلية بدولة الإمارات العربية المتحدة حكايات خصبة ومتنوعة يرويها التاريخ بعرق وجهد ومثابرة رجالها، وهو ما ينقل لنا بعض عبقه الباحث والإعلامي الإماراتي المعني بتوثيق التراث الشفهي المحلي عبد الله عبد الرحمن، الذي يرى في تلك الحرف التقليدية والصناعات اليدوية نماذج لإنجازات إنسانية ضخمة وشاهد عيان على عراقة تاريخ دولة الإمارات... حوار - مجدي أبوزيد

124
دراسات إماراتية

الدور القومي لصحف الإمارات

على الرغم من أن البدايات الأولى للصحافة في الإمارات كانت بدائية جداً وعفوية، إلا أن هموم الصحفيين وتطلعاتهم في ذلك الوقت كانت أكبر بكثير من إمكانياتهم المحدودة، والتي كانت تتماشى مع مستوى البيئة آنذاك. وقد لعبت بعض العوامل السياسية والاقتصادية دوراً في تأخير ظهور الصحافة في الإمارات. وكان هناك اتصال بين مثقفي الإمارات وبين صحف ومجلات الدول العربية، وغيرها من الصحف التي كانت تصل عن طريق بومباي أو بغداد، ثم تنتشر بين المثقفين الأوائل حتى إن بعضهم كانوا يكتبون المقالات ويرسلونها لتنشر في الصحف العربية... د. خالد بن محمد مبارك القاسمي

الاشتراكات

للأفراد داخل دولة الإمارات: 150 درهماً / للأفراد من خارج الدولة: 200 دولار - للمؤسسات داخل الدولة: 150 درهماً / للمؤسسات خارج الدولة 200 دولار.

تراثية ثقافية منوعة

تصدر عن:
مركز زايد للدراسات والبحوث - نادي تراث الإمارات، أبوظبي

رئيس التحرير
شمسة حمد الظاهري

مدير التحرير
وليد علاء الدين

الإشراف العام
فاطمة مسعود المنصوري
موزة عويص علي الدرعي

الإخراج والتنفيذ
غادة حجاج

سكرتير إدراي وشؤون الكتّاب
سهى فرج خير
torath@ehcl.ae

التصوير:
- مصطفى شعبان

عناوين المجلة

الإدارة والتحرير:
الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي
مدير التحرير: walid@ehcl.ae
هاتف: 024092200 - 024456456

نادي تراث الإمارات يحتفل باليوم الوطني ال50
"ملتقى الخمسين التراثي" يسلط الضوء على قيمة المنتجات والحرف والفنون الشعبية

إعداد - قسم الإعلام

ضمن احتفالاته بمرور خمسين عاماً على تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة، والتي استمرت من 28 نوفمبر إلى 19 ديسمبر الماضيين، نظم نادي تراث الإمارات في مقر مركز زايد للدراسات والبحوث التابع له بالبطين، في الفترة من 9 إلى 19 ديسمبر الماضي "ملتقى الخمسين التراثي".

افتتح الملتقى سعادة حميد سعيد بولاحج الرميثي المدير العام لنادي تراث الإمارات، بحضور سعادة محمد جمعة المنصوري المدير التنفيذي للخدمات المساندة، وسعادة علي عبد الله الرميثي المدير التنفيذي للدراسات والإعلام بالنادي.

بعد السلام الوطني الذي عزفته موسيقى شرطة أبوظبي انطلقت فعاليات الافتتاح بكلمة النادي ألقاها المدير الإداري بمركز زايد للدراسات والبحوث بدر الأميري، ثم عروض K9 لشرطة أبوظبي وفقرات موسيقية ومسابقات.

يأتي الملتقى في إطار رسالة نادي تراث الإمارات ومسؤوليته الاجتماعية والوطنية التي يضطلع بها، ليكون برنامجاً احتفالياً ثقافياً تراثياً متكاملاً يزاوج بين الجانب التجاري والفعاليات الوطنية الموجهة للكبار والناشئة.

تضمن الملتقى سوقًا شعبية ضمت أكثر من ثلاثين محلاً تجارياً مخصصة للأسر المنتجة، عرضت من خلالها المنتجات المحلية من مشغولات يدوية وبخور وعطور وأزياء ومأكولات وغيرها من المنتجات الإماراتية، كما تم تخصيص عدد من هذه الدكاكين لأصحاب الهمم.

شهد ملتقى السوق حضوراً أسرياً ملحوظاً نسبة إلى تنوع فعالياته التي يتوجه الكثير منها للأطفال مثل الركن المخصص للألعاب، والمسابقات اليومية، وأنشطة الرسم والتلوين، والبرامج التفاعلية على المسرح، بالإضافة إلى النشاط التجاري الرئيسي للسوق، الذي يجد إقبالاً من المجتمع المحلي.

وحظي الملتقى بدعم عدد من الجهات الحكومية والخاصة هي شرطة أبوظبي، وشركة أبوظبي لإدارة النفايات، وبلدية مدينة أبوظبي، والطواش، ومحمد رسول خوري وأولاده، والجزيرة للعطور، ومركز لندن الطبي الاستشاري، وليان غاليري.

زيارات متنوعة

حظي الملتقى بزيارات مهمة، منها زيارة معالي الشيخ الدكتور سعيد بن طحنون آل نهيان، الذي أشاد بالأدوار المجتمعية التي يقوم بها النادي ونوه بتنظيم السوق وفعالياته التراثية والترفيهية. وكان في استقبال معاليه سعيد المناعي مدير إدارة الأنشطة في النادي، وراشد القبيسي مدير إدارة الإعلام والعلاقات العامة، اللذان رافقا معاليه في جولة على محلات السوق تعرف خلالها على معروضاتها، وتوقف عند فرق الفنون الشعبية التي قدمت بحضور معاليه عرضاً لفن العيالة، كما شملت جولته عرض الصقور التراثية لمركز السمحة التابع للنادي، وورش الحرف اليدوية التابعة للقرية التراثية، وغيرها من الأنشطة التعليمية والترفيهية التي يزخر بها السوق.

كما قام معاليه ضمن الزيارة بجولة في معرض الشيخ زايد، تعرف خلالها على قاعات المعرض وتوقف عند مقتنيات المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، "طيب الله ثراه"، حيث رافقته في الجولة فاطمة المنصوري مديرة مركز زايد للدراسات والبحوث، وخليفة المحيربي رئيس قسم معرض الشيخ زايد، واستمع للشرح والتعريف بالقطع الموجودة في المعرض الذي قدمته فاطمة المنصوري وعبدالله التميمي مسؤول جناح الشرطة.

كما زار السوق الشيخ عمر بن سلطان بن خليفة بن زايد آل نهيان والشيخ بطي بن سهيل بن حشر آل مكتوم حيث استقبلهما عبد الله محمد جابر المحيربي مستشار المدير العام لنادي تراث الإمارات، وسعيد المناعي مدير إدارة الأنشطة ورافقاهما في جولة بمحلات السوق، إضافة إلى جولة بمعرض الشيخ زايد تعرفا خلالها على مقتنيات المعرض، كما حضرا جانباً من الفعاليات الترفيهية المصاحبة للسوق مثل عروض اليولة، والسحب على الجوائز اليومية.

جذبت فعاليات السوق الشعبي الأسر والناشئة بما قدمت من مسابقات وبرامج ترفيهية وتوعوية، وشاركت عدة جهات في إثراء البرنامج المصاحب للسوق، منها الإدارة العامة لشرطة أبوظبي التي نظمت على مسرح السوق الشعبي محاضرة بعنوان "التنمر الإلكتروني والتعايش السلمي" قدمتها الواعظة أمل عبد الجليل من إدارة الشرطة المجتمعية.

أنشطة متنوعة

فتح معرض الشيخ زايد أبوابه للجمهور طيلة أيام الفعالية، حيث تعرف الزوار على قاعات المعرض ومجموعات الصور النادرة التي تبين سيرة ومسيرة المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان"طيب الله ثراه"، وأهم مقتنياته الشخصية وغيرها من التحف.

كما شاركت إدارة البيئة والصحة والسلامة قسم الشؤون البيئية التابع للنادي في السوق الشعبي من خلال تعريف الأطفال بحيوانات البيئة الصحراوية في الإمارات من خلال عرض صورها ورسمها وتلوينها، بالإضافة إلى معرض لإصداراتهم للأطفال التي تركز على التوعية البيئية، والكتيبات الخاصة بالأشجار والمخلوقات البحرية والبرية التي تعيش في الإمارات سدرة ونحلة والأسماك الموجودة بدولة الإمارات.

فيما قدمت القرية التراثية ورشاً حرفية للسدو والتلي والخوص قدمتها المدربات التراثيات وجذبت اهتمام الزوار لاسيما من النشء. وقدمت شركة أبوظبي لإدارة النفايات "تدوير" خدمات النظافة العامة ومكافحة الآفات طيلة أيام الفعالية، بهدف توفير بيئة صحية ونظيفة للزوار والمشاركين، كما قدمت العديد من الأنشطة التوعوية للزوار وخاصة الأطفال، بهدف تعريفهم أسس التعامل السليم مع النفايات، بجانب تقديم مسابقات على المسرح بجوائز قيمة.

أمسية الخمسين الشعرية

ضمن احتفالات نادي تراث الإمارات بمرور خمسين عاماً على تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة، والتي استمرت من 28 نوفمبر إلى 19 ديسمبر الماضيين، نظم مركز زايد للدراسات والبحوث يوم 13 ديسمبر الماضي، في مقره بالبطين أمسية شعرية بعنوان "أمسية الخمسين الشعرية" شارك فيها الشعراء عيضة بن مسعود، ومحمد سعيد المشيخي، ومحمد بن سرور الشامسي. استهلتها فاطمة المنصوري مديرة مركز زايد للدراسات والبحوث بكلمة افتتاحية أكدت خلالها على قيمة الشعروكونه أحد المصادر التاريخية المهمة، منوهة إلى اهتمام نادي تراث الإمارات بالشعر منذ تأسيسه. وأنه كان من أوائل المؤسسات الحكومية التي اهتمت بتدوين الشعر، من خلال لجنة الشعر الشعبي التي أصدرت الكثير من دواوين الشعر النبطي لكبار شعراء المنطقة، وهو الدور الذي استكمله مركز زايد للدراسات والبحوث، وبلغ عدد الدواوين الصادرة أكثر من 60ديواناً إضافة إلى عدد آخر هو تحت الطبع وقيد الإعداد.

حضر اللقاء سعيد المناعي مدير إدارة الأنشطة في نادي تراث الإمارات وعدد من الشعراء، ومحبي الشعر والإعلاميين والمهتمين.

تاريخ نشوء الدولة في الوثائق البريطانية

نظم مركز زايد للدراسات والبحوث التابع لنادي تراث الإمارات، بالتعاون مع قسم التاريخ بجامعة الشارقة، يوم 8 ديسمبر محاضرة افتراضية بعنوان "تاريخ نشوء دولة الإمارات في الوثائق البريطانية 1968 – 1971" تحدثت فيها المؤرخة والأرشيفية البريطانية أنيتا بورديت، وأدار النقاش حسن المصعبي طالب الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الشارقة.

وأشارت الأستاذة فاطمة المنصوري مديرة مركز زايد للدراسات والبحوث في بداية المحاضرة إلى أهمية الوثائق البريطانية بوصفها مصدراً مهماً لتاريخ الإمارات والمنطقة، وقالت إن مركز زايد للدراسات والبحوث أولى المصادر البريطانية عناية واهتماماً كبيرين تمثل في اقتناء الكثير من هذه المصادر وإتاحتها للباحثين، وفي إصدار العديد من الكتب والوثائق وعقد العديد من الندوات والمحاضرات التي سلطت الضوء على هذه المصادر.

وتناولت أنيتا بورديت طرق الحصول على الوثائق والسجلات الرسمية التي تخص تاريخ الإمارات ومنطقة الخليج، لاسيما الموجودة في الأرشيف الوطني البريطاني، منوهة إلى الحاجة للرجوع إلى المواد الأرشيفية ذات الصلة المودعة خارج السجلات البريطانية الرسمية، وهو أمر قالت إنه يتطلب بعض المعرفة بشبكة الأرشيفات في المملكة المتحدة.

كما تطرقت إلى الصعوبات التي قد لا يتوقعها الطلاب والجمهور في الولوج أو الوصول مباشرة إلى الوثائق نظراً إلى سقف التوقعات العالي في عصر التكنولوجيا الرقمية وعملية الرقمنة التي انطلقت قبل عدة سنوات.

وقالت إن من الخطأ الافتراض أن كل الأرشيف متاح حالياً

للباحثين عن بُعد، حيث خلقت الرقمنة بعض المشاكل للباحثين الذين يزورون الأرشيف الوطني شخصياً، ففي العادة يتم سحب السجلات والوثائق الأصلية من الاستخدام المباشر مع الاكتفاء بالنسخة الرقمية للباحثين.

مشيرة إلى أنه على الرغم من أن بعض المشاريع قد قامت بنسخ وتصنيف السجلات والوثائق وأتاحت الوصول إليها للجمهور والباحثين، مثل المنصة الرقمية الخليجية المعروفة باسم الأرشيف الرقمي للخليج العربي، إلا أن جهات ربحية عمدت إلى إتاحة الوثائق الرقمية نظير مقابل مالي.

كما قارنت بورديت بين البحث الرقمي والبحث الأرشيفي الكلاسيكي في موضوع الوحدة الخليجية وموضوع قيام دولة الإمارات العربية المتحدة من خلال البوابة الرقمية مقابل استخدام قوائم وفهارس أرشيفية قديمة، لتحديد مواقع الوثائق التي تتعلق بموضوع التفاعل والتبادلات بين المسؤولين البريطانيين و حكام الخليج وقادة المنطقة في الفترة بين عامي 1968-1971، لتبين حسنات كل طريقة ومساوئها.

مهرجان فاكهة الشتاء

نظم مركز أبوظبي النسائي التابع لنادي تراث الإمارات، مهرجان فاكهة الشتاء يومي 17 - 18 نوفمبر الماضي، في مقر المركز بمدينة محمد بن زايد.

المهرجان مخصص للنساء إذ تُعرض منتجاتهن من الحرف اليدوية مثل السدو والتلي والغزل والقهوة العربية والحناء وغيرها، كما تقوم مدربات تراثيات تابعات بتعليم الراغبات مهارات وفنون تلك الحرف في ورش ذات مستوى عال، تستهدف -وفق إيضاح ظبية سعيد الرميثي مديرة مركز أبوظبي النسائي- تحقيق أهداف النادي في مساعدة المرأة على وضع بصمتها في المجتمع وتعريف الجيل الجديد بتراث الدولة، وإظهار الدور الخاص للمرأة في جميع المجالات ومن أهمها إحياء الأعمال التراثية والحرف التقليدية.

حضرت المهرجان فاطمة التميمي رئيسة قسم الأنشطة النسائية في نادي تراث الإمارات، وموظفات النادي، والعديد من النساء المنتجات المشاركات في المهرجان، وتم في ختامه تكريم المشاركات والمساهمات في إنجاحه.

سباق اليوم الوطني لقوارب التجديف التراثية

توج سعادة سعود عبد العزيز الحوسني وكيل دائرة الثقافة والسياحة بأبوظبي، وسعادة حميد سعيد بولاحج الرميثي المدير العام لنادي تراث الإمارات الفائزين في سباق اليوم الوطني لقوارب التجديف التراثية فئة 40 قدماً، الذي نظمه نادي تراث الإمارات -تحت مظلة دائرة الثقافة والسياحة بأبوظبي، على كورنيش أبوظبي في الثاني من ديسمبر الماضي، في إطار الاحتفال باليوم الوطني الخمسين لدولة الإمارات العربية المتحدة.

حضر التتويج سعادة محمد جمعة المنصوري المدير التنفيذي للخدمات المساندة بالنادي، وسعادة علي عبد الله الرميثي المدير التنفيذي للدراسات والإعلام بالنادي، وريتا عون عبدو المدير التنفيذي لقطاع الثقافة في دائرة الثقافة والسياحة في أبوظبي، وجمع كبير من السياح والمتابعين وعشاق رياضة التجديف.

شارك في السباق 1156 بحاراً من إمارات الدولة، توزعوا على 68 قارباً بمعدل 17 بحاراً في كل قارب مع السكوني، تنافسوا في أربعة أشواط حملت ألوان علم الدولة الأحمر والأخضر والأبيض والأسود، لمسافة 4 أميال بحرية. وكان الفائزون على التوالي في الأشواط الأربعة: القارب "زلزال"، لمالكه نواف أحمد محمد إبراهيم المرعي الشحي، بقيادة النوخذة والسكوني نواف أحمد محمد إبراهيم المرعي الشحي. القارب "الريم" لمالكه سمو الشيخ عمار بن حميد النعيمي، بقيادة النوخذة أحمد إبراهيم راشد الغملاسي، والسكوني جمعة يوسف الجنيبي. القارب "الناصي" لمالكه النادي البحري للفنون والسياحة بالشارقة، بقيادة النوخذة جمعة إبراهيم السويدي، والسكوني إبراهيم علي محمد عبدالله. القارب "فكتوريوس" لمالكه سمو الشيخ ناصر بن حمد آل خليفة، بقيادة النوخذة والسكوني أحمد ناصر البوسميط.

كما تُوج الفائز في مسابقة أفضل محمل تراثي التي نظمها النادي على هامش سباق اليوم الوطني لقوارب التجديف التراثية، وحصد الجائزة النوخذة بيات محمد بالطويل المزروعي، لالتزام المحمل بالمواصفات التقليدية التراثية للمحامل الشراعية، وفق المقاييس والمعايير المتعارف عليها قديماً.

وفي إطار الحفل استعرضت المحامل التراثية المشاركة نماذج من العادات والتقاليد التي كان يمارسها الآباء والأجداد.

صاحب السباق معرض بحري احتوى على نماذج للسفن، ومجموعة كبيرة من الأدوات التي استعملها أهل البحر في الإمارات منذ قديم الزمن، وعرض للحرف التقليدية ذات العلاقة بالتراث البحري، وضمن برامج احتفالية أخرى استضافتها القرية التراثية التابعة للنادي شاركت فيها إدارات النادي المختلفة ومراكزه النسائية والشبابية.

ياما اشتغلنا في وعور وسهول

يا شركة إن دي سي أودعش وأقول ... عسى على الشركات الأخرى تفوزين

ياما اشتغلنا فيش في وعور وسهول ... وقت العمل غتنصبرعلى الزين والشين

كما اطلعت في الدارمن عين بترول ... بأيدي رجال في العمل مستعدين

أسس قواعدها عسى عمره ايطول ... ابو خليفة يا عسى عمره اسنين

سوى لها دستور يمشي على طول ... ما يختلف مع اختلاف القوانين

متفننه واتدير أعمال بوصول ... بر وبحر تحفر وهلها شطيرين

على النظافة شغلها دوم مكفول ... على البيئة سفتي وناس حريصين

في ساير الأعمال ما حولها حول ... مديرها شخصيته تدحب العين

أهدي سلامي لبوخالد ومرسول ... معطر بورود مسك ورياحين

في مكتبة ما تعين الباب مقفول ... يقدم الترحيب مع قوله الزين

أهدي سلامي لكل عامل وماسول ... ياما عرفنا في العمل من محبين

على العمل وصيت انا كل شاغول ... خص الشباب إللي على العلم ناشين

مثل العمل في ثمرته كل محصول ... وصى بها القرآن في العلم والدين

حق الوطن واجب على الشعب معقول ... ولريس الدولة جنود مطيعين

حمى دياره من هل البطش والهول ... ووحد عربها لين صاروا ملايين

واختامها صلوا على خير مرسول ... على نبي بين الحق تبيين

القصيدة إهداء من الشاعر عيد بن أحمد بن مساعد المنصوري من مواليد 1939 في الظفرة بإمارة أبوظبي، لجميع العاملين في شركة الحفر الوطنية وذلك بعد تقاعده من الشركة، كما يهديها للشباب الصاعد ويحثهم فيها على تحمل المسؤولية والصبر والاجتهاد في العمل والالتزام بقوانين السلامة. وكان الشاعر عضواً في مجلس شعراء البادية بالمنطقة الغربية، وقد قال الشعر في مجالات متعددة في الردح والمسحوب والهجيني والسامر والمنكوس والصخري وغيرها.

ملف

الجبال، حِرف من أجل الحياة

14 الحرف والصناعات اليدوية الإماراتية في البيئة الجبلية - حسن علي آل غردقة

18 شواهد لصناعة النحاس في جبل حفيت - شمسة حمد الظاهري

22 صناعات وحرف تقليدية من رؤوس الجبال - علي الشحي

30 «قص العسل» هدية الطبيعة لسكان الجبال - عبد العليم حريص

32 حرف يدوية من جبال الإمارات - خالد صالح ملكاوي

36 كيف طوع الإماراتي الجبل - فاطمة المزروعي

38 حِرف الجبال في الإمارات إنجازات إنسانية ضخمة - الباحث عبد الله عبد الرحمن

46 جولة في رؤوس الجبال - د. هيثم يحيى الخواجة

48 الصانع والنقاشات .. مهن وحرف من الجبال - مريم سلطان المزروعي

52 حرف الجبال في مهرجان الحصن - فاطمة عطفة

56 أنسجة ومنحوتات وفخار في جبل «القُرنة» - على تهامي

الحرف والصناعات اليدوية الإماراتية في البيئة الجبلية

حسن علي آل غردقة

تتميز البيئات المحلية في الإمارات بالتنوع والتعدد وأحد أهم أشكال البيئات المحلية البيئة الجبلية. استطاع سكان الجبال في البيئة المحلية من الاستفادة من كل الإمكانيات والمواد المتوفرة في صناعة مختلف احتياجاتهم المحلية من سكن وأثاث وأدوات واستطاعوا تطويع الجبال وزعزعة الصخور فزرعوا فيها الحقول وبنوا فيها القلاع والحصون. وسنذكر بعض المهن والحرف والصناعات المحلية الإماراتية التي تميزت بها البيئة الجبلية.

بناء القلاع الجبلية

استطاع البناء الإماراتي أن يبدع في بناء القلاع الجبلية الحصينة باستغلال المواد المتوفرة في البيئة الجبلية من الصخور الجبلية والجص والطين والأخشاب المحلية من أشجار النخيل والسدر والسمر.

وتميزت القلاع الجبلية بالقوة والمتانة مما يدل على الحرفية العالية للأيادي المواطنة التي استطاعت تكييف البيئات المختلفة والاستفادة منها في تشييد هذه القلاع الحصينة. ولعبت الحصون الإماراتية أدواراً تاريخية مهمة في صد الغزاة والدفاع عن الوطن وسطرت صوراً وملاحم بطولية خلدتها الأحداث التاريخية لبطولة وشجاعة أبناء الامارات. ومن أشهر هذه الحصون برج حتا، قلعة ضاية في رأس الخيمة، قلعة الفجيرة.

بناء بيوت الحجر الجبلية

اعتادت الأسر الإماراتية قديماً في الجبال بناء بيتين من الصخور الجبلية، لمواجهة الظروف المناخية السائدة في المنطقة، أحدهما للإقامة في موسم الصيف، حيث الحرارة المرتفعة والرطوبة العالية، ويسمى (بيت الصفة) ويتميز بكثرة فتحاته الجانبية لدخول التيارات الهوائية، في حين يكون سقفه من القطع الخشبية وسعف النخيل (الدعن)، أما البيت الآخر فهو للشتاء، حيث البرد القارس، ويمتاز بفتحات جانبية قليلة العدد، ويتميز بحصانته ومتانته، وسقف من الطين والأحجار وأفرع الأشجار الصغيرة التي تجعل منه ملاذاً آمناً ودافئا ويسمى (بيت القفل). وهذه المباني الحجرية تشهد على موهبة البناء الإماراتي وقدرته على التكيف مع مختلف البيئات المحلية وقدرته على توظيف الموارد المحلية على الشكل الأمثل بما يلبي مختلف احتياجاته.

التحطيب

التحطيب أحد المهن الجبلية التي عرفت في القدم ولا غنى عنها لمختلف الاحتياجات اليومية من بناء وطبخ وغيره. ويمتلك الحطاب في العادة دابة أودواب لحمل الحطب، خصين (فأس) أو قدوم يقتلع به الحجارة، وداس ليقطع به الأغصان، وربما حمل معه منشاراً، ويكون معه أيضاً حبال من ليف ليربط بها حمولته من الحطب الموجود في المناطق الجبلية. مصدر حطب الجبال أشجار الميز والسمر والشحش، والسدر، والأزديف، والشوع والعسبق والقرط وغيره مما ينتشر في البيئة الجبلية. وكان الحطب يجلب على ظهور الأشخاص والحمير والجمال من أماكن

جمل محمل بالحطب المحلي

بيت القفل

صناعة الفخار المحلي

بعيدة أحياناً. وتستخدم هذه الأخشاب في البناء، وفي صناعة بعض الأدوات، وفي صناعة الفخار، وفي الطبخ، وفي صناعات مختلفة تتطلب وجود خشب للوقود.

تربية ورعي الأغنام والماشية

اشتهر أبناء البادية وسكان الجبال وبعض القرى المتناثرة في مختلف الإمارات بتربية الأغنام والماعز والأبقار والجمال. وكانت التيوس الجبلية السمينة تقاد بواسطة عدد من الرعاة، وترعى في الجبال والوديان. ويجول بها الرعاة القرى والمناطق الزراعية ويعرضونها للبيع. كما أن البيئة الجبلية بمرتفعاتها ومنخفضاتها كانت تجبر الأغنام على تسلقها والانتقال بينها بحثاً عن الغذاء، مما يمنحها مع الأيام قوة ومتانة ويتكون بها اللحم والدهن والسمن. وكانت تباع في المناسبات والأعياد وأفراح الزفاف.

دباغة الجلود وجز الصوف

كان تقوم على جلود الماعز والأغنام الكثير من الصناعات الجلدية، مثل القربة والدلو والسعن وحتى غمد الخناجر والسكاكين، وكانوا يعتنون بدباغة الجلود وتنظيفها لتصنع منها احتياجاتهم المختلفة. كما كانوا يقومون بجز صوف الغنم وجمع شعر الماعز ليصنعوا منها مغازل لصناعة بيوت الشعر والسدو وغيرها من المنسوجات المحلية.

زراعة الوعوب

(الوعوب) هي الأحواض الزراعية التي يتميز بزراعتها سكان المناطق الجبلية. وكانت تسوى مناطق في سفوح الجبال وتسور بالصخور وتتم زراعتها بالقمح في مواسم الأمطار الشتوية. وقبل موسم الأمطار يحتشد كل أبناء القرى الجبلية أفرادا وجماعات،

الحجامة أحد العلاجات الشعبية قديماً

زراعة الوعوب الجبلية بالقمح

العسال يجمع العسل من الجبال

يعدون آلاتهم البسيطة، لقلب المسطحات للوعوب وحرثها (عملية الهيس) وتنظيف الأرض من الحشائش وغيرها لتعد للزراعة، ومن ثم نثر البذور بينها. ثم بعد ازهارها تجزوتدق ويصنع منها الخبز الجبلي المشهور خبز السفاع.

الطب الشعبي

اعتمد الأهالي على الأدوية الشعبية والخلطات النباتية والأعشاب البرية والجبلية للتداوي قبل ظهور المستشفيات والطب الحديث. وتعتمد مكوناتها العلاجية على المواد الطبيعية المستمدة من المناطق الزراعية والجبلية والبرية، وكان المرضى يعتمدون على الأساليب والأدوات التقليدية في العلاج، وكان الشخص القائم على هذه المهنة يسمى (المطبب) وغالباً ما يكون قد توارث هذه المهنة عن آبائه وأجداده وله خلطات عشبية معروفة وله علم بالطرق العلاجية. بالإضافة إلى (الموسم) الذي يعالج بعض الأمراض باستخدام الكي، و(المجبر) الذي يجبر الكسور، و(الحجام) وهو الذي يمارس الحجامة وهي عبارة عن استخراج الدم الفاسد من الجسم لعلاج الكثير من الأمراض.

البرز

العسال

العسال مهنة ارتبطت في الإمارات بالأشخاص الذين يقومون بجمع العسل من الجبال والوديان والأشجار، وأغلب العاملين بهذه المهنة من سكان الجبال في الإمارات، وهذه المهنة تحتوي معارف وفنون بأوقات تكون العسل ومواسمه وأنواعه وطرق اكتشاف مواقعه، وطرق جمعه وحفظه. واستخداماته المختلفة والعلاجات التي تقوم عليه. ومعرفة أنواعه المختلفة مثل عسل السمر والسدر وأماكن تواجده في الجبال. وقد يتجشم العسال الكثير من المشاق في جمع العسل بين شقوق الجبال وسفوحها وقممها حيث بيني النحل خلايا العسل في أماكن يصعب الوصول إليها في الجبال.

صناعة الفخار

ارتبطت صناعة الفخار بالمناطق الجبلية في الامارات واشتهرت بها منطقة شمل في وادي حجيل، حيث كان الصانع الاماراتي يقوم بجمع التربة الجبلية من الجبال ويقوم بنخل التربة وعجنها وتشكيلها حسب الطلب، ثم تجفيفها، ثم توضع في حفر لحرق الفخار تسمى (محرقة

الفخار)، وبعد أن يتم الانتهاء من صنعها يتم بيعها وتسويقها للمشترين حسب احتياجاتهم، ومن أشكال الصناعات الفخارية البرم والقدور، واليحلة والخرس، والتنانير.

قلع وتقطيع الحجارة الجبلية

كانت من المهن القديمة الموجودة في الجبال وتحتاج إلى قوة جسدية وعزيمة، وكانت تستخدم هذه الحجارة التي تقلع وتكسر بمعرفة الأستاذ الذي يقوم على هذه المهنة ومن أماكن معينة يختارها بمعرفته وبالخبرة. وتدخل هذه الحجارة في العديد من الاحتياجات، مثل بناء بيوت القفل والصفة الجبلية، بناء بيوت الحجارة، ولبناء برك الماء الجبلية، وتستخدم كحجر لشواهد القبور، وكذلك في صناعة اليازرة (الزايرة) وسقي الزراعة.

صناعة اليرز

اليرز هو سلاح تقليدي قديم له استخدامات عدة، حيث كان يستخدم في الماضي لحمل الأمتعة والأغراض على الكتف، والدفاع عن النفس، وكان جزءاً من المقتنيات الأساسية ويستخدمها الرجال في كل الأوقات في الليل والنهار، ويشتهر اليرز عند سكان الجبال وتحديداً في إمارة رأس الخيمة من قبائل الشحوح والحبوس والظهوريين. يتكون الجرز من الفأس والعصا وحلقتين من النحاس.

وعن الطريقة التقليدية في صناعة اليرز تتم على مراحل. وتبدأ

المرحلة الأولى بتقطيع العصا في موسم الربيع، حيث يتم جلب العصا من أشجار عدة تمتاز بالقوة والصلابة، منها؛ أشجار المزي والسدر والشحش. تبدأ بمرحلة تقطيع اليرز وتجفيفه وإزالة القشور الخارجية عنه حيث يتم وضعها في مخازن لمدة تبدأ من ستة أشهر إلى سنة، ثم تقطع وتزخرف ويركب عليها رأس اليرز أو الفأس. وتستخدم للزينة وفي المناسبات المختلفة وتعتبر من الموروثات الشعبية المحلية ■

* باحث من الإمارات

قلعة ضاية في رأس الخيمة منطقة الرمس

شواهد لصناعة النحاس في جبل حفيت

شمسة حمد الظاهري

يعود تاريخ تعدين معدن النحاس في جبال الإمارات لآلاف السنين، وهو من أقدم المعادن التي استخدمها الإنسان على وجه الأرض. وتذكر الأدلة الأثرية أن مدينة العين التابعة لإمارة أبوظبي افتخرت بالمكانة التي احتلتها كمركز لإنتاج هذا المعدن ولكن صناعتها اندثرت فيها بما يزيد عن ألف سنة. وتشير المسوحات الأثرية التي تجرى في البلاد أن السكان القدامى كانوا بارعين في تحديد أماكن الموارد الطبيعية التي يمكن استغلالها في مجال التجارة. ولكن يصعب على الإنسان أن يتصور بأن تقوم صناعة وفيها تنجيم وصهر وطرق وعلى قمت جبل حفيت في العين! لقد كشفت أعمال التنقيب عن وجود المئات من قبور عمّال النحاس وعائلاتهم في أضرحة المقابر القديمة عند سفوح جبل حفيت وعن وجود أدوات نحاسية وفخارية عند تلك القبور. وفي محاولة منا لتتبع قصة تاريخ صناعة تعدين خام النحاس في العين والتي لم نتوصل إليها إلا عن طريق ما نشر من المكتشفات الأثرية التي أجريت في المنطقة وتبين أن المناطق القريبة من جبل حفيت ومن عمان كانت تزدهر ولاتزال حتى اليوم بصناعة النحاس. ولكن السؤال كيف كانت عملية التنجيم والتصنيع لخام نحاس العين في العصور ما قبل التاريخ؟ وهل عثر على شواهد لعملية صهر النحاس في سفوح جبل حفيت؟

الكشف عن المعدن

لم تكشف عمليات التنقيب عن صناعة النحاس في العين وجود آثار أدوات الحفر في العصر الحجري مما نستنتج أنهم كانوا يحفرون بأيديهم بحثاً عن خام المعدن وفي داخل مناجم مكشوفة وعلى شكل خنادق.

وتذكر المراجع أنهم استخدموا قطعاً كبيرة من الحجارة الصلدة لتكسير واجهة الصخر بها بحثاً عن العروق الغنية بالنحاس الخام. ولكن تُظهر أحد التحليلات أن النحاس كان يستخرج في المنطقة منذ العام 2300 قبل الميلاد، وكان يستخرج من جبال الحجر الواقعة شرق العين، حيث كانت جبال الحجر مصدراً رئيساً لهذا المعدن النفيس عبر عصور التاريخ القديم للدولة، مما أسهم في تطور حرف صب وصياغة المعادن. وكان يصل النحاس إلى أم النار على شكل سبائك ليعاد صهرها في بوتقات تم اكتشاف أجزاء منها. مما يدل على أن هذا الشكل من النحاس كان يصل أيضاً إلى سكان جبل حفيت الذين يقومون هم أيضاً بعملية صهره وإنتاج الأدوات منه.

ففي ظروف تلك الأيام ومن أجل إنتاج النحاس يذكر أن الأمر كان يتطلب إلى عاملين أساسيين هما: وفرة الخامات الغنية بمعدن النحاس، ووجود مصدر غني بالأخشاب لصنع الفحم المستخدم في أعمال الصهر، وهذا يعد عملاً صعباً فوق جبل حفيت وغير عادي لظروف تلك الأيام وقبل ظهور المصاهر الحديثة. لذلك استنتج علماء الآثار أن الناس وقتها لابد وأنهم من القبائل الرّحل والمتنقلة هنا وهناك طلباً للأخشاب المأخوذة من الأشجار

المألوفة بالمنطقة لصنع الفحم اللازم لأعمال صهر النحاس. وربما كانت هناك مشكلة أخرى وهي مصادر المياه. وربما كان الناس الرّحل يأتون بموتاهم لدفنهم في المنحدرات الشمالية الشرقية لجبل حفيت مع الحرص على إيداع ممتلكاتهم من الأواني الفخارية المستوردة والأدوات النحاسية المصنوعة محلياً إلى جانب موتاهم عند دفنهم في تلك المقابر.

شواهد لعملية صهر النحاس

عثر علماء الآثار على صنوف عديدة من المواقد على سفوح جبل حفيت بما يقارب الـ 70 مصهراً وجميعها ترجع إلى العصر الإسلامي. وذكر هؤلاء العلماء أن هذه الفترة أعيد تنظيم صناعة النحاس بتقنيات ومواهب ودوافع تجارية جديدة لتلبية الاحتياجات المتزايدة للأسواق المتنامية في المنطقة.

ولم يتوصل العلماء إلى أي اكتشاف يدل على حقيقة القيام

بصهر خام النحاس في منطقة جبل حفيت في العصور التي تسبق البرونزي، ولكن المكتشفات من الأدوات النحاسية التي عثر عليها في القبور كانت دليلاً قاطعاً على أن الناس في هذه المنطقة كانت تتوفر لديهم المعرفة الفنية لصهر النحاس إبان تلك الفترة، ولكن العملية التي قاموا بها شاقة ومضنية وتبدأ بسحق خام النحاس بواسطة الصخور الصلبة وخلطه مع الفحم النباتي ثم حرقه في أفران الصهر التي تشبه المداخن. وكانت تجري أعمال الصهر في حفرة مشكلة في باطن الأرض ومبطنة بخليط من الفخار والرمل. ويجري نفخ الهواء من كير مصنوع من جلد الحيوانات عبر أنابيب من الفخار ليصل إلى أسفل الموقد ويعمل على رفع درجة حرارة الفحم. وبعد مرور ألفي سنة على بداية مزاولة أعمال التعدين وصهر النحاس في أطراف جبل حفيت أصبحت أكثر ازدهاراً في العصر البرونزي (4000 قبل الميلاد). فقد كان النحاس عصب العصر، وكان باهظ الثمن وتحتاجه المجتمعات البشرية المتنامية عبر أنحاء العالم القديم المعروف آنذاك. وقد تم استخراجه ومعالجته في العين ليتم نقله بعدها على شكل سبائك إلى الساحل عبر الطرق التجارية التي تكونت سابقاً خلال العصر الحجري الحديث. وقد عثر على كتلتين من النحاس الخام تعود إلى العصر الحديدي (1000 إلى 600 قبل الميلاد)، بالقرب من حدائق هيلي، تزنان معاً أكثر من كيلوغرام ونصف، ومن المعتقد ازدياد معدل إنتاج النحاس في هذا العصر بفضل استخدام أفران أكبر وأكيار أكثر فاعلية. ويعتقد أن النّحاسون في العصر الحديدي تعلموا كيفية تنقية نحاسهم الخام بواسطة النار؛ فكانت المحصلة إنتاج نحاس بنوعية أفضل لصنع مواد أكثر جودة مع أن من المرجح أنه لم تتم تنقية سوى كميات قليلة من النحاس الخام المستخرج من تلك القرية في حين أن أغلب الكميات المنتجة كانت تأخذ طريقها عبر الممرات التجارية القديمة انطلاقاً من ميناء «أم النار» إلى بلاد ما بين النهرين أو إلى الأسواق المستجدة فيما بعد في بلاد الهند عند نشوء الإمبراطورية الآشورية. كما اكتشف فأس برونزي، عرض في متحف اللوفر أبوظبي عام 2017، وهو معار من «متحف العين الوطني»، تعود إلى العصر الحديدي أيضاً. وينفرد بأهميته كنموذج متميز للمهارات الحرفية والتقنيات المتقدمة المستخدمة في صناعة وتشكيل المعادن في الإمارات والتقاليد الثقافية في العصر الحديدي. وتمت صناعة الفأس من النحاس المخلوط غالباً بكمية صغيرة من القصدير، حيث تُظهر براعة حرفية ودقة فائقة في التشكيل تعكس تراثاً طويلاً من صناعة المعادن. ويبدو واضحاً أن هذه القطعة ذات خصوصية شخصية، وربما لم يتم استخدامها في الأنشطة اليومية. ويذكر أن الفترة التاريخية التي ترجع إليها الفأس اتسمت بالاستقرار النسبي بصورة عامة، ويبدو أنها كانت ترمز إلى قوة صاحبها، وربما في اجتماعات كبار القوم، أو عند التقاء حكام المدن العديدة المنتشرة في المنطقة لمناقشة الموضوعات ذات الأهمية. واكتسبت هذه الاجتماعات أهمية حيوية لضمان الاستقرار، في وقت أدى اختراع الري بالفلج إلى نمو وتوسع اقتصادي سريع وعاش صاحب هذه الفأس في مجتمع امتلك احتراماً كبيراً للتراث والتقاليد والهوية. وصلت أساليب تعدين النحاس في تلال العين إلى ذروتها مع وصول الإسلام إلى المنطقة حين جرى إحياء تلك

الصناعة وبعثها من جديد بعد آلاف سنة من الركود الذي ران عليها كما تم رفع مستواها لتصبح صناعة مجدية ومربحة للغاية.

تصدير النحاس

أسس رواد العصر البرونزي في العين ميناء تجارياً على جزيرة أم النار بالقرب من الموقع الحالي لمدينة أبوظبي. وقد أصبح هذا الميناء مركزاً للتجارة العالمية وامتداد للتقاليد التي بدأها الأسلاف خلال العصر الحجري الحديث في المستوطنات الساحلية. ومن خلاله صُدّر نحاس حفيت، فقد كان التجار يفدون إليه من بلاد النهرين لشراء النحاس جالبين معهم الأدوات الفخارية والحلي الذي اكتشف في قبور الناس عند سفوح جبل حفيت. ورغم أن بلاد ما بين النهرين كانت متقدمة بالحضارة، احتاجت إلى استيراد كميات من المعادن والحجارة والأخشاب، لذا مثلت السوق الرئيسي لصادرات نحاس العين. وإذا كان ذلك صحيحاً فإن عمّال التعدين وعائلاتهم في حفيت وما جاورها من جبال الحجر استطاعوا الاستمتاع بالحياة وان كانت تلك المهنة قاسية عليهم بعض الشيء. وبعد تلك الفترة من قصة نجاح وازدهار صناعة النحاس في العين أخذت تلك المنطقة في الانزلاق مع تدهور الاقتصاد واندثرت معها صناعة وتجارة النحاس التي راجت لفترات طويلة مع بلاد ما بين النهرين. فما هو أسباب ذلك التراجع في صناعة النحاس؟

كساد الصناعة

هناك عدة احتمالات وضعها علماء الآثار كانت سبباً في تراجع صناعة النحاس في سفوح جبل حفيت. ففي العصر الحديدي ذكروا أن شيئاً مريعاً قد حصل مما أدى إلى هجر القرية أو حدوث تغير في الأنماط التجارية وكساد هذه الصناعة. أو أن السبب راجع إلى حدوث خلل واضطراب في نظام الري بالأفلاج الذي كان قائماً هناك. أو احتمال الإفراط في الإنتاج الزائد من النحاس مما أدى إلى وضع ضغط هائل على الإمدادات المحلية من الأخشاب وربما كان النقص في مواد الوقود عاملاً حاسماً في التدهور الاقتصادي الذي شهدته المنطقة آنذاك.

ولكن وبعد ازدهار الصناعة في العصر الإسلامي ثمة نظرية أخرى تعزو أسباب التدهور إلى احتمال تأثر صناعة النحاس بالحروب العديدة التي دارت رحاها بين اليونان والفرس والآشوريين في تلك الحقبة، غير أن أهم سبب كان نضوب معين النحاس الخام من المنطقة.

المصادر والمراجع:

1. العين الوطني يعير المتحف فأساً من العصر الحديدي، صحيفة الخليج، 14 نوفمبر 2017.
2. العين وواحاتها...تاريخ يكشف براعة الأسلاف في التكيف مع البيئة، صحيفة البيان، 5 أغسطس 2018.
3. كتاب فجر التاريخ: الكشف عن ماضي أبوظبي القديم، أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي، 2011.
4. الحرف العمانية التقليدية، نيل ريتشاردسون ومارشيا دور، وزارة التراث والثقافة، مسقط، موتيفيت للنشر، دبي، 2002.
5. النحاس في العين، شركة بترول أبوظبي الوطنية، أبوظبي.

صناعات وحرف تقليدية من رؤوس الجبال

علي الشحي

مجتمع منطقه رؤوس الجبال مجتمع زراعي رعوي حرفي حقق الاكتفاء الذاتي ببعض الصناعات الفخارية والسعفية والخشبية. وحقق الاكتفاء الغذائي بنسبه عالية في أمنه الغذائي إذ أجبرته ظروف الحياة القاسية على ذلك. وتأقلم وكيف الموارد المتاحة له - رغم شحتها وندرتها وصعوبتها - فحولها واستخدمها، وطوع الطبيعة من حوله فتكيف على قمم الجبال رغم وعورتها. وكطبيعة أي شعب ومجتمع بدأ بالبحث عن ما يستخدمه بسائر أموره الحياتية، من مأوى وملبس وأدوات طعام وخياطه ودباغة جلود وصناعة طعام وصناعة أدوات طبخ وأدوات زراعة وسقي وتطبيب وعلاج، ولم ينس الفنون للترويح عن النفس، إذ امتلك وابتكر باقة من الفنون المتنوعة تضاهي شعوب في عددها وتنوعها، منها ما هو للرجل وما هو للنساء وما هو مشترك. مع تدين ومحافظة على الأعراف والعادات والتقاليد التي ورثها من المجتمع العربي الشرقي القبلي الإسلامي.

من أساسيات تكون أي مجتمع واستقراره توفر عوامل ذلك الاستقرار، من مناخ جيد، ومسكن ومرعى وماء. وكل هذه العوامل توفرت لسكان مناطق الجبال.

واتسم الشخص الجبلي بسمات الجبال من خشونة وصعوبة المراس والشدة وتحمل الشدائد، وتوفرت مصادر المياه المتنوعة كالكسف الطبيعي، والموارد والأفلاج. وكسائر المجتمعات التي تعيش على منطقة جافه قليلة الأمطار وشحيحة مصادر المياه، كان لابد من البحث عن البديل لتوفير شريان الحياة الرئيس والذي لا يمكن الاستغناء عنه، وكان لابد من حفر البِرك الصناعية إلى جانب وجود البرك الطبيعية التي تحتاج إلى بعض الترقيع. وقد عَمد سكان رؤوس الجِبال إلى توسيع وصيانة البِرك القديمة التي ورثوها عن أهاليهم، وعمل بِرك جديدة تغطي العدد المتزايد من السكان، وحفروا المزيد من البرك. وكان الحفر وقتها بالطرق البدائية يدوي بالمعاول، والعتلة، وحمل الطين على الظهر أو الدواب كالحمير التي تنتشر في المنطقة لتحملها مشاق المكان، والبناء بالصخور الموجودة والتجصيص بالجص الذي يتكون من القش مع الطين، والنوع الآخر من «السماد» أو «الدبن» والمقصود به «السماد المتراكم لفترات طويلة مع الطين» والذي يقوم بعضهم بحرقه وثم يقوم هذا الخليط بعمل «الاسمنت» وهكذا عاش ساكن رؤوس الجبال حياته وكيّف عوامل وموارد الطبيعة وأستغلها فيما احتاجه، وهكذا لقد ترك لنا الأجداد بنية تحتية لا يستهان بها صالحه لمئات السنين متى ما استخدمت. ولغرض استغلال ذلك الماء وإخراجه استحدث ساكن الجبل بعض الأدوات كالدلو المعد من جلد الحيوانات أو الشن وربطه بحبل متدلي لسحب الماء. وسُكان رؤوس الجبال لا يتركون شيئاً من الذبيحة من دون استخدام. من حيث أوبارها، وأشعارها، وجلودها التي كانت لا ترمى أبداً، وتُستخدم الجلود بشكل واسع في

أمور كثيرة، منها صناعه قِرب الماء بأنواعها وأحجامها المختلفة، وقرب خضْ وإنتاج اللبن مثل الشكوة وهي قربة خض اللبن لإنتاج الزبد والروب وغيرها، وكذلك استخدمت الجلود كقطائع أو أوجه للطبول وتغليف السيوف القديمة. وإن خير شاهد على هذا وما زال موجوداً، السيوف والقرب القديمة جداً، والباقية إلى يومنا هذا، فبرغم مرور قرون عليها، إلا أنها بحاله جيّده.

صناعة القربة

صناعه القربة حرفة أصيلة، تكون البداية من جلد الحيوان بعد الذبح، إذ يُنصب بخشبة بين ذراعي الذبيحة حتى لا تنكمش ثم يملح جيداً وينشر تحت الشمس لفترة لا تتجاوز الشهر، ثم يخلل بماء مخلوط بأوراق من شجرة النغش أو أوراق نبته العلق المرة، وبعد ذلك يُترك الجلد لمدة يومين ثم يُخرج ثم يُنظف عَنْه الشعر، والهدف من هذه العملية هو إزالة الشعر والشوائب من الجلد ليبدو نظيفاً ناعماً، حيثُ إن هذهِ الأوراق تعمل على إزالة وفصل الشعر عن الجلد، ولقد برَعَ السكان في التوصُل إليها واستخدامها، وبعد أن يُنظف الجِلد من الشعر يُعلق حتى يجِف تماماً، ثم يُدقْ نبات آخر يسمى القرط ويعاد الجلد إلى الماء مخلوطاً مع القرط لمدة يومين ويخرج مرةٌ أخرى، وتُربطْ الأرجل الخلفية بأحكام بعملية تسمى «التظفير».

ثم تربط القربة من جميع النواحي بحيث يصبح المدخل والمخرج فقط من رقبة الذبيحة بالجلد أو مقدمته، وثم تملأ بالماء لمدة يومين ثم يصب.

بعد ذلك تأتي العملية الأخير وهي عملية «التصليل» والصل مادة تشترى من الأسواق، وتستخدم في سد الفتحات بين الخيوط والشن بالقربة، وتستخدم كذلك كصبغ، وهي مستخرجه من حيوان اللخم البحري. وتشترى مادة الصل من الأسواق ويتداولها

أهالي المناطق الساحلية في المنطقة إذ لا تتوفر في المناطق الجبلية، ومن ثم يسكب الصل داخل القربة، وذلك لسد الفتحات بالداخل والدخول إلى الثقوب الموجودة بين الخياطة لسدِها، وعمل واقي للتسريب وتكون القربة معلقه ومملوءة بالماء، وبعد يومين مِنْ هذا أو أكثر تُفرغ القربة وتملى بالماء مرة أخرى مع إعادة التصليل، وبعد تفريغها للمرة الثانية تكون صالحه للاستخدام.

وإن انخرقت القربة خرق صغير تُوجد عملية ترقيع تسمى «قبضه» وإن كان الخرق أكبر تسمى العملية «تجميل" أي ترقع بقطعة أكبر من الأولى.

السَعَنْ

وهو نوع آخر من القرب الأصغر حجماً بعد ذبح الذبائح وخصوصاً الصغيرة «أي التي لم تتجاوز السنة أو أقل منها» فلا يرمى جِلدُها بعد انتهاء الذبح بل يُحافظ عليه لاستخدامات أخرى فينشر على الحبال تحت أشعة الشمس الحارقة بعد ملحه جيداً حتى يجف تماماً فيصبح شن (وهو الجلد المجفف تحت أشعة الشمس وله استخدامات متعددة). ثم ينزل ويخلل في إناء مخلوطاً بالماء وأوراق شجرة النغش وهي شجرة التين البري، أو نبته العلق، والتي يكون دورها في إزالة وإذابة وفصل الشعر عن الجلد والتي استطاع ابن الجبل اكتشاف فاعليتها في هذا الشأن. بعد يومين يتم استخراج الجلد مرة أخرى وإزالة الشعر عنه، ثُم يُخرج الجِلد نظيفاً عن ذي قبل ويعلق مرة أخرى ليجِف. ثم يُعاد إلى الماء في وعاء آخر، ولكن هذه المرة يخلط بنبتة القرط لمدة مماثله، ويخرج مرة أخرى، وتُربط الرجلين الأماميتين بإحكام والخلفيتين بأحكام، في عملية تسمى «التظفير» وهي حياكة القربة بالخيوط أو (الشعموط كما يسمى محلياً وهو قطعة قماش من ازار أو نحوه) وتستخدم بها آلة تسمى مخرز وجاء الاسم من استخدام

الظفر فيها لإحكام عملية الربط والاغلاق. ثم يُربط السعن من جميع النواحي بحيث يصبح المدخل والمخرج فقط من رقبة الذبيحة بالجلد أو مقدمته، ثم تأتي العملية الأخيرة وهي «عملية التصليل»، كما حدث مع القربة. ويُستخدم السعن في الرحلات والذهاب من مكان لآخر كزاد خفيف للحاجة أوقات الرعي والرحلات من منطقة لأخرى، ولا يتحرك الرجل سابقاً في رحِله إلا وسعنه تحت آباطه خشية التعرض للعطش والهلاك.

بيْتُ القَفَلْ

وهو من أعجب ما أبدعه ساكن الجبل في التحصين والبناء ونمط الإعمار الفريد، فهو بيت شتوي يبنى في المنطقة للوقاية من البرد وله تفصيل. وهُو أشهر من نار على علم، إذ انتشرت صوره المختلفة، وعُرِف نِظام بناءُه عن طريق انتشاره بالشبكة العنكبوتية، والكثير من الكُتب المُهتمة بالتراث، ووسائِل الإعلام الأخرى وبشكل كبير، وهو مبنى فريد من نوعه اختص بهِ سكان مناطق «رؤوس الجبال» وبرعوا في عمارته وتصميمه، وأضافوا إليه الدكّه في أحد جوانبه، وجعلوا تحتها عدة مخابئ تسمى مرايا أو مراجع، وذلك بقلب حرف الجيم إلى حرف الياء، وأدخلوا فيه الخروس ورصصوها بجانب بعضها بعضاً لأجل حفظ الأطعمة كالرز والتمر والبر والعسل وغيرها من الأطعمة، ويكون إدخالها إلى البيت القفل قبل بناء السقف. لأن باب القفل صغير جداً مقارنةً بالخروس التي يسع حجم بعضها لشخص متوسط الحجم، فلا يستطيعون إدخالها بعد بناء السقف. وكذلك عملوا به الفتحات أو المرايا أو المراجع كما سبق وذكرنا، لاستخدامها في وضع الأدوات المنزلية الخفيفة وبعض الأمتِعة البسيطة. ويعد بيت القفل نمطًا عمرانياً فريداً وبيتاً آمناً حصيناً، إذ يُحفَر لعمق متر أو متر ونصف أو أقل قليلاً، ثم يبنى فوقه بارتفاع أقصاه ثلاثة أمتار، ويراعى به الانخفاض والعمق ليوفر الدفء الكافي لقاطنيه في الشتاء، ويتضح به عدم

التكلف بالتنسيق بين الصخور من حيث الحجم والشكل، ويكفي وضع الصخور فوق بعضها ولو اختلفت الأحجام والأوزان ويكفي توقيلها لتثبت فقط. ولقد وجدت بعض القفول مبنية بصخور لا تستطيع عصبة من الرجال الأشداء نقلها، وخصوصاً السناطيل، وهي الصخور الطويلة أعلى الباب، وتسمى سطيف، وخلفها خشبة تسمى العتبة لتثبيت باب القفل. والسنطول يوضع على الباب ويحتاج إلى رفع، ووقتها لم تكن هناك رافعات. وكان البناء يتم سابقًا عن طريق الحشد، إذ يتجمع الناس من الأهل والجيران ومن تواجد معهم للعمل معاً. وتكون سماكة القفل من نصف متر إلى متر وربما أكثر، ويسقف ويغَّلب وضع الألب: أي الأخشاب التي تعمد في السقف. من جذوع أشجار المنطقة المحيطة، ويفضل السدر واللتب والنغش «شجرة التين البري التي تنمو بكثرة في رؤوس الجبال». وذلك لصلابته وقوة تحمله، ولعدم تلفه سريعاً، ويوضع فوقها شجيرات الأزديف والعسبق، ونباتات السخبر: نبته جبليه انقرضت منذ عهد قريب تكون على شكل أعواد صغيرة مستقيمة لها رائحة مشابهة لرائحة البخور، وذلك بعد قطعها من الأودية القريبة، ومن ثم يُجمع الطين ويُحضر بواسطة القفر والجواني والخروي جمع خري وهو كيس كبير لوضع الأمتعة. وهي آخر عملية، ويقصد بها: وضع التراب والطين على السقف وتكون سماكته أكثر من ستين سنتيمتر فوق الحشائش وأغصان الشجيرات الموضوعة، في إناء آخر متوفر ومستغنى عنه، وذلك من الوديان القريبة والمقاطع ويتبر به البيت وبعدها يراغ البيت إن كان به فتحات بالدبن هي كتل أسمدة الغنم التي تؤخذ من الزرب، وتحرق وتخلط مع الطين وتعمل عمل الأسمنت من حيث قوة تماسكها. المحروق والطين الجبلي، ومن ثم يضرب الدبن بأعواد شجرة الشوع - وهي شجرة تنموا في الجبال بكثرة وتكون أوراقها على شكل أعواد وخشبها لا يصلح للبناء لسهولة كسره، وتستخدم في الشواء لدى بعضهم لإضافة نكهة للحم كما يقولون - ويثبت جيداً بين الصخور، وذلك بعد توقيل جميع فتحات القفل لضمان عدم دخول الهواء إليه، وكذلك الخشية من تسرب مياه الأمطار وقت هطول الأمطار الغزيرة في فصل الشتاء.

العَلَقْ

من الصناعات المعقدة والمبتكرة بنفس الوقت، فلكل باب مفتاح، وهو عبارة عن مفتاح لباب القفل يُستخدم في منطقة رؤوس الجبال لفتح باب بيت القفل. وينطق كذلك «العلاق»، ولربما يذهب تفكير بعضهم إلى إن هذا الشيء يستخدم في التعليق، وهو كذلك، ولكن بطريقة غير مباشرة، وحرفية. فهو من

أفْرد أنواع المفاتيح وأغربها أو كما وصفها أحدهم «باسورد» بيت القفل الجبلي. وهو عبارة عن: «قطعة حديديه بطول 50 سم تطول وتقصر قليلا، معقوفة من الجانبين إلى الداخل على شكل هلال، رأسها الأول مدبب والآخر معمول به مقبض من الخشب ومعدة لفتح باب القفل الجبلي، عن طريق إدخاله من الخارج عبر فتحه صغيرة وذلك لتحريك خشبة قوية تحكم إغلاق الباب من الداخل باعتراضها، وثباتها فوق قاعدتين جانبيتين في الباب من الداخل، وتعليقها لفتح الباب وتنحيتها جهة اليسار غالباً. وبعض القفول تفتح بعلقين، الأول هو العلق المذكور، الآخر عصا. وفرادة هذا القفل تكمن في أن لكل باب علقاً مُعداً له يختلف عن غيره، ولا يفتح بابًا سواه إلا في حالات نادرة. وهذا النمط من المفاتيح والأبواب محلي الصنع، وما زال الكثير يحتفظون بِعلق أبوابهم مُنْذُ مِئات السنين من دون تلف، أو خراب. وإن دِلْ ذلك فهو يدُل على الإتقان في الصنع من الخشب الجيّد والمحافظة عليه.

المطواق

ومن حرف النجارة نتطرق للمطواق، والاسم مشتق من طوّق أي «أحاط به». والمطواق هو «دقل» يُسمى أهل المنطقة غصن الشجرة دقل. أو غصن شجرة السدر المعمّرة في الجِبال، والذي ينمو حديثاً ويكون نموه غير معوج أي «بشكل مستقيم وطويل»، ويتراوح طولْ المطواق بين «الأربعة إلى خمسة» أمتار وبعضها أكبر قليلاً، وذلك حسب السدرة وقوتها وإنتاجها من الأغصان، والذي يكون وقت بداية الصيف مع بداية الحر وجريان الماء في عروق الأشجار، ويُستخدم المطواق في تطويق

الطبول المخصصة للعب في الأعراس ونحوها. وبعد أن يجفف المطواق وينظف من الأشواك والعقد التي به ويسحت جيداً من القشرة حتى يكون بشكل جميل، ويتعر جِلد الذبيحة اليابس المستخدم المطواق بعض الأحيان في حال الشد عليه كثيراً إلى الكسر نتيجة محاولة تدويره أي (جعله على شكل حلقه أو دائرة، بحيث يكوّن طوق يلف حول الشن ومما يؤدي إلى هدر الوقت والغصن الذي قُطِع وما إلى .... الخ مما يحدوا بالصانع أو النجّار إلى إعادة قطع مطواق آخر ومعاودة نفس الكرّة. ولقد اشتهر الكثير من السدر بإنتاج المطاويق على مستوى المنطقة، وتُعتبر السدرة الرتونية هي أغصان السدر التي تتميز بانعدام الأشواك بعض الأحيان وقلتها غالبا، كما يسمونها أي التي لا تكون كثيفه الأشواك هي الأغزر بالمطاويق، على عكس السدرة الأشكلة وهي أغصان السدر التي تكون كثيفه الأشواك. كما تُسمى هي الأخرى في المنطقة والمملوءة بالأشواك، والشحيحة في إنتاج الأغصان الجديدة، وبطيئة النمو إذ تظل لعشرات السنوات بنفس المستوى من دون كبر أو تغير.

الخَرس

نعرج الى الصناعات الفخارية ونختار منها الخرس يلفظها بعضهم «بخروس» ومفردها «خرص» ولكن بعضهم الآخر يقولها الخرس بإبدال حرف الصاد إلى حرف السين فتكون الجمع، خروس ويسمى زبر وهو مصنوع من الفخار الطيني والذي يُوضع فيه الماء لاستعمالات العائلة المختلفة، كما تُحفظ في الخروس المواد الغذائية الأخرى مثل (الرز) أي العيش والقمح والطحين المطحون والتمر والسمن والعسل إلى غير ذلك من الأطعمة ويكون إغلاق فوهتها جيداً ومحكم وذلك لأني الأفاعي في المناطق الجبلية اعتادت إن تأتي إليها وتأوي تحتها وخصوصاً المملوءة بالماء نتيجة البرودة والرطوبة أسفل منها. وتوضع وترص الخروس في القفول وخصوصاً التي ذكرناها لحفظ الطعام، ويمكّن القفل الذي توضع به الخروس جيداً، ويكون من القفول المتينة الصماء التي لا يخشى عليها من الكسر والتخريب بسهوله حين المغادرة أو عدم وجود أحد بالديرة خشيه السرقة من اللصوص والمتطفلين العارضين، وتبنى الخروس غالباً في المدن والسواحل، وتجلب إلى الجبل عن طريق الدواب أو على ظهور الأشخاص، وهناك مسميات للخروس مثل المغبرة وباعتقادي يعود سبب التسمية ربما للونها الأغبر الطيني حيث إن أغلب الخروس لونها أغبر، وتُسمى كذلك خابية أو خوبيه ويكون حجمها كبير ويستوعب إنسان بحجمه العادي ويستطيع الاختباء به وربما يعود الاسم لذلك، ولزائر مُتحف رأس الخيمة الوطني أن يجِد الخروس العملاقة بمختلف أحجامها في باحة المتحف، وتُعتبر الخروس من تراث الدولتين بشكل عام، وتتواجد بكثافة في محلات بيع الأشياء التراثية في الأسواق، ولدى مختلف القبائل والمجتمعات المحلية، حيث كانت وسيله عامه لحِفظ الماء على وجه الخصوص ■

«قص العسل» هدية الطبيعة لسكان الجبال

عبد العليم حريص

البيئة الجبلية في الإمارات تمثل الضلع الأهم بين البيئات المختلفة، فهي ترمز للقوة والصبر والجلد، وتحمل مشاق الحياة القاسية في زمننا المعاصر.

وبرغم الثورة التكنولوجية، التي نعيشها، إلا أن أهل المناطق الجبلية وخاصة بالإمارات الشمالية، حافظت على موروثها الثقافي والمعرفي، الذي تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل، وحتى اليوم مازال سكان الجبال يمارسون كل تفاصيلهم الحياتية، كما تعلموها من الأجداد، من حيث معرفة المواقيت والمواسم، والفصول، بتقنيات بدائية، ولكنها تناسبهم ومازالوا يحافظون عليها لأنها مستمدة من بيئتهم.

فالبقاء في هذه البيئة يحتاج إلى فراسة، وذهن صافٍ، لا تعكره ضجج المدينة، فهم يتعاملون مع حيوانات متوحشة وطقس موحش، لذلك تجدهم برعوا في مجالات كثيرة، لم يهتدِ إليها غيرهم من البيئات المختلفة، وخاصة في فنون التطبيب والعلاجات الشعبية، والصيد، وصناعة الأسلحة اليدوية، التي تسد احتياجاتهم، إلى جانب الزراعة والبناء وتربية الماشية وتبع ينابيع المياه، ومواطن خلايا النحل، ذلك الغذاء والدواء السحري. وقد اهتدى الإنسان الأول إلى جمع عسل النحل من كهوف الجبال، والتي صارت لاحقاً حرفة ومهنة لا يجيدها الكثير.

فكان جمع العسل من أهم الحرف الجبلية القديمة قدم الإنسان، منذ أن كان دائم التردد على الكهوف والوديان والسفوح، وغابات الأشجار كأشجار السمر، والسدر، والغاف، وغيرها. وفي الإمارات ظهرت مهنة جمع العسل منذ أن وضع الإنسان الأول، أرضه على شبه الجزيرة العربية، فإذا اشتهر أهل البحر بمهنة الغوص وتجارة اللؤلؤ، فسكان الجبال، اهتموا بمهنة جمع العسل، فالإنسان ابن بيئته هكذا تعلمنا.

وكما يقال: جني العسل لا يخلو من لدغ النحل، فهي مهنة محفوفة بالمخاطر وتحتاج إلى الصبر والمثابرة والخبرة والدراية بتلك المهنة العريقة، التي امتهنها الأجداد وقد اعتمدوا على أدوات بدائية وتجارب سابقة.

وقد كانت حاجة الإنسان في هذه البيئات الشاقة، للعيش، أمر في غاية الصعوبة، فكانوا يرحلون من واد إلى واد، لمعرفة أماكن تجمع النحل، ومعرفة مواسم جمعه.

فكان العسل يجمع بغرض الانتفاع به وبفوائده، ولأنه يدخل في كثير من الوصفات الطبية الشعبية، ونظراً لكثرة المتاعب التي يواجهها جامعو العسل يكون ثمن العسل غالياً بحسب موسمه.

ويرتبط ظهور نجم سهيل في مخيلة المجتمع الإماراتي بالكثير البشارات والبدايات التي بطريقة أو بأخرى اعتبرت رسالات وومضات سماوية يلتقطها أصحاب المهن القديمة، مثل البحارة والمزارعين وأهل البادية وساكني الجبال والسهول الوعرة، ومنهم بالتأكيد جامعي العسل سواء من الحقول أو من الجبال، فبمجرد ظهور نجم سهيل في السماء بنهاية أغسطس من كل عام، هي علامة انخفاض درجات الحرارة ومن ثم تبدأ مواسم المطر واعتدال الطقس ومن هنا تبدأ دورة حياة جيدة.

وجني العسل أو ما يعرف باللهجة المحلية الإماراتية «قص العسل» له مواسم يعرفها بسهولة من اتخذوا من جني العسل مهنة لهم، وعلموها لأولاهم، ويطلق على من يجمع العسل

(العسّال). ولجني العسل بحسب رأي أغلب جامعي العسل، مواسم عدة ولكل موسم أيضاً تقسيماته، بحسب المنطقة، وفي هذه المواسم يكون العسل متوفراً بكميات كبيرة، منها موسم الصيف الذي يتراوح بين شهري مايو ويونيو، ويعرف العسل المستخلص في هذه الأشهر بعسل السمر «البرم»، وموسم الشتاء ما بين شهري سبتمبر ونوفمبر، ويكثر فيها عسل السدر «البياب»، والموسم فصل الربيع ما بين شهور يناير وفبراير ومارس، ويكون عسل مستخلصاً من رحيق العشب وأشجار ونباتات أخرى.

جني العسل أو ما يعرف باللهجة المحلية الإماراتية «قص العسل» له مواسم يعرفها بسهولة من اتخذوا من جني العسل مهنة لهم، وعلموها لأولاهم، ويطلق على من يجمع العسل (العسّال)

وعسل السدر الجبلي هو الأشهر والأغلى سعراً، ويعرف بجودته العالية وندرته، لأن النحل يرعى في مراع طبيعية، وعلى أشجار السدر في بطون الأودية وأعالي الجبال وسفوحها، بعيداً عن التلوث واختلاف أنواع الأشجار.

وهناك طقوس متعارف عليها يحرص عليها أغلب النحالين فهم

عادة ما يتركون، نحو 20 إلى 30 % من خلية النحل وما فيها من العسل بغرض استدامة المناحل وتجدد خلايا النحل والحفاظ عليها. ويعرف النحال أماكن تواجد العسل بعدة طرق منها تتبع شغالات النحل، فلو وجدت النحلة في مرعاها أو عند المياه، ثم ارتفعت فوق 30 متراً، فيكون مكان العسل قريباً. أما إذا انتقلت وهي منخفضة من الأرض فمعنى ذلك أن مكان خلية العسل بعيداً، وأما إذا وقفت النحلة لتأخذ قسطاً من الراحة، فيدل على أن مكان العسل أكثر بعداً.

وفي أغلب الأحيان يقوم العسال بتتبع النحلة لعرفة مكان تواجد الخلية. ومن ثم تبدأ الخطوة التالية بعد الوصول للعسل وهي وضع علامة مميزة للتعريف بمكان وجود العسل، أو لعدم تعدي عسال على حق غيره ممن سبقه إلى مكان الخلية، وذلك كوضع غصن أخضر في نفس المكان وحبذا لو مرتفعاً؛ حتى لا تأكله الحيوانات الأخرى، ويتم مراقبة العسل باستمرار إلى أن تغلق جميع مساماته، وفي هذا الوقت يحين وقت القطاف.

وفي حالة ذهاب العسال لجني العسل، يراعي الوقت المناسب، فمثلاً لا يذهب مبكراً، ولا في فترة الظهيرة، وأنسب الأوقات فترة الضحى أو فترة العصر.

وإن كانت الرحلة تبدأ في وقت مبكر جداً، أي بعد الفجر، ويكون مع النحالين أهم التجهيزات والأدوات المستخدمة في جني العسل نحو السكين والمقص، والوعاء والحبال والمدخنة والعصا وغيرهم، ثم تنطلق الرحلة عبر الطرق الجبلية الوعرة حتى الوصول إلى خلايا النحل، التي تسكن في رؤوس الجبال الشاهقة وكهوفها. ويتم طرد النحل عن الخلية، وهذا ما يقوم به عسال متمرس، والذي اعتاد على هذا الأمر، حيث أصبح جسمه لا يفرز هرمون الخوف الذي يتعرف عليه النحل بسهولة، ويهاجمه باللدغات.

وإلى جانب فوائد العسل الصحية والغذائية فهو يدخل وبصورة قوية في مكونات الطب الشعبي، حيث يخلط بالوصفات الشعبية التي تنتشر في ربوع البيئات المختلفة، ويكون عسل النحل الأصلي من أهم هذه المكونات. ومهنة جمع العسل لا تقتصر على الرجال فقط، بل للنساء نصيب في تلك البيئة الجبيلة، وكثيرة هي الأمثلة على ذلك، فجني العسل مهنة دخلتها النساء منذ زمن بعيد، بل وأجدن فيها، وعلمن أبناءهن أسرار هذه الحرفة، التي لا شك بأنها ستدر عليهم دخلاً، وتكون بمثابة حرفة ومهنة تتناقلها الأجيال ■

نباتات طبية تزين رؤوس الجبال

موزة سيف المطوع
تصوير حصة الشحي

قدمت بصحبة ابنتها الصغيرة، تجلس قبالة امرأة يعرفها الجميع، تَتَحسَّس عُنَقَها من أعلى ناحية اللوز، تفتح فمها لتتأكد من مدى الضَّرر، تمسك مِصْفَرَتَها وعود الكركم وتبدأ بدعكه مع قليل من الماء حتى يجهز لها خليط متماسك القوام، وبضغطات خفيفة على اللوز ولأيام معدودة حسب ما تقتضيه الحالة، تتخلص ابنتها من الالتهاب الذي أنهكها منذ فترة، تعيد مِصْفَرَتَها إلى المنضدة بعد تنظيفها، حاملة معها قصة شفاء جديدة.

تنثر السماء خيراتها من المطر لتستقبلها الأرض بشوق، روائح عطرية لطيفة تجوب جبال وادي شعم، أجمل النباتات الحولية تزين سلاسل رؤوس الجبال، يبدأ سكان المنطقة بجني عدة أنواع يَسْتَطِبّون بها تعينهم على علاج أمراض مختلفة، ويجففون الزائد منها.

الوالدة عبيدة سالم اعتادت على حفظ حاجتها من نبتة «الْيِعْدَهْ»، ففي مغلي ورقها علاج لآلام المعدة المبرحة وقاتلة للفيروسات، تشفى من الحمى شرباً واستحماماً، تخفف تهيج الحساسية الجلدية والحكاك، وصارت متوفرة في محلات العطارة لإقبال الناس عليها. تستطرد الوالدة عبيده بذكر بعض العلاجات من النباتات الحولية التي أثبتت فعاليتها وكانت من البيئة الجبلية في المنطقة وتستخدم بقياسات معينة مثل نبتة «الحَرْمَلْ» لآلام المفاصل وانتفاخ البطن والصداع، وفي بخورها تنقية للجو وتطهيره، خاصة عندما تخلط مع الحبة الحمراء والسويداء والشبة ونباتات أخرى فتسمى «الحَروقْ»، واستخدمت نبتة «مُرِنَّح» لآلام الركب، إلا أنها لم تعد موجودة الآن لقلة الأمطار في السنوات الماضية، أما «القِسْطِ الهِنْدي» يُدق جيداً ويُصَبُّ على الرأس للتخلص من آلام الرأس الشديدة، ويستنشق للزكام، ولآلام الأذن نستخدم قطرات من عصارة الزعتر، «بِعْبِغْ التّيس» لِجَبْر شرخ العظام وكسورها ولتقويتها وتشرب مع الحليب، «العَنْزَروت والمُرّة والسّدر والكُركُم والملح والصبار» يجهزها المجبر بقياسات معينة لجبر الكسور. توضح الوالدة حليمة جمعة أن هناك تنوعا في الأعشاب والنباتات العلاجية، فلدينا «الحمّيض والضَيَّء» والذي اعتاد أهل المنطقة على أكله فهو يُقوي أجسادهم، وعرف حديثاً أن الضَيَّء يُنظّم السكَّري وينصح به، أما «تِرْكَةُ صالِح» ذات الطعم الحامض لآلام الصدر، و«الحَلول» لآلام المعدة الشديدة والإمساك والغازات وتعمل على تنظيف المعدة والأمعاء، «هْليلَهْ» لحرقة المعدة، أما السّدر والياس يغسل به الشعر لينبته ويزيده صحةً وقوةً ولمعاناً. وكان للموقع الجغرافي أهميته فامتداد رؤوس الجبال حتى دولة

عمان الشقيقة وللحركة التجارية بيننا اعتدنا استيراد «لبان ماكِل» المفيد لتقلبات المعدة وانتفاخها، فاتح للشهية يفيد ضيق التنفس وينظف الكبد شرباً بكميات بسيطة، واعتدنا في منطقة شعم تدخين الماء به فيصير معطراً برائحة اللبان، خاصة في أيام رمضان المباركة.

وتضيف كان يستورد من جبال بلاد فارس المطلة على الخليج العربي «الخيلة، المرة، الجِرِسْتاني والقِرْمِزْ» فكثرة الأمطار لديهم وأجوائهم الباردة اسهمت في وفرته الدائمة وبجودة عالية، واستخدمت كثيراً في الطب الشعبي في المنطقة وفي باقي إمارات الدولة، أما «الخيلة» فتعالج آلام المعدة والإسهال ودود البطن والمرة مطهرة للجروح وتعجل في التآمها وتعالج تقرحات الفم وتنظف الصدر من البلغم، والجِرِسْتاني والقِرْمِزْ لالتهابات العين، وكل الأدوية الشعبية تؤخذ بقياسات معينة وقليلة.

نوّهت لطيفة الشحي على مدى انتشار أدوية طبية مستوحاة من العلاج الشعبي في دولة الإمارات مثل معجون الأسنان بخلاصة الرمان وغسول للوجه بخلاصة المرة، فسابقاً عرف استخدام مسحوق قشر الرمان المجفف مع قليل من الماء لعلاج التهاب اللثة وتطهير الفم، والمرة استخدمت لعلاج مشاكل البشرة ويزيدها صفاءً، والمرة نبات ذو رائحة جميلة فالاستحمام بمنقوعها يغمرك بشعور الانتعاش وتسهم في تنظيف فروة الرأس وتقوي الشعر أيضاً، والغرغرة بالماء والملح معقم للفم وبات الأطباء ينصحون به لفعاليته. أما حصة مبيوع تؤكد على أهمية وفعالية العلاج بالنباتات الحولية وتوضح: لطالما داوتنا أمي بالعلاجات الشعبية ولا زلنا نستخدمها ونثق بها لما نرى من نتائجها ولم تضرنا يوماً، وعند تغير الجو نشرب شاي الزّنجَبيل والزّعتر والفَوْطَنْ والميرمية والنّعناع لتقوية مناعتنا مع تقلبات الطقس وهي مفيدة للكحة ولنزلات البرد والاحتقان والرشح ولتيسير عملية الهضم، وتمدنا بالقوة والدفء في أيام الشتاء الباردة ■

* كاتبة من الإمارات

حرف يدوية من جبال الإمارات

خالد صالح ملكاوي

أثبت إنسان الإمارات قدرته على مواجهة أقسى الظروف، ومجابهة أعتى التحديات، فلم يُثنِهِ عن مشروع حياته ومسيرة بنائه لا قساوة الصحراء، ولا جبروت الماء، إذ تغلب على كل ذلك، بل وطوَّع خشونة عناصر البيئة من حوله لتكون غزْلاً ليّناً ينسج منه كل ما سهَّل عليه سُبل العيش ومواصلة التحدي، وصاغ من ندرة الموارد ضروباً من أدوات العيش ومستلزمات الحياة، فأتقن واحترف العديد من الصناعات اليدوية والحرف الشعبية في سبيل تأمين الرزق والعيش الكريم، وتحقيق الاكتفاء الذاتي الذي كان أساس الاستقرار. وتنوَّعت الحرف والصناعات التقليدية بتنوع مقوماتها وفقاً لطبيعة مناطق الإمارات المختلفة وجغرافيتها، وازدهر بعض هذه الصناعات حتى وصل إنتاجها إلى أقاصي الشرق والغرب بعد وصوله للأسواق الخليجية والأفريقية، ولئن نرى اليوم أن بعض هذه الحرف والصناعات قد اندثر، فإن العديد منها ما زال يُمارس حتى يومنا هذا، ويمثّل مورد رزق للكثير من الذين يمارسونها. وتُعدّ بيئة الجبل، من أهم مكونات الدولة، فهي تمتد من دبا شرقاً، والجيروشعم والرمس غرباً، حتى الجانب الشرقي من سلطنة عُمان، واشتهر أهلها بممارستهم العديد من المهن والحرف التقليدية التي فرضتها طبيعة الحياة في بيئتهم، فقد برعوا ببناء بيوتهم من الحجارة من طين (الطفال) غير الموصل للحرارة. وغالباً ما يكون إلى جانب كل بيت، قطعة أرض صغيرة مخصصة لزراعة القمح، يطلق عليها (الوعب)، الذي يتم زراعته عادة في الشتاء، ويُجنى في الخريف. وقد تُربَّى الأغنام، فتعيش في «الزريبة»، وتكون على شكل غرفة مستطيلة الشكل مبنية من الحجر، ومسقوفة من جريد النخل، وامتهنوا لكل ذلك حفر الآبار «الطوي»، كما قاموا بتربية النحل في الجبال للاستفادة منه في البيع والاستعمال.

البناء والزراعة

يعيش سكان الجبال في بيوت تتناسب مع ظروف حياتهم، وسط الطبيعة، وقسوتها. ويطلق على المنزل في الجبال اسم (بيت الصفة)، وكان البنَّاء يلقب بالأستاذ، باعتباره مهندس البناء وبانيه، إذ كان يخطط بجريد النخيل أبعاد البيت، بحُجَره ومنافعه، فوق الأرض التي سيقام البناء عليها، ثم تُحفر أساسات البناء وفقاً للمخطط وبعمق نصف متر، ويبدأ البنَّاء عمله بالبناء مستخدماً الحجر والطين، وبعدها يُكمل سقف البناء باستخدام خشب السدر أو الجندل، وفوقه الجريد ثم الخوص لمنع تسرب الطين الذي يوضع فوقاً، وعادة ما يُغطى بيت الصفة بشجر جبلي لا يمتص الحرارة يسمى (عسبق)، ويكتمل بناء البيت بعد وضع الباب الرئيسي والدرايش وأبواب الغرف كلٌّ في مكانه. وفي الشتاء تُبنى بيوت خاصة تصلح لمواجهة برودة الجو يطلق عليها (بيت القفل)، تختلف في حجارتها عن (بيوت الصفة) التي تكون أكثر سماكة، وتغطى من الداخل بطين (المدر) المتماسك عالي الجودة، كما تختلف بارتفاع جدرانها الذي قد يصل إلى ستة أمتار. إلى جانب طريقة قفل أبوابها التي اشتقت تسميتها منها، إذ تكون عبارة عن قطعة حديدية ملتوية، لا يعرف استخدامها سوى أهل البيت. وكان يلحق بالبيت بناء الزريبة لإيواء الأغنام، وتبنى من الحجر على شكل غرفة مستطيلة الشكل، وبابها وسقفها من جريد النخل، ويتصل بها سور أمامي يستخدم كمكان لإطعام الماشية، حيث مارس أهل الجبال الرعي كحرفة أساسية، فرَعَوا الأغنام والمواشي في السفوح والمنحدرات الجبلية، واستخدموا منها منتجات الألبان من جبن وزبد وحليب، كما استفادوا من شعرها في صناعة المفارش والحبال الصوفية، واستخدموا جلودها في صناعة القِرَب لنقل المياه وتخزين السمن والتمر، ولوضع زهبة العروس في داخلها، واستخدمت القِرب في تخزين العسل الذي امتهنوا جمعه من النحل في مناطقهم المشهورة بمناحلها وعسلها.

صناعة الفخار

ساعدت التربة الطينية (المدر) المتوافرة في مناطق الجبال على انتشار وانتعاش صناعة الفخار (البرامين). وصناعة الفخار من أقدم الصناعات الإماراتية، فقد ظهرت قبل صناعة المعدن أو النحاس. وشهدت المناطق الجبلية صناعة مزدهرة للفخار وصل إنتاجها أقاصي الشرق والغرب. وتُعد منطقة شمل برأس الخيمة من أكثر المناطق في الدولة اشتهاراً بصناعة الفخار وإنتاج أشكاله وأنواعه المختلفة، ولاتزال هذه المهنة تتوارث وتأخذ قسطاً من الاهتمام والرعاية لدى أبناء المنطقة. وصانع الفخار لا بدّ أن يخرج

للبحث عن الطين المناسب، وهو بحكم خبرته أصبح يعرف أماكنها ويتعرّفها بسهولة، ويبدأ بجمع الطين، ويكون عادة على شكل قطع من الصخور على القمم الجبلية، أو في بطون بعض المنحدرات.

وتكثر صناعة الفخار في الصيف، وتقلّ في الشتاء؛ نظراً لسقوط الأمطار التي تحول بين الصانع وجودة صناعته، ولكن حرارة الجوّ صيفاً تساعد في سرعة تماسك الصناعات التي أُعدّت قبل وضعها في الأفران الخاصة بها. وتتم صناعة الفخار بأن تؤخذ كتلة من طينة الصلصال الخليط من الطين الأحمر والأخضر والأصفر، وتوضع فوق دولاب التصنيع الذي يدور مع دوران دولاب سفلي تحركه رجل المُصنّع، ومع دوران الدولاب تدور الطينة ويبدأ الصانع باستخدام أصابع يديه وراحة كفه لتشكيل الطينة بدقة وتركيز كبيرين لتأخذ شكل الإناء المراد تصنيعه، وبعد الانتهاء من التشكيل توضع القطعة في مكان مظلل مدة أسبوعين لتجف وتتماسك، ثم تطلى بالألوان الزاهية إن تطلب الأمر ذلك، فتغدو جاهزة للاستخدام. ولصناعة الفخار منتجات متنوعة بتنوع الأغراض منها: (الخرس)، وهو إناء كبير جداً يستخدم لتخزين التمور، ذو فتحة واسعة تسمح بإدخال التمر بسهولة، ويستخدم أيضاً لتبريد الماء في فصل الصيف، يُغطى بقطعة خشبية للمحافظة على نظافة الماء. وتستعمل (البرمة) لطهي الطعام. كما يستخدم (المصبّ) لصناعة القهوة العربية.أما (المدخن) فيستخدم للتدخين، حيث يوضع بداخله العود والبخور. ويبنى (التنور): على شكل حفرة مستديرة في الأرض، ويستخدم لبعض الأكلات الشعبية كالهريس، وبعض أنواع الخبز، وشَيّ السمك، ولا يزال مستخدمًا إلى اليوم. وكانت مياه الشرب توضع في أوانٍ فخارية (جحال) تكون غالباً معلّقة في نوافذ المنازل، حيث تساعد المسامات الموجودة في جدران هذه الأواني على تبريد الماء الموجود داخلها. ولإعدادها للتعليق كانت مهنة «جدل الفخار»، والمقصود بجدل الفخار هو الإطار المحاط بالآنية الفخارية، بهدف حمايتها من الكسر أولا وتسهيل حملها أو تعليقها ثانياً، وفيها يقوم الحرفي بعمل حلقتين دائريتين بقياس قاعدة وعنق الوعاء الفخاري) من حبل الكبار (، حبل مصنوع من ليف النخيل، وتوصل الدائرتين ببعضهما بعضاً بحبال أخرى متصلة ومشبوكة.

صناعة الطبل

تنتشر بين أهل الجبال فنون شعبية تعتمد استخدام الطبول، وتُدقّ الطبول في المناسبات الرسمية والأعراس، حيث يقف الرجال جنباً إلى جنب وهم يحملون الطبول المصنوعة من جذوع الأشجار وجلد الأغنام. ويمتهن الرجال صناعة هذه الطبول، إذ تعتمد المهنة على عدة خطوات؛ أولها توفير الأخشاب من أشجار متنوعة مثل السدر والشريش والغاف، فيما يتم أخذ الجلد من الذبائح الشن التي لا تزيد أعمارها عن الستة شهور، ويُستعان بشجرة علقة لجرد الجلد وتنظيفه من الشعر. يؤخذ

من جذع شجرة كبيرة ما طوله ذراع ونصف الذراع، يتم تشذيبه من الشوائب والزوائد، وتُزال الأطراف والحواف التي تزيد عن الطول المطلوب، ثم يُجوَّف الجذع بالمنقر، ويسوَّى من الداخل بالسنفرة ليأخذ شكلا أسطوانياً ملائماً، يُترك بعدها تحت الشمس مدة ليجف، وتتم سنفرته من الخارج وتخصيره من الوسط وزخرفته بالإزميل، ويُطلى بعد ذلك بالحل ليزداد تماسكاً ويكتسب اللون البني، وبعد ذلك يُثَبَّت جلد الحيوان الشن على طرفي الطبل وُيشدُّ بالحبال الملائمة.

صناعة الأسلحة

يكاد لا يخلو بيت من بيوت أهل الجبال من الأسلحة، فهم يستخدمونها للدفاع عن الأرض والعرض والحيوانات المفترسة التي قد تهاجمهم. وقد قادتهم حاجتهم لاقتناء الأسلحة إلى صناعتها والتفنن في تنويعها بما يخدم الأغراض منها اعتماداً على بعض مواد البيئة التي يعيشون فيها؛ ومن أشهرها اليرز، وهو عبارة عن عصا قوية تُثبت في مقدمتها قطعة من الحجر أو الحديد أو النحاس على شكل فأس صغيرة، وكانت تستخدم للدفاع عن النفس وغيرها من الاستخدامات، أما السكين ومنها: البيشك، والمسحل، والضلع، والقراعة، والنزوانية، فهي عبارة عن قطعة حديد لها مقبض خشبي، وتوضع داخل غمد من الخشب تسمى القطاعة، وكانت تستعمل للزينة والدفاع عن النفس وذبح الأغنام، ويتم وضعها في منتصف الجسم خلف المخزم. وتعرف بين أهل الجبال صناعة النشاب، وهي سهام تصنع من الحديد، والنحاس الأحمر، وسعف النخيل، وأعواد الأشجار، وكذلك صناعة الكنانة، وهو الجراب الذي توضع فيه النبال، وتُصنع من الخشب ويُلف عليها بجلد الماعز، إضافة إلى صناعة الرماح، مثل: الشلفا، الحربة، الموغل، المقصر، البيرق الأرضي، والسمر. وثمة صناعة الكبش: وهي خشبة طويلة يحملها المقاتلون لكسر أبواب القلاع والحصون. وصاحب ذلك صناعة الأنير الحربي (القنحة الحربية)، وهي أداة مربوطة أو مثبتة في حبل طويل، تُرمى أو تُقذف من الأسفل إلى أعلى الحصون والقلاع، لتكون وسيلة للصعود والاقتحام. وضمن صناعات الأسلحة لدى أهل الجبال يُصنع البارود الذي تبرز الحاجة إليه وقت الحروب، ولا يُستغنى عن استخدامه في الأعراس. وهو يُصنع من (الشورة)، وهي مادة ملحية، والفحم والكبريت (الخفتان)، ومن جذوع شجرة الأشخر وأغصانها الغليظة بعد تقطيعها إلى قطع مناسبة، وهذه شجيرة برية لا تؤكل لأنها سامة ،إذ تُغلى قطعها في قدر ماء طيلة ساعات نهار كامل، ثم تُهرس بعد ذلك وتُدق لتصل إلى أقصى نعومتها، كما تُدق كذلك الشورة، التي يؤتى بها من سبخات المناطق المالحة، لتتحول مثل سابقتها ناعمة كالطحين، ويُخلط المسحوقان بعد ذلك مع الفحم والكبريت، وذلك بنسب محسوبة، ويُدق الخليط بالهاون مدة ثلاث ساعات ليتحول إلى بارود جاهز للتعبئة في الرصاصة الفارغة التي تُسد بالصفرة بعد حشوها بالبارود، والصفرة قطعة صغيرة من النحاس الأصفر ■

كيف طوع الإماراتي الجبل

فاطمة المزروعي
كاتبة من الإمارات

ظهرت الكثير من الصناعات منذ فجر تاريخ البشرية، وكانت ملامحها الأولى نابعة من حاجة الإنسان البدائية في ذلك العصر. كانت تلك الحاجات متواضعة وبسيطة، لذا نجد أن تلك الصناعات كانت أيضاً شديدة التواضع. كان الإنسان في تلك الحقبة الزمنية يحتاج لبعض الأدوات التي تسهل عليه الصيد، فكانت صناعة الأدوات الحادة سواء من الخشب أو الحجارة أو من عظام الحيوانات والأسماك، صناعة رائجة ومهمة جداً. الحال نفسه في صناعة الملبوسات والدباغة، والتي كانت مهمة جداً لأنها الصناعة المسؤولة عن اللباس الذي يقي من البرد ويحمي من الرياح الشديدة. الصناعات على اختلاف أنواعها ومجالاتها اختلفت باختلاف بيئتها، كل بيئة برعت في صناعات محددة، فالإنسان الذي يسكن على السواحل ازدهر لديه صناعات الشباك والسنانير وخيوط الصيد وحبال السفن والأشرعة ونحوها، ومن يسكن في البيئة الصحراوية تميزت صناعاته بأنواع تتناسب مع هذه البيئة القاسية، فاستفاد من جلود الحيوانات في حياكة بيوت الشعر والملابس... إلخ، فضلاً عن الاختلافات في طبيعة الطعام وطريقة طهيه وتجهيزه، التي تراعى حاجات الإنسان في كل بيئة. تميزت البيئة الجبلية بصناعات متنوعة، وبحرف وأدوات لا نجدها في بيئات أخرى. حتى عُرفت بهذه الصناعات. وما يميز بيئة الجبل أنها متنوعة وتكاد تكون الصناعات فيها أكثر من أي بيئة اجتماعية واقتصادية أخرى. في الجبال، تجد صناعات تتعلق بالملبس، وأخرى تهتم بالزراعة، وهناك صناعات تدعم عمليات الصيد، فضلاً عن صناعة بناء المنازل، وصناعة تتعلق بالري وحفظ الماء، ونحوها من المهام والمبتكرات الصناعية التراثية التي لا تقدر بثمن، والتي توضح الاستجابة البشرية للحاجات الحياتية، وهذه جميعها تتطلب وتحتاج في عصرنا الحديث لدراسات عميقة ومتعددة لفهم آليات وطرق نشأة وتطور هذه الصناعات. على سبيل المثال الصناعات التي قامت لأغراض بناء المنازل التي يسكنها قاطنو الجبال، تعد صناعة ومهارة معًا إذ أخذت في الحسبان الظروف البيئية والمناخية لإنسان هذه الأرض، يقول حسام فتحي أبو جبارة، في مقالة منشورة سنة 2013 م في المجلة العربية، تحت عنوان سكان البيئة الجبلية في الإمارات: «يعيش سكان الجبال في بيوت تتناسب مع ظروف حياتهم، وسط الطبيعة، وقسوتها.

ويطلق على المنزل في الجبال اسم (بيت الصفة)، ويكون مبنياً من الحجارة التي لا تمتص الحرارة، ويؤسس على عمق نصف متر، وتُترك في جوانبه الأربعة عدة فتحات للتهوية، سقفه من شجر السدر أو سعف النخيل، وعادة ما يُغطى بيت الصفة بشجر جبلي لا يمتص الحرارة يسمى (عسبق). وفي الشتاء تُبنى بيوت خاصة تصلح لمواجهة برودة الجو يطلق عليها (بيت القفل)، وتُعمل من حجارة سميكة، وتغطى من الداخل بطين (المدر) المتماسك عالي الجودة، وقد يصل ارتفاع جدار البيت إلى ستة أو سبعة أمتار. وسميت هذه البيوت بـ (القفل) نسبة إلى طريقة قفل أبوابها، والتي تكون عبارة عن قطعة حديدية ملتوية، لا يعرف استخدامها سوى أهل البيت. وغالباً ما يكون إلى جانب كل بيت، قطعة أرض صغيرة مخصصة لزراعة القمح، يطلق عليها (الوعب)، الذي يتم زراعته عادة في الشتاء، ويُجنى في الخريف. وتعيش الدواجن في كوخ صغير يسمى (أنه)، يُبنى على شكل مثلث له سقف مخروطي (هرمي) من سعف النخيل. أما الأغنام فتعيش في (الزريبة) التي تكون على شكل غرفة مستطيلة الشكل مبنية من الحجر، وبابها وسقفها من جريد النخل، ويتصل بها سور أمامي يستخدم كمكان لإطعام الماشية» ويضم البيت في البيئة الجبلية جملة من المهام، تتطلب مهارات في الحدادة والحياكة والنجارة، إذ تتضافر هذه الصناعات الحيوية وتجتمع لتكون هذا الطراز الفريد لمسكن الإنسان في تلك البيئة القاسية بكل ما تعني الكلمة. بعض صناعات المناطق الجبلية نتجت من البيئة المكانية، واستغلها السكان وطوروها بما يخدم حاجتهم، منها، على سبيل المثال، صناعة العسل، تربية النحل لإنتاج العسل بوفرة، والاستفادة منه في الطعام والبيع. وقد كانت خلايا النحل

الجبلية منتشرة في الجبال، فقام سكان هذه المناطق باستئناس النحل وتربيته. وبالملاحظة وتراكم الخبرات والتجارب تمكنوا من تطوير المهنة وجعلوها صناعة مربحة متطورة. الحال نفسه في مجال صناعة القهوة، إذ أتقن سكان الجبال هذه الحرفة وكيفية دق حبوب الهيل، وتحميصها وتقليبها على النار، وعرفوا أنواعها ومصادرها، وبرعوا فيها تماما كالعسل. ومن ذلك صناعة الطبل، وهي صناعة متوارثة ولها عمقها التاريخي، وأهميتها في الأهازيج والأفراح، إذ استفاد السكان من أخشاب السدر أو الغاف أو غيرها مما يتوفر في البيئة، تُترك لمدة عام لتجف تماماً، ثم تبدأ عملية تجويفها وتغطيتها بالجلد. وليس بعيدًا عن ذلك صناعة السلاح المحلي في الجبال ويسمى «اليرز»، وهو مكون من قطعة من الحديد، حادة من طرف واحد، مثبتة في عصا من شجر السدر أو الشحس ونحوها. وهناك عشرات المهن والحرف التي اعتمدت على صناعات ابتكرها إنسان الجبل، نظرا للحاجة الماسة لها، إما لتوفير الغذاء والطعام مثل صناعة العسل، أو لتساعده على حماية نفسه وممتلكاته من المفترسات والأعداء، مثل صناعة اليرز، أو الحاجة للراحة والهدوء التي أوحت بصناعة القهوة، ثم قبل هذا جميعه الحاجة إلى المأوى الذي يسكنه فصنع بيته وأسسه من مكونات البيئة الجبلية. نجح الإنسان الإماراتي في البيئة الجبلية أن يبدع كذلك في صنع أشيائه من بيئته الخاصة بأن يطوعها لما فيه فائدته، لاستخدامها في حياته اليومية وتسهيل أعماله، من ذلك صناعة الطين أو الفخار والتي تعد من أقدم الصناعات في العالم. ولم تكن من المهن السهلة، إذ كانت مادتها الأولية تُجلب من الجبال، مع ضرورة تنعيمها ونخلها وتنظيفها لتُخلط بعدها بالماء، ويترك الطين حتى يتماسك، ثم يصنع ما يمكن صناعته منه. وكانت صناعة الفخار قديماً تتم في فصل الصيف، لأن الحرارة تساعد على سرعة تماسكه الطين، وقد صنع الإنسان الإماراتي من الطين منتجات كصيرة أشهرها: (الخرس) وهو إناء كبير جداً ذو فتحة واسعة يستخدم لتخزين الماء أولتبريده في فصل الصيف، ويوجد في كل بيت، ويعد إحدى المكونات الأساسية لكل منزل. وكان بعض الأهالي يستخدمونه في تخزين المالح، وكانت المراكب «الأبوام» القديمة تستخدمه بشكل رئيسي في تخزين المياه والتمور وغيرها في أسفارها الطويلة. ويتميز الخرس بخاصية الحفاظ على نقاء الماء، خصوصاً عند هبوب رياح الكوس أو السهام. وللخرس أنواع مختلفة منه الصغير والكبير، ولكل استخدامه الخاص، والصغير هو الأكثر استخداماً، لحفظ الماء، والكبير لتخزين المالح.

ويصنع الخرس من الفخار ومادة مشابهة للجص، وباستخدام درجة حرارة عالية لمدة طويلة نسبياً، يجف الخرس ويصبح قويًا، وينظف جيدًا حتى يصبح صالحًا للاستخدام.

وتعد منطقة) شمل (برأس الخيمة من أكثر المناطق في الدولة اشتهاراً بصناعة الفخار وإنتاج أشكاله وأنواعه المختلفة، ولا تزال هذه المهنة تحظى بالاهتمام والرعاية لدى أبناء المنطقة، المرتبطين بتاريخهم وتراث أجدادهم.

لقد نشأت الصناعات اليدوية القديمة لتلبي حاجات الإنسان ونجح آباؤنا وأجدادنا، الذين عاشوا في تلك البيئات القاسية، بأفكارهم ومبتكراتهم في وضع حلول لقسوة الطبيعة وشظف العيش، فكانت حلولهم ناجعة ومفيدة، ولا زالت تستحق التقدير وتثير الدهشة حتى يومنا هذا ■

عَدَّها شواهد على عراقة التاريخ

الباحث عبد الله عبد الرحمن

حِرف الجبال في الإمارات إنجازات إنسانية ضخمة

أجرى الحوار... مجدي أبوزيد:

إذا كانت الذاكرة رنين الماضي فإن الحاضر هو المايسترو الذي لا يكف عن عزف هذه النوتة، خاصة في البلاد التي تضع كل تاريخها بكل نغماته في أنشودة واحدة تُنير لها الطريق كي تُثمّن الحاضر وتستشرف إرادة صنع المستقبل، ولعل الإمارات من هذه الدول التي تمتلك ذاكرة سخية وثرية تدلنا على كيفية تحويل التحديات إلى فرص حقيقية، والمعاناة إلى عبر ومواعظ، وجهود الأولين إلى علامات راسخة على جبين الأجيال. والباحث (عبد الله عبد الرحمن) يعتبر أحد رجالات مؤرشفي ذاكرة الوطن، بكل ما يمتلكه من شغف حقيقي بتاريخ بلاده، وهو تاريخ مترامي الحكايات التي لا تنضب، لذلك سوف ينصب حوارنا معه على صناعات الحرف اليدوية لدى سكان الجبال.

ورحلة ضيفنا لا تتكئ في أغلبها إلى المراجع والسرديات والمحكيات فقط، بل إلى الاقتحام المباشر والميداني لهذا التاريخ، والمعايشة المباشرة خاصة أن طفولته اشتد عودها في بيئة ملاصقة للمناطق الجبلية ومع سكانها، حيث نشأ في قرية «الحديبة» الزراعية في إمارة رأس الخيمة على الطريق بين السيوح ومجاري الأودية ومناطق النخيل بجانب تنقلاته ورحلاته الصحفية والبحثية في كثير من المواقع الحيوية الجبلية وفي تراث ومأثورات أبنائها. والصناعات اليدوية في المناطق الجبلية بدولة الإمارات لها حكايات خصبة ومتنوعة يرويها التاريخ بعرق وجهد ومثابرة رجالها، حيث أكد (عبد الله عبد الرحمن) أن تلك الصناعات تبقى شاهد عيان على عراقة تاريخ دولة الإمارات.

نحو رؤية بانورامية

في البداية، يأخذنا الباحث إلى رؤية بانورامية لملامح الطبيعة في المناطق الجبلية وبعض تفاصيل لحركة حياة السكان هناك والصناعات اليدوية المرتبطة بالحياة اليومية .. فيقول: هنالك نماذج لإنجازات إنسانية ضخمة كانت وليدة الحاجة الماسة في ظروف المعطيات المعيشية الشحيحة وظروف الفاقة والعدم وقسوة الطبيعة وانعدام الإمكانات والوسائل التقنية، فكان لا بد من الاعتماد على القوة الجسدية الفردية والجماعية المتكافلة المترابطة لانتزاع لقمة العيش من باطن صخور الجبال، وللاحتماء من الظروف الطبيعية القاسية، ولضمان الأمن المعيشي والغذائي وغيره. كما أن هناك هذه المجمعات السكنية الصخرية المترامية بين أحضان الجبال، وعلى أطرافها، وفوق مرتفعات صخرية هنا وهناك، وحيثما التفت البصر. كما هي هذه «البرك» المائية العميقة الواسعة المنتشرة في الوديان منذ مئات السنين، وكذلك هذه (الوعاب)؛ أي الأحواض الصخرية الكبيرة الواسعة المقامة على أطراف الوديان وفوق سفوح الجبال أو على «سيف» الجبل كما يصفونها.. وهي مخصصة للزراعة في مواسم الأمطار. ويواصل: خلف هذه السلاسل الجبلية عشرات من القرى الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، جميعها كانت موطن مئات من العائلات البدوية منذ الزمن البعيد، وأن أولئك

السكان لم يكونوا مستقرين في إقامتهم بمكان واحد طوال العام، بل إن المواسم بظروفها فكان تنقلهم إلى أكثر من منطقة بين الجبال والوديان، غالباً فإن القرى المزدحمة بالمساكن الصخرية والأحواض الزراعية «الوعوب» وبرك المياه بين السلاسل الجبلية هي الديار الصيفية، حيث موسم حصاد القمح الذي كان يعتبر واحداً من المصادر الأساسية لمعيشة أهل البادية. وكانت زراعة القمح تتم في مواسم الأمطار الشتوية بين الأحواض الزراعية المجاورة للمساكن كأنها ساحات ممشطة بين صخور الجبال. وعن هذه الوعوب يوضح عبد الله عبد الرحمن، أن هذه «الوعوب» بُنيت في مواقع استراتيجية على أطراف الوديان أو تحت ظلال المرتفعات الجبلية، بحيث تجلب لها السيول الأتربة، وتتجمع في أحواض واسعة على ارتفاع مترين من الأرض بين أربعة جدران صخرية بنيت بتعاون جماعي بين أبناء القرية الواحدة لتمتلكها عائلة واحدة أو يتوارثها الاخوان، وقد يؤجر جزء من بعض الأحواض لمن لا يمتلك «وعباً» خاصاً به، وهؤلاء قلة. وفي شتاء كل عام وحتى نهاية الصيف كانت تلك القرى تتحول إلى غابات خضراء من أشجار القمح، وأن أعداد تلك الأحواض الزراعية كانت تتفاوت بين تلك القرى الجبلية ما بين 150 - 400 حوض حسب كبر وصغر كل قرية، وبالتالي فإن الإنتاج السنوي من القمح كان كبيراً جداً ويقصر على الاستهلاك الذاتي فقط، لذلك فيوجد بالقرب من كل حوض زراعي هناك مخازن صخرية مقفلة إلا من شباك صغير كصوامع يخزن فيها القمح بعد الحصاد، ويبقى كذلك لسنوات طوال، ويقال إن هناك بعض المخازن التي لا تزال تحفظ كميات من القمح المنتج قبل 12 سنة تقريباً. كما توجد بالقرب من تلك «الوعوب» والمساكن الصخرية آلات الطحن الصخرية، وهي «الرحى» وكانت نساء البادية يتولين مهام طحن القمح، بينما الحصاد الصيفي يكون بالتعاون الجماعي بين أبناء القرية الواحدة وبالتناوب.. وتنتشر في تلك القرى «التنانير» أي الأفران الصخرية التي كانت النساء يصنعن الخبز فيها كوجبة غذائية رئيسة، مضافاً إليه مصنوعاتهنّ من الألبان والسمن وغيرها من منتجات المواشي، وكذلك عسل النحل الطبيعي، وعموماً فإن الثروة المعيشية الأساسية الأولى في حياة أبناء البادية بالأمس كانت هي الأغنام ،حيث كان الفرد منهم يمتلك العشرات من الرؤوس، ومن أجل رعايتها والإكثار منها كان يقضي أياما وشهوراوسنين حياته متنقلاً بين الجبال والوديان بحثاً عن الماء والكلأ، وحامياً لها من الذئاب والنمور وغيرها من الحيوانات الجبلية المفترسة في الماضي. كما كانت «الحطابة» من أشجار السمر وصناعة السخام «الفحم» والإتجار بهما في أسواق الساحل مصدر دخل آخر لأبناء بادية هذه الجبال، وكان يشترك فيها الرجل والمرأة والفتيان والفتيات، مثل اشتراكهم في الرعي والزراعة وغيرها.

قوة وجلد

وحول قوة وعزيمة الإنسان الإماراتي المنحوتة من صلابة هذه الطبيعة، يقول: إلى جانب المشاهدات الاستطلاعية العابرة، يبقى التساؤل حول مدى قوة وجلد أبناء البادية الذين عاشوا متكيفين مع هذه البيئة القاسية، ومتعاملين معها، ومسخرين معطياتها لمعيشتهم على مدى عشرات بل مئات السنين إنهم لا شك بقوة هذه الجبال وشموخها وصمودها وصبرها وتحملها. ومن أكبر قرى جبال رأس الخيمة كمثال هي المنطقة الممتدة من «الربيبة» حتى بحر دبا، إنها «السل» موطن المئات من العوائل البدوية منذ مئات السنين وحتى الأمس القريب جداً، وبالالتفات يميناً أو شمالاً، غرباً أو شرقاً، من فوق حد التلال الجبلية العالية على حدود القرية، يتأكد القول عبر المشاهد الخلابة للآثار السكنية الصخرية المزدحمة بها أطراف الوديان وسفوح الجبال وقممها وزواياها، وفي الساحات المرتفعة والمنخفضة بين أحضان السلاسل الجبلية الشاهقة، أنها تعبر بقوة عن ظروف معيشية إنسانية قاسية، تكيفت وصمدت ضد تفاعلات الطبيعة في المناطق الجبلية الصخرية. وبالوصول إلى (وادي قداعه)، في الجبل الأحقب يمكن للزائر اليوم أن يشاهد تحفة أثرية صامدة من صنع أياد بشرية صلبة متحدية، ولوحة طبيعية بديعة المنظر فائقة الروعة والجمال يصعب وصف معالمها بالكلمة أو حتى بعدسة «الكاميرا». ولا تملأ زيارة واحدة على الطبيعة العين المجردة من الاطلاع والتفحص والاستكشاف والتأمل والتساؤل. وهذه المجمعات السكنية في «وادي قداعة» جزء من مجمعات أكثر ضخامة وأكبر عدداً، تقع في ظهر الجبل الأحقب، كما أن العين المجردة لا يمكن أن ترى من حيث تطل من وادي قداعة مجمعات ومساكن متناثرة هنا وهناك على سفوح وأطراف هذه السلسلة الجبلية عامة.

صناعة الوعوب

وعن الاعتماد المعيشي على «الدرّ والبر والتمر»، يلفت الباحث الأنظار إلى "الوعوب" الزراعية لنعرف بأن كل مدرج منها بطول وعرض الواحد 80×80 قدماً، وهي محاطة من الجهات الأربع بجدران صخرية مرتفعة متراصة التصقت بعضها ببعض بواسطة «الجص».. في وسط تلك الجدران الصخرية تجد مسطحات ترابية خصبة تملأ تلك المدرجات حتى شفا سطحها العلوي.. ويلاحظ أن مواقع هذه «الوعوب» ملاصقة للوديان، بحيث تحجز كميات التراب التي تجرفها مياه الأمطار الجارية في تلك الوديان وتجمعها في وسط هذه الجدران الصخرية لتحيل

الأرض الجبلية الصخرية تحتها إلى مسطحات ترابية خصبة، فيتقاسمها الأهالي فيما بينهم، ويتوارث الآباء عن الأجداد والأبناء عن الآباء هذه الوعوب. ولقد بنيت تلك «الوعوب» بتعاون جماعي بين أبناء القرية الواحدة؛ لتمتلكها عائلة واحدة أو يتوارثها أخوة. وقد يزرع الوعب الواحد على دفعتين، بحيث يزرع في بداية الموسم القمح الذي يستكمل نموه خلال 40 يوماً من بعد التبذير ليحصد ثماره، ويقوم بالحرث مرة أخرى وينثر فيه بذور الحب (البر)، لكن الاستنفار سرعان ما ينهض بين سكان تلك القرى بصفة عامة مع هطول الأمطار، إذ يبدأ الإعداد للرحيل بعيداً عن «الوعوب» التي كادت تحيل الجبال إلى واحة خضراء خلابة. ما أن يمر شهر على زراعة تلك الوعوب حتى تكون أشجار القمح قد نمت وارتفعت حينها، ليشد الرجال رحالهم للانتشار الجماعي بينها لانتزاع الأعشاب والنباتات الدخيلة من بينها حتى يتيحوا لأشجار القمح مزيداً من المجال والفسحة للنمو والمتانة. وتتم هذه العملية غالباً حسب أعراف «الحشيد»؛ أي التعاون الجماعي المشترك، حيث يقوم في كل يوم أحد أصحاب الوعوب باستضافة 15 - 20 رجلاً لتنظيف وعبه من الأعشاب، ويتكفل بتوفير وجبات الإفطار والغداء والعشاء لهم، وفي اليوم التالي يكون دور وعب جديد لصاحب مختلف وهكذا بالتناوب فيما بينهم. وكذلك الأمر بالنسبة للمجموعات الأخرى المنتشرة بين الوعوب والقرى الأخرى، وقد تستغرق هذه العملية قرابة عشرة أيام، ليعود الرجال بعدها إلى ديارهم الشتوية حيث عائلاتهم ومواشيهم، وتهجر من ناحية أخرى الأحواض الزراعية لتكمل

شهوراً أربعة بالنسبة للقمح، وفي مثل هذه الأيام من الموسم تكون سنابل القمح قد أكملت نضجها وأينعت للقطف والحصاد.

ضد المخاطر

بما أن الطبيعة الجبلية تتسم بجهامتها وتربص المجهول، كان من الطبيعي أن تجد صناعة بارود الأسلحة مكاناً لها في هذه البيئة القاسية. وحول هذا يقول الباحث عبد الله عبد الرحمن «البيئة الجبلية لم تقتصر تحدياتها على تدبير وسائل العيش أو الطقس فقط بل أيضاً امتدت إلى حماية النفس والروح من مخاطر الحيوانات المفترسة مثل بعض النمور الجبلية التي تهدد الجميع، فضلاً عن الذئاب التي تشكل خطراً داهماً على المواشي والإبل وكذلك الأطفال، لذلك كان من الضروري تدبير ما يلزم لمواجهة هذه المخاوف، فلقد كان سكان الجبال على قدرة عالية للاستجابة للتحديات والتي يراها علم الإناسة منطلقاً رئيساً للبقاء في وجه الحياة الصعبة، حيث كان سكان المناطق الجبلية يستخدمون (القفاطات) الحديدية لاصطياد النمور والذئاب خاصة؛ وهي مصيدة تغطى بقطعة خرقة وعليها قطع من اللحم، وتوضع في مواقع ورود هذه الحيوانات لشرب المياه منها، وهنا تقع في الفخ.

أقدم الصناعات

الحديث عن صناعة الفخار ذو شجون، فالمادة الطينية المُكوِّنة للفخار لها ارتباط عريق بذاكرة الإنسان وخلقه، فضلاً عن كونها أوعية للطعام وطبخه، لذلك يمكن اعتبارها رمزاً من رموز العيش والمعايشة اليومية... حول ذلك يحدثنا ضيفنا ويقول: صناعة الفخار من أقدم الصناعات التقليدية في الإمارات، حيث تعود إلى فترة «أم النار» قبل الميلاد... واشتهرت الفجيرة ومنطقة شمل في رأس الخيمة بهذه الصناعة، التي تعتمد الأواني والأدوات المختلفة منها على معرفة جيدة بأنواع الرمال ونوعية معينة ناعمة من التراب، الأمر الذي يساعد في سهولة تكوين الأشكال المطلوبة. ويوضح عبد الرحمن أن هناك أنواعاً من الفخار؛ الأخضر ويتم استخراجه من باطن الأرض ويستخدم في تبريد المياه وسقي الزراعة، والأحمر فهو يستخرج من سفوح الجبال ويستخدم في الطبخ وحفظ الأطعمة، مشيراً إلى نوع «الخرس» الذي كان يستخدم في تخزين التمر والماء والشعير والقمح، وكذلك «اليحلة" أو «الجحلة" التي كانت تستخدم في نقل المياه من الينابيع وسواها، و«الحب» الخاص بشرب الماء، و«القدر» الخاص بطهي الطعام والمزهريات ودلال القهوة، و«البرمة» وهو إناء لطبخ الأطعمة، و«الملة» لوضع الطعام بها، مؤكداً أن هذه الصناعة لا زالت تحتفظ بمكانتها في إمارة رأس الخيمة ومنطقة مزيرع في عجمان. ويذهب بنا الباحث صوب المحارق، حيث يقول: من جهة الجبال وأنت قادم ناحية البيوت الشعبية في الشارع العام: تستوقفك أحد أبرز المعالم التاريخية في حياة إنسان الإمارات عامة، تلك هي آثار (محارق) ومصانع قبائل (الحساسنة) وفروعها المنتشرة في (وادي حجيل)، سكان (شمل فوق) البدو، وفي السنوات العشرين الأخيرة من عمرها كانت تزيد على 40 محرقة، بينما كانت أكثر من ذلك في الماضي. وعلى كل (محرقة) كان يعمل شخصان إلى ثلاثة، وقد تكون الأخيرة امرأة،

وفي الغالب أقارب، فهناك (الصانع) والآخر (للهباب)، وهذا يستيقظ صباح كل يوم ويتناول بعض حبات من التمر وينطلق (حافياً) من دون نعال إلى الصحراء يجوب أطرافها القريبة والبعيدة بحثاً عن أكبر كمية من شجرة (الأصبغ) ليعود بها ظهراً أو بعد الظهر إلى حيث المحرقة، لا يستريح إلا دقائق ليتناول جرعة من الماء فقط، فالغداء لم يكن يومها معروفاً أو متوفراً، ثم ينطلق من جديد ويتجه ناحية الجبال هذه المرة وعلى رأسه وعاء كبير يملؤه بالطين، ويعود ليكرر الجولة عدة مرات أخرى، ذلك أن المطلوب لصناعة الفخار ثلاثة أنواع من الطين (الدحس) و(الهمور) الذي يؤتى به من المغارة، والاسم يعني عملية الخروج والدخول من وإلى المغارة، ثم (الصنع) وهو النوع القوي الذي يمسك النوعين الآخرين معاً.

تلك هي مهمة (الهباب)، أما (الصانع) فهو منشغل طول النهار بطحن (الطين) وتنخيله وخلط الأنواع الثلاثة معاً ليتركه من المساء حتى الصباح لكي يتخمر، وينهض صباحاً لصناعة (الخوابي) وهي الخروس الكبيرة التي تستخدم كوعاء لحفظ (التمر) والماء مثلاً، وتتسع لما بين 60 - 90 (مَنْ) في الغالب ويزيد، و(الفخاخير) وهي خروس صغيرة تستخدم لنفس الأغراض، و(البرام) وهي قدور الطبخ، و(اليحلة) التي تستخدم لحفظ المياه، و(التنانير) للخبز أو الطبخ، و(الكوار) للضوء، و(الخنب) و(المواليل) لسقي الحيوانات. إضافة إلى (المداخن) للبخور، (والدلال) والفناجين، وغيرها الكثير.

وهذه الصناعات مقتصرة على شمل من دون غيرها من مدن وقرى رأس الخيمة، حيث لم نسمع بأماكن أخرى، ومن دون مبالغة أستطيع التأكيد بأن كميات الإنتاج كانت كبيرة جداً، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار مشاق المهنة وظروف الحياة العصيبة والإمكانيات البدائية البسيطة جداً. وكل إنتاج المحرقة الواحدة لكميات من الصناعات المختلفة الأنواع (200 حبة من المنوعات الصغيرة) وأقل للأحجام الكبيرة كما أشرنا، كان إنتاج هذه الكمية يستغرق ما بين 15 - 20 يوماً، وتمتد أحياناً إلى شهر. وحيث أن مواعيد البدء والانتهاء لم تكن متوافقة أو متشابهة بين المحارق، فإن تصدير الإنتاج لم يكن يتوقف أبداً طوال شهور الصيف والشتاء من كل عام، فمن الأسواق في رأس الخيمة والمعيريض والرمس، إلى دبي والسعودية والكويت والبحرين وقطر وايران، وغيرها من الدول المجاورة، وقد شاهد بعض المواطنين الذين سافروا إلى هذه البلدان هذه الصناعات في البيوت والأسواق هناك، ولكن مهمتنا كانت تنتهي عند إيصالها إلى الأسواق وبيعها إلى التجار والمتعهدين، أما وسيلة النقل فقد كانت (الجمال)، ولهذه المهمة تفرغ الكثيرون من أهالي (شمل) أصحاب (الجمال) وبالإيجار. وكثيراً ما كانت تتم الحجوزات مقدماً فيدفع التجار (عربون) مقدماً لعمل كميات وأنواع معينة من الصناعات. وعن سبب اندثار هذه

الصناعات، يشرح عبد الله عبد الرحمن: الأسباب معروفة، فالأول هو متاعب المهنة ومشاقها التي وفرت الدولة بدائل مريحة عنها، و(الصناع) كبروا وشيبوا، ومن الأولاد لم يتعلم أحد لعدم حاجتهم لها بوجود فرص الأعمال المريحة، بينما في الماضي كان يتوارثها جيل بعد جيل للحاجة فالأولاد كانوا يساعدون آباءهم ويتعلمون منهم، وهكذا: «حد يموت، وحد يشيب، وحد يتعلم»، و«الأول المخ مضبوط، لكن الحين غير».

دور المرأة

في هذه الجغرافية الجبلية الصعبة تبرز أدوار للمرأة، حيث تفرض الطبيعة هناك متطلباتها على الصغير والكبير، ومن هنا لا بد من استحضار دور المرأة، وفي ذلك يجيب عبد الله عبد الرحمن: نعم، هناك (النقوش) ونسميها (مشق)، وهذه مهمة تقوم بها النساء (أمهاتنا أخواتنا وبنات عمنا) وغيرهن، وتتقاضى مقابل عملها أجراً. والنقوش أشكالها جميلة وتظهر في المحرقة (زاهية). ومن الصناعات السعفية التي كانت منتشرة بين نساء وبنات وأخوات الفلاحين سكان (شمل تحت) أو (جلفار)، هي (الجفير) و(السرود) و(المغطاة) و(الحصير) و(المكانس) وغيرها من هذه الاحتياجات المنزلية التي كانت تصنع من سعف النخيل.

سمك وبرك

ومن الجبل إلى البحر في مناطق تجمع بين البيئة الجبيلة والزراعية

والبحرية مثل مناطق (شعم) و(غليلة) و(دبا) ومثيلاتها حيث يبدأ الباحث عبد الله عبد الرحمن حديثه عن صناعة المالح «السمك المملح» ليس كأكلة اشتهرت بها أهالي مناطق رؤوس الجبال وكسلعة للتصدير وليس للاستهلاك فقط، خاصة في تلك المناطق الممتدة من الجير وحتى الرمس برأس الخيمة، مروراً بشعم وغليلة وخور خوير ، وهي لم يقتصر على المستوى المحلي في الإمارات بل وصلت منتجات هذه الصناعة الغذائية الشعبية إلى الكويت والعراق والهند وسيلان وشرق إفريقيا ودول أخرى كانت تصلها سفن الشحن والأسفار الخارجية لأبناء الإمارات.

ويقول: رافقت "المالح" صناعة مهمة حيث كان هناك نحو 50 (بركة) تنتشر على امتداد هذا الساحل مبنية من أحجار هذه الجبال و«الجص» وهو الطين المستخرج من سفوحها الحمراء، بعضها كان متوارثاً أبا عن جد، وبعضها الآخر صنع فيما بعد؛ أي خلال السنوات الثلاثين أو الأربعين الماضية، وفوق كل بركة مخزن هو عبارة عن غرفة صخرية وسقف من الجذوع والسعف وأرضيتها هي أرضية البركة ذات العمق الكبير في باطن الأرض، ويتفاوت هذا العمق بين بركة وأخرى، تماماً كتفاوت مساحات الطول والعرض بينها، فبينما كانت بعض «البرك» تختزن عشرة آلاف سمكة مملحة من نوع القباب أو الصدى أو الكنعد الكبير إلى جانب كتل الأحجار الضاغطة فوقها، كانت بعض البرك تختزن 8 آلاف، وأخرى 6 آلاف، وأصغرها نحو خمسة آلاف سمكة.. وكان النزول إلى أغلب هذه البرك يتم بواسطة سلالم أو حبال، سواء لاستخراج الكميات المطلوبة من الأسماك المملحة أو لنزف المياه منها بعد خلوها من الأسماك. أما المخازن الصخرية التي تعتلي تلك البرك فقد كانت بمثابة مظلات دائمة لحفظ مخزونها من المؤثرات الخارجية كالأتربة والرياح وغيرها. وغالباً ما كان المنتجون ينشغلون بصناعة المالح في الشهور الستة الباردة من السنة، أي في مواسم الشتاء والربيع، وذلك لعدة أسباب، أهمها أن برودة مياه البحر تجر الأسماك للتكاثر على بعد مسافات قريبة من الشواطىء وفي أعماق لا تزيد على 6 «أبواع» 12 متراً، بينما تبتعد في الصيف إلى أعماق غزيرة تصل إلى 25 أو 30 باعاً. والمعروف أن كل أنواع الأسماك وخاصة الكبيرة منها تلاحق غذاءها من «العوم»، وهي أسماك السردين الصغيرة أينما رحلت. ونظراً لقرب المسافة، فإن صيد «القباب» و«الصدى» و«الكنعد» كان يتم بواسطة الألياخ المربوطة بحبال متينة طويلة ممتدة حتى الساحل، حيث يمسك أطرافها مجموعات من الرجال ويتم سحبها يدوياً وهي مليئة بالأسماك، كما أن نسبة كبيرة من الصيد كانت تأتي بها «شواحيف» الصيادين من عرض

البحر.. وأغلب «الشواحيف»؛ وهي معدات صيد الأسماك كانت ملكاً لأصحاب البرك ويعمل عليها صيادون مواطنون بالأجرة، وعادة ما تكون الأجرة عن «مكدة»؛ أي عمل الشتاء بطوله «قلة» تمر ميناوي و80 روبية. وكانت كميات الصيد في الماضي كبيرة، إذ كانت تبلغ حصيلة مركب الصيد من رحلة واحدة ما بين 400 إلى 700 «قبابة».. ويذكر أنه في إحدى السنوات مر شهر كامل من دون حصيلة لكنهم بعد ذلك شاهدوا سواداً في البحر، وحينما «راقوا» مراكبهم للبحر كانت المفاجأة بأن جاء بعضهم بثلاثة آلاف سمكة قباب، وآخرون ما بين ألفين وألف سمكة.. وهكذا، البحر أرزاق. أما السبب الآخر للانشغال بصناعة المالح في الشتاء هو فراغ وقت الرجال بعد توقف رحلات الغوص من ناحية، وانتهاء موسم العمل بمنتجات النخيل من ناحية أخرى. وللأسباب ذاتها كان يتم تخزين وحفظ حصيلة الشهور الستة الباردة لاستهلاك الشهور الستة الأخرى من السنة.

اقتران ظاهرة

تبقى أيضاً ضرورة الإشارة في هذا الصدد إلى أن عملية صناعة المالح تقترن بظاهرة استيراد الملح بكميات كبيرة بواسطة السفن الشراعية الكبيرة من جزيرة المسيطيح وجزيرة خاكو الإيرانيتين، وغالباً ما تدفع رسوم قدرها مئة روبية مقابل السماح للصيادين بالقيام بعملية قطع الملح بواسطة «الهيب» وشحنها في شكل قوالب ضخمة بالكميات التي يحتاجونها، وتستغرق الرحلة إلى تلك الجزر مسيرة يوم وليلة. وحين تصل كميات الملح إلى البلاد يتولى فريق من الرجال عمليات قدها بالحجارة وطحنها وتجهيزها لتمليح الأسماك بها، وذلك على مدى أيام عديدة متواصلة، وهكذا في مواسم صناعة المالح كل عام.

ويؤكد الباحث أن المستهلكين قديماً كانوا قبل شراء احتياجاتهم من المالح يصرّون على التساؤل ومعرفة ما إذا كان المعروض من المالح للبيع في الأسواق من إنتاج برك رؤوس الجبال أم هو مستورد؟ وحين يتأكدون يحرصون على أن يوفروا لعائلتهم كميات كافية من منتجات بركنا التي يمتاز سمكها بطيبته ولذته وحسن إعداده، إذ لم تكن الأسماك تترك معرضة للشمس والمؤثرات الجوية أو التجميد، بل كانت عملية التشريح والتمليح تتم فور وصول الأسماك الطازجة إلى الشواطىء وتخزن في البرك أو الخروس أو الصفائح فوراً. وبذلك تحفظ لذتها وفوائدها بعكس الأسماك المملحة بعد استخراجها من البحر بفترة، إضافة إلى أنها تبقى مبللة «بالصروبي» أي مياه الملح الذائب طوال فترة تخزينها؛ لأن جفافها يسبب فسادها.

ونسبة كبيرة أخرى من الكميات المصنعة كانت تباع لقوافل الجمال التي تجتاز رمال الصحراء والطرقات الوعرة بين الجبال والوديان قادمة من مختلف مناطق بادية الإمارات إلى هنا لتشحن احتياجات الأهالي هناك من المالح، لكن أغلب كميات المالح كانت تنقل بـ «الجوالبيت» الشراعية ضمن صادرات هذه المناطق من الرطب والبصل إلى أسواق دبي والشارقة، خاصة لتباع بالجملة لتجار معروفين يقومون بتسويق جزء منها محلياً وتصدير الجزء الآخر إلى الخارج، وكان أهالي مناطق رؤوس الجبال أنفسهم يستهلكون أغلب الكميات المصنعة في «الخروس» الفخارية.

العومة والمالح

بداية، يمكن القول بأن بين كل 5 - 6 عوائل في (دبا) في المنطقة الشرقية للدولة كانت عائلة واحدة تمتلك (عاملة) للصيد البحري، وفي كل عاملة كانت تعمل أعداد من الصيادين المحترفين من مواطني دبا. وفي مجال صيد (العوم) أي أسماك السردين الصغيرة فقط كانت تعمل أكثر من عشرين عاملة، وأذكر أن (عاملة) والدي كانت تنتج سنوياً في حدود الستين أو السبعين ألف «مَن» من العوم. وهذه النوعية من الأسماك الصغيرة كانت تكثر عادة وبكميات كبيرة مع دخول فصل الصيف، وكان الصيادون ينشرون إنتاجهم اليومي على رمال الشاطىء تحت حرارة الشمس حتى تجف؛ لتكون جاهزة بعد ذلك لتجار دبي أمثال علي بن عبدالله العويس وغيره، وتجار مسقط، وللسفن الكبيرة المسافرة إلى الهند وكولومبو. إلى جانب (العوم) كانت أسماك «الخباط» اللذيذة تأتي بالدرجة الثانية من حيث كميات

الإنتاج الوفيرة، حيث يمكنني تقدير الكمية المصادة شهرياً بمليونين إلى ثلاثة ملايين سمكة. وعلى امتداد شواطىء دبا كان الصيادون يقومون بتمليح تلك الكميات الكبيرة من الخباط ويكومونه، وتغطي «بالدعون» المصنوعة من السعف، ولكن حفظها لا يطول، إذ إن المشترين كانوا يصلون خلال خمسة أيام بعد التمليح، والزبائن الدائمين للخباط المملح كانوا من التجار القادمين من البصرة وعبادان والأهواز والكويت والبحرين، ويشحنونها في سفنهم..

الأصداف الكبيرة

ومما يثير الشجون في سياق حديث الذكريات عن ماضي الحياة في دبا هو ظاهرة الغوص على اللؤلؤ وتجارتها وتصديرها إلى فرنسا خاصة وبقية الدول الأوروبية عامة؛ ذلك لأن المعروف عن عالم الغوص في الإمارات بل في دول الخليج ككل أنه كان من أجل اللآلىء الثمينة النابتة في بواطن المحارات بأعماق البحار. لكن الطبيعة التي منحت (دبا) تلك العراقة التاريخية بموقعها الاستراتيجي والحصانة بالبحر والجبال وغيرها جعلتها أيضاً بيئة خصبة لثروة من الأصداف الكبيرة اللازمة لصناعة الخزف والنقوش للمباني والأزرار للملابس وغيرها من الاستخدامات الصناعية الأوروبية في ذلك الوقت. ولقد كانت الكتل الصخرية الجبلية التي نثرتها الطبيعة هنا وهناك في أعماق الخليج العربي وخليج عمان على مسافات متقاربة ومتباعدة من سواحل دبا كانت هي المغاصات الخصبة لتكاثر الأصداف وتميزها بالحجم الكبير. أما تنظيم رحلات الغوص فقد كانت بحاجة إلى مصاريف لتوفير الاحتياجات اللازمة، ولهذا فقد كانت تلك السفن أو نسبة كبيرة منها تستعين بتجار ممولين، أذكر منهم: والدي سلطان السلامي الذي كان -رحمه الله- يمول في كل موسم ما بين 30 - 35 سفينة غوص. كذلك كان يفعل (قرقاش) وهو أحد تجار دبي المعروفين، حيث كان يقيم لأغراض التجارة في دبا ماضياً، ومن ثم علي بن عبدالله العويس. ويشترط الممولون عادة أن تعود تلك السفن بحصيلتها من الرحلة للعرض عليه قبل غيره، فإذا اتفقا على القيمة والبيع والشراء كان به، وأما إذا لم يتم الاتفاق جاز للنوخذة أن يتصرف بحصيلة سفينته.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الحصيلة المعنية لم تكن مقتصرة على الأصداف فقط، بل إن كثيراً من تلك المحارات كان يحتوي أيضاً على اللآلىء من مختلف الأحجام والأشكال والنوعيات. لكن الميزة في رحلات الغوص بالنسبة لأهالي دبا والمنطقة الشرقية ورؤوس الجبال هي أن جهود الغواصين لا تذهب هباء؛ ذلك لأنهم إذا لم يجنوا من رحلاتهم اللآلىء استفادوا من الأصداف الكبيرة بعكس رحلات الغوص في بقية أنحاء الإمارات والخليج، حيث إن المحارات الصغيرة لم تكن ذات فائدة، فإذا كانت خاوية رميت في البحر.

• والأصداف الكبيرة هذه كانت تباع بالوزن بسعر «المنّ» 25 روبية، والمن يساوي أربعة كيلو جرامات. وقد تزن 5 أصداف كبيرة «منا» واحداً. وأذكر بالمناسبة أن السفينة الواحدة كانت تجلب ما بين ألف إلى ألف وخمسمئة (مَن) من الأصداف، لذلك فإن كمية الإنتاج السنوي من الأصداف كانت كبيرة جداً، وبالتالي فإن الدخل كان وفيراً. كما أذكر أنه قبل نمو التجارة في دبي كانت النسبة الكبيرة من الإنتاج تباع إلى تجار من مسقط، أمثال الحاج باقر عبد اللطيف وغيره. وبواسطة هؤلاء التجار كانت الأصداف تصل إلى مصانع أوروبا وخاصة فرنسا، وقد دامت هذه الثروة عشرات من السنين كمصدر دخل أساسي لسكان دبا والمناطق القريبة منها والمماثلة لها. وجدير بالذكر أن رحلات الغوص في هذه المناطق تميزت عن غيرها بأنها لم تكن تبتعد كثيراً عن السواحل، بل يمكن التقدير بأنها كانت تصل إلى مسافات لا تتجاوز خمسة أميال فقط، لكن الحقيقة أن أعماق المغاصات كانت تتفاوت ما بين 20 - 30 باعاً، والباع يساوي مترين. وفي نهاية حوارنا، يرى الباحث عبد الله عبد الرحمن، أنه من الضروري توثيق هذه الصناعات التراثية حتى ولو اندثر بعضها، لأنها بمثابة تعبير صادق عن قدرة الإنسان الإماراتي على مواجهة التحديات وابتكار وسائل العيش والإرادة الفذة على تلبية الحاجات، فالصناعات الجبلية ستبقى شاهد عيان على تاريخ دولتنا الذي تم بنيانه بالعزيمة والإصرار ■

جولة في رؤوس الجبال

د. هيثم يحيى الخواجة

عندما نتأمل السلسلة الجبلية التي تحيط برأس الخيمة إحاطة تسبح الخالق وتسرح بخيال من التأمل أمام عظمة الخالق وصمود هذه الجبال الراسخة في وجه الأنواء الطبيعية، التي واجهت هذه المنطقة، ناهيك عن أنها كونت مصداً طبيعياً أمام هجمات الأعداء في الحروب والغزوات مما أدى إلى حماية الإنسان من رصاص الأعداء وقنابله الغادرة.

هناك في هذه الجبال حكايات تروي قصص الألم، والأمل، والظفر، والفرح. ففي كل بقعة سر يغفو وفي كل زاوية عش أو طير أو بهاء، ما جاورت صخرة من صخور هذه الجبال إلا باحت عن مكنونات صدرها وما خبأته الأيام في عروقها من ذكريات وحكايات، ولكم انداح شريط الخيال ليرسم مسرحية عن أفعال خارقة، أو قصة من قصص الجن التي كانت تسكن في حنايا هذه الجبال لتحبس الأنفاس عن أسرار ما عرفها إلا أهلها من كبار السن ،الذين عاصروا كل تليد، والذين كانت ذاكرتهم مشحونة بإيماءات تعبر عن تاريخ طويل يؤكد أن سكان الجبال يمتلكون من القوة والشجاعة الكثير، ويتصفون بالصبر والتحمل من أجل تجاوز المحن، عدا عن ذلك فهم يتفردون بفهم أسرار الجبال ومتعرجات طرقها ومغارات بطونها، وأسلوب التكيف مع بيئة وعرة طرقها متشابكة، و تتخللها المرتفعات والمنخفضات، ما يدعو إلى صعوبة التحرك والتعامل والإنجاز.

وكم تكون السعادة غامرة عندما يتكئ قاصدها إلى منبسط صغير للاستراحة والاستجمام، تراه يستمتع بظل شجرة تهمس في أذنه بعضاً من قصة حياتها التي انبثقت من خلال الصخور. أو ربما تحدثه عن الرجال الذين استظلوا بظلها فبثوها أحزانهم وأفراحهم وضحكاتهم.

في صباح من صباحات الربيع الجميلة صاحبت رجلًا من رجالات الجبال إلى بيته في عمق الجبال، كان يتحفني بما يسمعني من جميل الشعر النبطي، كان ما يقرضه من شعر يعبر عن جمال الطبيعة والعيش في رؤوس الجبال، فالبيوت الصغيرة التي يجد أهلها البسطاء حلاوة العيش فيها، حتى لو كان تحت ظل شجرة، ودفء الحياة الصادقة المستمدة من تنور الحب الدي يسري في نفوسهم، أما هذه الجبال فكانت صخورها مورداً مهماً لسكانها حيث كانت ترسخ حجر أساس لبناء القصور والعمارات الشاهقة، عدا عن أنه حدثني عما يعيش فيها من حيوانات وطيور، والهمّ الأكبر ما كان يفاجئهم من حيوانات مفترسة تعيش في بطون هذه الجبال .

ثم حدثني حديثاً مهماً عن الأعمال التي كان يمارسها سكان الجبال، وعلى رأسها الزراعة، فهي أهم ما يسد الحاجات المعيشية في هذه المنطقة، قال لي: إن أهم المزروعات المتوفرة عندنا الخضراوات، وعلف الحيوانات، والنخيل والحمضيات، ومعظم الفواكه. خلف بيته أراني المناحل التي يضع فيها النحل عسله الذي تربى على شجر السدر وشجر السمر، لتنتج له ما يكفيه للتجارة وتلبية حاجات أسرته.

حظيت عنده بإفطار لذيذ، تحت ظل شجرة مع نسمات الصباح العليلة، متعة كبيرة أن تعرف أن ما تأكله صحي وطبيعي، فالقشدة لا مثيل لها، والعسل تناولته مباشرة من خلال خلية شمع، وأتحفتنا صاحبة البيت بطبق من البلاليط يفتح الشهية.

سألته عن الصناعات التي يعمل بها سكان الجبل، فأجابني وعيناه تبرقان بالفخر، نحن نصنع شِباك الصيد، والعصي المعروفة بالجرز، ونصنع الخزف، والأواني النحاسية، والخناجر، والسيوف، والنسيج، والأهم من ذلك حرفتنا المعهودة صناعة قوارب الصيد الصغيرة التي اشتهرنا بها، وصناعة السعفيات، وحرفة صيد السمك، إضافة إلى تربية الماشية والرعي.

نظر إلى السماء ثم حول نظره إلى زاوية بعيدة كأنما يتذكر ثم قال: عندنا أيضاً صناعات أخرى لم أذكرها لك وهي صناعة الحبال والدعون والحصير التي يصنعونها من سعف النخيل، وصناعة الخياطة

عندما نتأمل السلسلة الجبلية التي تحيط برأس الخيمة إحاطة تسبح الخالق وتسرح بخيال من التأمل أمام عظمة الخالق وصمود هذه الجبال الراسخة في وجه الأنواء الطبيعية، التي واجهت هذه المنطقة، ناهيك عن أنها كونت مصداً طبيعياً أمام هجمات الأعداء في الحروب والغزوات مما أدى إلى حماية الإنسان من رصاص الأعداء وقنابله الغادرة

والتطريز والتلي، وصياغة الأحجار الكريمة. أشار إلى صخرتين متقابلتين تطلان على غور عميق فيه أزقة صغيرة تتلوى بقوة، وفي العمق أشجار كثيفة متعانقة، أشار لي بالجلوس، وأخذ نفساً عميقاً وتنهد وقال: ذكرتني بأمي - رحمها الله - كانت ماهرة بصناعة المشغولات اليدوية التي تزين بها النساء أثوابها، وغالباً كانت من الخيوط الفضية والذهبية. وحدثني عن صناعات أخرى منها صناعة المباخر الخشبية وتلبيسات السيوف والخناجر، وكعوب المبارق، ومنتجات الحيوانات، وختم حديثه مؤكدًا أن هناك من تعلم بعض هذه الحرف في المدينة ثم نقلها إلى الجبال. وقال إن أكثر هذه التقليدية على الرغم من بدائيتها إلا أنها مهمة لأنها تناسب أسلوب العيش في هذه المنطقة الوعرة الصعبة، وتعكس ثقافة مجتمع الجبال الذي يعيش في بيئة لها سماتها وصفاتها الخاصة. كما أشار إلى أن بعض الصناعات لها تاريخ متوارث يرتبط بوجود المواد الخام، وبقدرة السكان على العطاء والإبداع. من المفيد القول إن الصناعات بنت بيئتها فهي مستوحاة من طبيعة المكان وتاريخه وسلوكه وإبداعاته، ولما كانت الصناعة الحجرية بنت بيئتها، فلا أنسب من أن أقول إن الجبال خير بيئة تترعرع بها، فالقدور الحجرية لا تصنع إلا بعد الاعتماد على جهود جبارة وقوة كبيرة. أما الصناعات التقليدية النباتية من مثل صناعة الصناديق الخشبية والنجارة والأبواب والنوافذ والكراسي، فلها مقعد مهم بين الصناعات حيث إنها تعتمد على المواد الخام التي تنتجها البيئة، أما خوص النخيل وسعفه فقد اعتمدت عليه النساء لصناعة القبعات والحصر والمراوح اليدوية والأقفاص التي تستخدم في تربية الطيور والدواجن، وحفظ الفواكه والخضراوات، وقد توارثت النساء هذه المهنة عن الأمهات والجدات، كما وإن توأم هذه الصناعة هو المنتجات الليفية التي تصنع من لحاء الشجر ومنها الحبال والحقائب والمحافظ وغير ذلك كثير. عندما بدأت الشمس تجهز نفسها للرحيل كانت ترسم في عيني أجمل لوحة من لوحات الطبيعة الفاتنة التي تتماهى مع بيئة موغلة في أعماق التاريخ.

وفي هذه الأثناء كان نجل صديقي الشاعر يكمل لي الصورة الجميلة بفنجان من القهوة العربية التي تعدل المزاج برائحتها النفاذة التي تمخر في الأعماق، بينما كانت الطبيعة تشدني لأسرح في عظمة الخالق وإبداعه المعجز، ومشاهدة التضاريس التي يصعب العيش فيها والتكيف معها، لما فيها من تحديات تخلقها الأخاديد والجروف الشديدة الانحدار، والمرتفعات المخيفة، وتعانق سلسلة الجبال ببعضها بعضاً، فتشكل انكسارات ومرتفعات حادة مخيفة. لكن ما يهرني اعتدال الجو في الصيف الحار الذي ينقل الإنسان إلى جو من المتعة والراحة النفسية.

كان صديقي يخترق حديثي كلما تنغمت بالجو الجميل وعبرت عن سروري باعتداله، فيذكرني بالبرد الشديد في الجبال والثلج الذي يكسو رؤوسها في الشتاء، ويضرب مثالاً على ذلك جبل جيس أحد هذه المعجزات الربانية فهو مهوى قلوب سكان رأس الخيمة وما حولها، حتى إنه أصبح مقصداً للسياح والزوار من مختلف أنحاء الإمارات، عدا عن اهتمام المسؤولين بما يشجع ارتياده بإقامة بعض المنشآت السياحية التي أصبحت أداة جذب كبير للناس جميعاً. وعندما سألته عن مصادر المياه من أجل الزراعة حدثني عن أسلوب تجميع المياه في فصل الشتاء للاستفادة منه في الشرب والزراعة. في نهاية الرحلة استأذنت صديقي للعودة إلى رأس الخيمة كان لابد له أن يرافقني للوصول إلى سيارتي التي ركنتها على حافة جبل قريب من الإمارة، وعبر الممرات الجبلية التي تحبس الأنفاس والمداخل الملتوية التي تدرّب صديقي على خوض غمارها .. كنا نسير ونتحدث عن هذه المشاهدات الرائعة، وقد عبر لي عن سعادته بزيارتي وأبدى لي الكثير من الفخر والإعجاب بحياته في هذه البيئة ضمن سلسة الجبال هذه التي عاش فيها آباؤه وأجداده، لم تكن المسافة بعيدة، لأن الاختصارات الجبلية كانت رائعة، فلم تمض ساعة حتى وصلت إلى سيارتي بعد أن حفظت ذاكرتي أجمل صورة ■

الصانع والنَّقاشات.. مهن وحرف من الجبال

مريم سلطان المزروعي

تميزت مناطق رؤوس الجبال من دون غيرها من المناطق بطبيعة خلابة ما بين بحر وجبال وتزينها سلسلة متعرجة متفاوتة الارتفاع والانخفاض، ألوان البحر ذات اللون الأزرق الجميل بكل تدرجاته الذي ينعكس على سطحه ظلال الجبال الشامخة، وبينه تحتض واحات النخيل الوارفة الظلال وبيوت الأهالي ما بين عرش وخيام وبيوت صخرية تتحمل برودة الطقس في فترات الشتاء الشديدة البرودة بحكم موقعها ومكانها الاستراتيجي، أشهرها) بيت القفل (الذي عُرف بقوة وشدة إحكامه، و(بيت الرحى) المعد لطحين الغلات عبارة عن حجرين مستدرين فوق بعضهم بعضاً، تكون السفلى ثابتة بينما تتحرك العليا حول محور خشبي مثبت، لقد أبدعوا في بناء منازلهم حتى تتناسب مع عوامل الطقس بفصولها المختلفة، وشواطئها المزدحمة بالجوالبيت الشاهقة. البحر هو الجزء الأهم والمصدر الأساسي للرزق لسكان المنطقة، وهذا ما جعل من معظمهم من يمتلك خبرات واسعة في معرفة مواسم سقوط الامطار للمحافظة على المحاصيل الموسمية وزراعتها في وقتها، كزراعة النخيل، والحمضيات، والفواكه، والخضراوات.

مهن تميزت بها المنطقة

وفي سياق الذكريات الماضية الجميلة، يقول السيد محمد بن حميد: «كانت هناك مهن تميزت بها المنطقة مقارنة بغيرها من المناطق، فقد كانوا يقبلون على شراء حبات اللؤلؤ الصغيرة «كالناعمة» والتي يصعب تخريمها وتصنيعها في عقود، ثم يقومون بطحنها بواسطة «هاون» أو «منحاز» خاص ثم يمزج مع الكحل للعيون ويقولون بأن ذلك يفيد النظر. كما كانوا يبيعون الأسماك المجففة و«المالح والعوم»، والتمور إلى المناطق المحيطة، إلى جانب إنهم كانوا يسعون إلى شراء السفن الكبيرة كالبوم لاستخدامها في السفر، ولكن كانت السيولة غير متوفرة أو قليلة بمعنى آخر، لتسديد قيمتها عند الغالبية، لذلك كانوا يعتمدون على ضمان الحاكم وبالأقساط»، كانت هناك الكثير من المشاق والمتاعب طوال الرحلات البحرية التي كان يقوم بها الغاصة خلال السنوات السابقة وقبل اندثار تجارة اللؤلؤ، وبسبب هذه المصائب لجأ الكثير منهم إلى الزراعة.

الزراعة تجارب وحكايات

يقول محمد سعيد: «لأني يئست من البحر ومردوده قررت أن أجرب مجال آخر وهو الزراعة، فبدأت بزراعة بعض من أنواع الخضراوات وأشجار النخيل و«الفندال» أي البطاطا الحلوة والبصل وكذلك التبغ (الغليون). واستمريت بالزراعة لسنوات متواصلة، ففي فصل الشتاء كنا نغرس البذور في الأحواض الزراعية التي تحرثها الثيران وبعد أن تنمو قليلاً يتم نقلها وزراعتها في أحواض أخرى لتنمو بحرية وعندما يحين موسم الحصاد يبدؤون بانتزاعها ونشرها لتجف ومن ثم ترتيبها في حُزِم والاستعداد لنقلها على ظهور الإبل أو بالمراكب. كذلك كنا نزرع الدخن والقمح والبر، صحيح مرت علينا الكثير من

اللحظات الصعبة كعدم سقوط الأمطار مما أدى إلى القضاء على المحاصيل، لكن في الأخير نجحنا في إيجاد مورد استطعنا أن نسترزق منه لنا ولأبنائنا وأن يكون مصدر رزق أساسي».

أدوات بدائية لصناعة السفن

عند الحديث مع السيد عبدالله راشد ذكر: "استخدمنا الأدوات البدائية واليدوية، فقد توفر لنا المنشار والمطرقة والمجدح الذي كان يستخدم لثقب الأخشاب عند صناعة السفينة، كنا نضع أساس السفينة وهو «البيص»، ونثبتها لكي نتأكد من متانتها، ونصب الماء عليها، ثم نثبت «مير الصدر والتفر»، وبعدها نبدأ بتركيب الألواح الخشبية الطويلة التي تمتد بين (الميرين) إلى أن نصل إلى منتصف السفينة، ويقوم الجلاف باستكمال بناء السفينة خطوة خطوة وبطريقة هندسية دقيقة وفنية، والذي يعمل على البناء يطلق عليه «الأستاذ»، وهذه المهنة أصبحت متوارثة ومهنة حياتهم، وبعد الانتهاء من صنعها يقوم ما يقارب الـ 60 شخص بسحبها إلى البحر بواسطة الحبال، كانت السفينة تُبنى في عدة أماكن وليس لها مكان محدد، والأخشاب التي تُصنع منه كانت تجلب من زنجبار والباطنة، كانت بالنسبة لي مهنة ليست سهلة، فحياة الكثيرين يعتمد عليهم وعلى صناعة هذه السفينة التي تشق عباب البحار».

بيع الأسماك المملحة

تعد مهنة صيد الأسماك عند أهالي رؤوس الجبال ذات قيمة عالية، وخاصة المملح منهم فهو له قيمة اقتصادية عالية، كما إنها إشارة لشهرة صيادي المنطقة، وهذا ما أكده السيد محمد الشحي من منطقة شعم بقوله: «إن أبناء المدن الساحلية كانوا يصطفون صيفاً كل عام في مناطق رؤوس الجبال، لبيع الأسماك المملحة، حتى أن تجارتهم وصلت إلى الكويت والعراق والهند وشرق إفريقيا، وقد كانت هناك برك لصناعة المالح والإنتاج بكميات كبيرة وضخمة، حيث كان يخزن في «خروس» فخارية وصفائح معدنية يطلق عليها «أبياب»، جاهزة للاستهلاك والتصدير».

مشاركة النساء

أثناء حديثي مع أم بهوان ذكرت لي: «كنا نحن النساء نعمل بجد واجتهاد بعد عملية تجفيف التمور وفرشها على «المساطيح»، والمسطاح مكان مختص يوضع عليه التمر لكي يجف ويكون معرض لأشعة الشمس لفترات طويلة مصنوع من سعف النخيل،

وبعد الانتهاء من عملية التجفيف لعدة أيام متتالية وتأكد من جفافه وإنه قد أصبح جاهز للتخزين، يتم كنزه في «خصائف» وهي أشبه بأكياس مصنوعة من سعف النخيل تستخدم لحفظ التمور بعد تجفيفها، كما إننا نعمل على انتقاء أجود أنواع التمور وتصنيفها ووضعها في خروس بعد إضافة الدبس والزنجبيل والسمسم عليها، فتكون ألذ وأطيب، و«للدبس» طريقة خاصة كنا نعمل على صنعه بعد عصر التمور وملئها في أبياب أو أغراش الفيمتو وقد قالوا عن التمر: السحة صحة.. والتمر سماد الركبة. والسحة تعنى التمر، والتمر سماد الركبة أي هو وقود القوة والنشاط للإنسان، يمده بالطاقة، كما كنا نصنع من الخوص الحصر «السجاد» والمخاريف والسراريد والمهاف والمجاب، ومن سعف النخيل وجذوعها مواد بناء لصناعة المفروشات

وبناء البيوت، وغيرها الكثير مما نفعنا في حياتنا وتسهل لأمورنا، بينما من ليف النخيل صنعنا الحبال وهذه مهنة يقوم بها الرجال والقليل من النساء لكن الرجال أكثر خبرة ودقة وبحاجة إلى قوة. لقد قل الاهتمام بالنخلة وبدأ الناس بالبحث عن مهن أخرى، أسهل عليهم وخاصة بعد التطورات الحادثة وهكذا هاجر الأبناء مهنة الأجداد».

المطايا لنقل الأشخاص والأحمال

يقول السيد خلفان محمد: «كنا نمتلك الإبل، وقد عمل بعضنا على استخدام هذه المطايا في النقل، نقل الأشخاص والأشياء بين المناطق وما حولها، وقد كانت الرحلة تستغرق الـ10 أيام بلياليها، بينما أصحاب المزارع استعانوا بـ«البيادير» مقابل الحصول على

ربع المحصول بعد حصاده، وهناك مثل يقال: «كل همبا وتين» ويقصد بالهمبا المانجو الذي كان يباع في كراتين مكشوفة وهاتان الثمرتين تعتبران من ألذ وأطيب الثمار إلى جانب البطيخ والرطب واللومي الذي كانت يعتبر تجارة لها موسمها وكذلك السفرجل الذي قال عن الشاعر راشد الخضر:

خدلج خـــــدك اللي كالسفرجـــل

سفربدروسفـــــر شمس وسفرجل

سفـرنـــــل بخـــدودك تـــاه ورده

وجـري نل بخـــــدودي تـــاه ورده

وهناك من كان يقوم بتربية المواشي والأغنام ويتغذون على حليبها ولحومها». يقول السيد أحمد بن علي بلهوان في أحد مقابلاته: «أن المناطق الزراعية والجبلية وغيرها من القرى هي الملاذ الذي يزدحم صيفاً بالعرشان، وقد كان الكثير من سكان هذه القرى يمتلك مزارع النخيل، وكان الحضار المستأجرين يستأجرون عدداً من أشجار النخيل مقابل مبالغ بسيطة، كما إنهم يساعدون المالك بعملية الخرف، كذلك كانوا يشترون المحاصيل أي المنتجات الزراعية، وبهذا كانوا يمثلون قوة شرائية قوية لها مدخول لموسم معينة للمزارعين يكفيهم لفترة من الزمن، ولدينا صناعة ومهنة ورثناها عن أسرنا منذ 100 سنة وهي المحارق، والمحرق عبارة حفرة كبيرة متوسطة العمق تبنى جدرانها من الداخل بالحجارة وبالطين لتبقى صلبة قوية صامدة، وهذه المحارق لا تزال موجودة في وادي حجيل وجباله، وهذه المحارق كانت تتم فيها آخر المراحل النهائية لأنواع الصناعات الفخارية المختلفة الأغراض والأشكال، ويتم صفها في هذه المحارق دفعة واحدة وتزود بالوقود اللازم وهي عادة جذوع وأغصان وأوراق الشجر وتبقى فترة وتشعل النار في المحرقة ثم تترك لعدة ساعات حتى يحمر الفخار ليخرج بعد ذلك من المحرقة، وكان عدد المحارق ما يزيد من 40 في الماضي، وعادة ما تستوعب كل محرقة 200 حبة من الصناعات الصغيرة، ومن المهن التي ارتبطت بهذه الصناعة، فهناك «الصانع» الذي يعمل على طحن الطين ونخله وخلطه و«الهباب» الذي يقوم بجلب الطين، والمرأة كان لها دور في مهنة فقد كانت تقوم بعملية النقوش ورسم أشكال جميلة زاهية مقابل أجر بسيط ويطلق عليهن «النَّقاشات» وكنا نبيعها للتجار وهنا تنتهي مهمتنا، للأسف الكثير من المهن والصناعات انقرضت بسبب صعوبة هذه المهن ومشاقها، إلى جانب أن الدولة وفرت مهن أكثر راحة وأكثر مدخولاً، لكن لا تزال آثارها موجودة وإلى اليوم نحن نحاول أن ننقلها لأبنائنا حتى يعرفون ويحافظون على تراثهم وعاداتهم ويحكونها لأحفادهم» ■

حرف الجبال في مهرجان «قصر الحصن»

أبوظبي - فاطمة عطفة

انتشر في مجتمع سكان الجبال بمختلف دول العالم وفي مجتمع جبال الإمارات بوجه خاص العديد من الحرف والصناعات التقليدية التي مارسها الحرفيون والصناع المحليون الذين اختصوا بها والتي شكلت مصدرا مهما من مصادر الرزق والمعيشة، كما أنها تحافظ على مهارات تراثية مهمة. واشتهرت عدة قبائل ممن كانت تقطن على رؤوس جبال الفجيرة ورأس الخيمة بالعديد من الحرف والمهارة في صناعة الطبل والأسلحة العادية كالجرز وصناعة الجص وصناعة العسل، كما احترفوا دباغة الجلود لشد الطبول أو لصناعة قرب الماء أو استخدامها في الملابس. ومنهم من اشتهروا بصناعة الفخار والحدادة لصناعة الأدوات المنزلية.

صناعة المنامة

في لقائنا مع علي عبدالله الشحي حدثنا عن صناعة «المنامة» قال: هذه المنامة كنا نستخدمها أيام الصيف لأنه لم يكن عندنا تكييف وننام في البراري ندور على الهواء البارد، وأوضح الشحي أن البعض في الإمارات يسمونها «المنامة» وفي بعض المناطق يسمونها «سير» وهي ترتفع عن الأرض بحدود متر وهي مثبتة دائما بأخشاب النخيل كما أن الزوايا فيها مرتبطة ومثبتة أيضا بأغصان النخيل الرفيعة، إضافة إلى أن أرضية المنامة أو الحصير من سعف النخيل، وهي مشغولة ومتشابكة بعضها ببعض، إن بناء «المنامة» كلها من النخلة. هذا ما أكده الشحي على أن بناء المنامة كلها مكون من النخل، سواء «الثمة» أو الحصير كلها من سعف النخل، وحتى الحبال التي تربط الأخشاب جميعها من ألياف النخلة. ويوضح الشحي أن صناعة المنامة من اختصاص عمل الشحوح وهم يتقنون صنعها، وقد ورثوا هذه الحرفة عن آبائهم، والأولاد أيضا يعرفون الآن صناعتها، وكما ترين اليوم نحن نعرضها في مهرجان قصر الحصن لنعرف الجيل الجديد من الزوار، سواء المواطن أو المقيم أو السائح، على تراث الإمارات وكيف كان يعيش شعب الإمارات قديما أما كيف يتم تصمم وبناء المنامة فقد أوضح الشحي أنهم يأخذون المقاسات حسب حجم المنامة بالذراع ليأتي الحجم على حسب العائلة التي سوف تستخدمها وتعيش وتنام عليها، والمنامة تشبه السرير الكبير وقد صمم لها درج أو سلم أيضا من سعف النخيل حتى يصعد إلى إليها. وحول صفاتها المعمارية، أكد الشحي على أن يكون الخشب يابسا والحبال موجودة والسعف أيضا، وعندما تكون هذه الأدوات موجودة نقوم بإنشائها ومن المكن تصميمها وبناءها بساعات وتكون جاهزة.

صناعة الخوص

ونتوجه إلى أم علي الشحي لتعرفنا أكثر عن صناعة الخوص تقول: إنها حرفة قديمة تعلمناها من الأجداد وكانوا في زمانهم يعيشون منها. وأضافت مبينة أنها تعلمت «الخوص» وشغل «التلة» على الملابس منذ أن كان عمرها 12 سنة، إضافة إلى الطبخ وإعداد المائدة التراثية للأهل والضيوف، وأنا اليوم أشتغل في قصر الحصن وأعلم هذه الحرفة للزائرين والمقيمين. وتابعت أم علي تشرح لنا عن الخوص قالت: نأخذه من سعف النخلة ثم نجففه في الشمس، وبعدها نصبغ منه بالألوان ونترك منه قسما أبيض،

أحمد سالم أحمد من السودان

راشد عبدالله الخديم العنتلي - صناعة السيوف والخناجر

علي عبدالله الشحي

أم علي الشحي سفيرة الحرفيات

وأشارت إلى أنهم قديما لم يكونوا يستخدمون الألوان، بل يكتفون باللون الأبيض فقط، لكن بعد ذلك أتوا بالصباغ من الهند، والألوان موجودة الآن في أي مكان وكل حرفي يختار منها ما يريد من اللون الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق، وخاصة أن الأطفال يحبون هذه الألوان. ونحن في الحين ندمج الألوان ونطلع 12 لونا لنشتغل من الخوص الحصير الذي نجلس عليه كما ننسج سجادة الصلاة و«السرود» و«المخرافة»، لافتة إلى أنهم تطوروا عملهم في هذه الحرفة بإضافة قطع تستخدم للصيد قحفية خاصة لرجال البحر البحر، وتؤكد قائلة: أنا أعلم هذه الحرفة في برنامج على قناة الإمارات، وفي ورش عمل في السعديات، وهنا في بيت الحرفيين نعلم من يريد أن يتعرف على الحرفة وصناعة الخوص.

تصميم وخياطة «البرقع»

وننتقل إلى حرفة تصميم وخياطة «البرقع» وهو الذي تطور وأجريت عليه دراسات أكاديمية، فهناك الفنانة كريمة الشوملي التي حصلت على الدكتوراه في صناعة البرقع وشرح المواد التي تحتاجها هذه الصناعة، لكن اليوم نلتقي بأم منصور وهي التي تشرح لنا عن تراث البرقع وما يشكله للمرأة في الإمارات، تقول: منذ أن كنت طفلة صغيرة لبست «البرقع» وتعلمت على صناعته، وكان على كل واحدة أن تعرف كيف تقص البرقع، وهو يحتاج إلى قطعة قماش شفاف خفيف ينقع بماء يحتوي على محلول «النيل» لمدة 24 ساعة، ثم يترك إلى أن يجف. وشرحت أم منصور أن هناك نوعين من البرقع: منه قماش عادي يلبس في النهار، وهناك قماش ذهبي يكون خاصا للمناسبات ويمكن أن يوضع عليه قطع من الذهب للعرائس. وأوضحت أم علي منصور أن البرقع يجب أن يكون مناسبا لحجم الوجه وعرض الجبين حتى يتناسب مع شكل الوجه، كما أن منه ما يصلح لفصل الشتاء ومنه لفصل الصيف، وللعروس برقع خاص ذهبي ومزين بخيوط القصب. وأضافت أم منصور أنها تشتغل في حرفة التلة والسدو والخوص، وخياطة الكنادير ووضع خيوط التلة عليها، مبينة أن للبرقع قصات يختلف تصميمها من إمارة إلى أخرى: في العين برقع خاص، ورأس الخيمة، ودبي، وأبوظبي، فهو يختلف في قصته والسيف الموضوع في وسطه.

أم يوسف منصور

صناعة الدفوف «الطبول»

وننتقل إلى صناعة الدفوف «الطبول» ودبغة الجلود مع مصبح خلفان جمعة العزيزي أبوخالد، من البريمي، وهو رئيس فرقة شباب العين للعيالة، يشير إلى أن صناعة الدفوف والطبول تحتاج إلى النحاس وجلد البقر، والحبل. ويتابع الشرح قائلا: نبدأ بدباغة الجلد أول شيء ونضع عليه الملح لحد ما ينشف، ثم نضعه في الماء إلى أن يصبح طريا، ونأخذ مقاس الطبل أو الدف ونقص عليه القطع المناسبة من الجلد بعد دباغته، وبعد تثبيته حسب الطلب نربطه بالحبال وهي مجدولة من سعف النخيل، ثم نقوم بخياطة الجلد على القالب كما يحتاج إلى الشد القوي من الطرفين. ويؤكد مصبح أن جلد البقر هو أفضل الجلود، مبينا أنه توارث هذه الصناعة من الأب والجد، وأشار إلى أن صناعة الطبل تتحمل حوالي ساعتين وهو يعلم أولاده هذه الحرفة وهم موجودون معه في عمله، وهو يضرب على الطبل حسب لحن الموسيقى وكلمات الشعر التي ترددها العيالة، يقول: نلحن الشعر ثم نبدأ العزف على دقة الطبول، والرحماني والدفوف، ويصنع السماع من جلد الماعز، وهناك الطبل الكبير يمتاز بصوته العالي، ثم طبول التخاطر وهي أصغر، والطار «المندول» و«صنوج الطوس» المصنوعة من النحاس، أيضا الهداف الذي يضرب على الطبل وهو مصنوع من جريد النخيل، نستخدم أربع قطع «رحماني» و«كاسر» و«الطوس»، وجميع هذه القطع صناعة مصبح خلفان وأولاده ما عدا الطوس النحاسية مستوردة.

تربية الجمال

ولأن الجمل سفينة الصحراء ومن أهم الحيوانات في الخليج، نتابع عن الجمل مع مربي الجمال أحمد سالم محمد من السودان ليشرح لنا كيف يمكن للجمل أن يكون أليفا ولا يؤذي يقول: من الصغر كنا نشتغل على الجمال ونزرع ونسافر لأن الجمل حيوان أليف إذا أخذ على صاحبه خلص هو يعرفه من رائحته، والجمال أنواع، بعضها تكون هادئة ويلاعبها الأطفال بأمان، وهناك جمال تحتاج لتدريب من الصغر، ونحن ندرب الجمل ونعلمه وضع الغطاء على الخشم، حتى لا يأكل البعر والعريش ولا يعض، مبينا أن الجمال تختلف بين جمال السباق أو التي «بالحزيرة» يحتاج لتدريب ويكون كبيرا في السن. أما عن تغذية الجمل قال أحمد إنه في الصباح يعطيه السبوس مخلوطا بالماء إضافة إلى كمية من الحشيش، وعند الظهر نسقيهم الماء، وفي المساء نقدم له السبوس والحشيش، إذا كان الجمل شبعان يكون هادئا ويتحمل أن يبقى في الحظيرة لمدة طويلة، مثل هذا المهرجان لهم 10 يوم متواجدين في الحظيرة، هذه الجمال تختلف تربيتها عن تربية جمال السباق وأيضا غذاؤها ومدربوها. وأكد أحمد أن مربي الجمل يجب أن يقدر أن يسيطر عليه، لأنه إذا غضب وهاج مشكلة كبيرة لذلك تربية الجمال تحتاج إلى تمرين وصبر.

صناعة الفخار

وتبقى صناعة الفخار من أهم الصناعات في جبال الإمارات لوجود

تربة الفخار الصالحة، هذا ما أكده لنا سعود محمد الشحي من رأس الخيمة قال: تعلمنا صناعة الفخار من أجدادنا وآبائنا، وهذه الصناعة لها تاريخ قديم في دولة الإمارات ونصنع أشكالا من الفخار، وهذا الطين الذي يصنع منه الفخار يأتي به من الجبل، وهناك أماكن مخصصة يستخرجون منها الطين الذي يصلح لصناعة الفخار.

ويشرح الشحي عن كيفية هذه الصناعة قائلا: أولا، يستخرج الطين ثم يدق ويتنقى من الحصى وينخل بمنخل خاص ثم يوضع عليه الماء ليصبح عجين الطين الأحمر والأخضر ممزوجا مع بعض ثم يعمل منه أشكالا من الفخار ليحضر للشواء، ونصنع منه أشكالا مثل المدخن، الدلة، الغوري، الكوز، الغرس وهو خزنة الماء، الخابية التي يحفظون فيها اللحوم والسمن والمخللات، والقدر التي تستخدم بالطبخ،وأباريق الماء، وأكد على أهمية صناعة الفخار والاهتمام بها في مناطق الجبال بالإمارات كما يعملون عليها ورش العمل ويعلمونها لشباب الأجيال الجديدة ويعرضوها في المعارض والمهرجانات. ونأتي إلى صناعة السيوف والخناجر مع المختص بهذه الصناعة راشد عبدالله الخديم العنتلي من إمارة الفجيرة، وهو يؤكد على أهمية هذه الصناعة في الإمارات قائلا: هذه حرفة الحدادة مع نجارة الخشب مع الخرازة، الحمد لله ثلاث حرف معي ومع أخي محمد، نحن نشتغل على الحديد حتى يلين ولازم لا يكون أحمر بل أصفر حتى أشكله على راحتي وحسب المطلوب. وأضاف مبينا أن الحديد في السابق كان يجيء مختلفا عن اليوم، كان بالماضي يأتي من نيبال ويكسرونه ويصهرونه ويخلصونه من الأوساخ والشوائب، ثم يصبونه في قوالب من طين. وبعد هذه المرحلة يأخذون القالب ويشكلونه حسب الطلب، سيف أو خنجر أو سكين. وأوضح راشد العنتلي أن الحديد اليوم متوفر في كل مكان لكن فيه أنواع أفضل من غيرها، وقال: في الحديد أسرار أعطيه طعم هنا السر بالصناعة، حديد يأكل الحديد وهنا نسميها «التسقية» في صب الماء عليه أو مواد ثانية، وبعد أن نسقيه نركب عليه نقشات نسميها «القطاعة»، بعدها نعمل الجلد الذي يجب أن يركب فيه السيف أو الخنجر، وهو من جلد الغنم أو البقر، نلبسها ثم نخرزها وعندي طريقة الخرز مختلفة وكله شغل يدوي ثم نضع النقوش على الجلد، وفي دولة الإمارات اسمها «القطارة» يكون رزينة ما يلوي، بينما سيف «المرعي» يكون خفيفا يلوي لكن ما يكسر، وهذا النوعان كانا يستخدمان بالحروب، كما نصنع نصلا للخنجر ونصلا للسكين، ويوضح راشد أن أهم شيء بالخنجر هو الرأس الذي كان في السابق من عاج الفيل ومن قرن الجاموس، وكانوا في السابق يستخدمون خشب الصندل. وقال راشد إنه اتجه إلى هذه الصناعة لأنها هواية عنده من عمره 17 سنة وهو يشتغل فيها مع أخيه مؤكدا: نحن علمنا أنفسنا بأنفسنا، ولفت إلى أنهم يطورون في النقوش وفي تزيين الأسلحة بمسكات خشب الخيزران ■

ورش لتعليم الصغار صناعات الفراعنة

على خُطى المصريين القدماء

أنسجة ومنحوتات وفخار في جبل «القُرنة»

على تهامي

على خُطى أجدادهم، يواصل سكان قرية القرنة فنون أجدادهم، إذ أقاموا ورشًا فنية لصناعة الألباستر والأنسجة والفخار، يبدعون فيها أنسجة تقليدية وأواني فخارية، وينحتون تماثيل، ويصنعون لوحات منقوشة بمشاهد من جدران المقابر والمعابد المنتشرة بين أودية جبل القرنة، لبيعها لزوار المنطقة من سياح العالم.

توارث سكان منطقة جبل القُرنة حرف وفنون النحت والرسم والنقش على الأحجار، وتطويع صلابتها، وتحويلها إلى تماثيل ولوحات وجداريات، عن أسلافهم الذين أقاموا في دير المدينة - منطقة تقع في أحضان جبل القُرنة كانت أول مدينة في التاريخ تخصص كمساكن للفنانين والحرفيين والعمال ممن عملوا في نحت وتشييد مئات المقابر وعشرات المعابد المصرية القديمة في جبل القُرنة، الذي يصنفه علماء المصريات ضمن أغنى جبال العالم بما يحوي من كنوز ومقابر ومعابد حكام مصر القديمة. من هؤلاء الفنانين القدامى، توارث سكان جبل القُرنة فنون النحت والرسم والنقش على الأحجار، وصارت مهنة لغالبية سكان المنطقة. يقول الفنان الدكتور يوسف محمود، العميد الأسبق لكلية الفنون الجميلة في جامعة الأقصر إن سكان جبل القُرنة فنانون بالفطرة، صاروا نحاتين يتقنون فنون النحت والنقش البارز والغائر، ورسم اللوحات الفرعونية، محافظين على ما عرفه أجدادهم الذين سكنوا جبل القرُنة قديما من فنون وحرف وصناعات. ولا تتوقف مهارات سُكان جبل القُرنة عند المامهم بمهارات وفنون النحت والرسم والنقش، بل هم أصحاب خبرة كبيرة في معرفة أنواع الأحجار، ومواقع جلب الأحجار.

وبحسب كتب المصريات، برع الفنانون الذين أقاموا بدير المدينة - مدينة الفنانين - الواقعة في الجزء الجنوبي من جبل القُرنة، في نحت التماثيل بمختلف الأحجام، وتماثيل بلغ وزنها عشرات الأطنان، وتفردوا في نقش ورسم المناظر التي تصور الحياة اليومية في مصر القديمة، والمشاهد المتعلقة بالمعتقدات

صناعة النسيج الفرعوني

الدينية لقدماء المصريين، والقيام بأعمال النحت البارز والغائر. وتنظم مؤسسات حكومية بينها قصر ثقافة القرنة، ورش عمل لتدريب الصغار من سُكان جبل القرُنة على فنون النحت والرسم والنقش على الحجر، للحفاظ على تلك الحرف والصناعات التراثية من الاندثار، كما يعمل الفنانون الفطريون بالمنطقة على تعليم أولادهم الحرف والصناعات والفنون، لتنتقل من جيل إلى جيل.

النسيج الفرعوني

ولأن سكان جبل القُرنة هم ورثة فناني وصناع مصر القديمة، فقد عملوا أيضاً على حفظ صناعات أخرى توارثوها من أجدادهم الفراعنة، منها صناعة النسيج الفرعوني.

تقول شيرين النجار، رئيسة جمعية إيزيس للثقافة والتنمية، يتقن سكان نجوع جبل القُرنة، فن صناعة النسيج بالمعدات والأنسجة نفسها التي عرفها أجدادهم من قدماء المصريين، الذين برعوا في أعمال النسج باستخدام أنوال بسيطة، مع استعمال صبغات نباتية للخيوط والأقمشة، وعرفوا مواد خاصة لتثبيت الألوان. وتستعيد الورش نسج الكتان والأقمشة بالتقاليد المصرية المتوارثة وباستخدام ذات الأدوات الطرق التي استخدمها المصري القديم كما تسجلها الرسوم والنقوش على جدران المقابر والمعابد.

صناعة الفخار

ومن الصناعات القديمة التي تحظي باهتمام سكان جبل القُرنة، صناعة الفخار، وقد أسس الشقيقان بركات وصالح صالح، مدرسة لصون تفاصيل تلك الصناعة التاريخية أفادت الكثيرين في إجادة فن صناعة الفخار والخزف.

وقد صنع قدماء المصريين نوعين من الفخار، أجودهما من الفيانس الذي استعمل فيه الكوارتز وحده لصنع الهيكل الأصلي، وصنعوا النوع الآخر، الأكثر استعمالاً، من طمي النيل عادة، ومن الطمي الممتاز المأخوذ من كفر البلاص في محافظة قنا جنوبي مصر. ويمتد جبل القرنة التاريخي، لعدة كيلو مترات وتتخلله مناطق سكنية، وأخرى أثرية، ويصنفه علماء الآثار ضمن أكثر جبال العالم غنىً بالمعابد والمقابر والمعالم والشواهد الأثرية. ويطلق العلماء على المنطقة التي يقع بها ذلك الجبل في البر الغربي من مدينة الأقصر، جبانة طيبة القديمة، ففي أحضان جبل القرنة، دُفن ملوك وملكات ونبلاء ونبيلات الفراعنة، نحتت قبورهم في صخور الجبل، ووسط الوديان وفوق المرتفعات، شارك مئات الفنانين والعمال في أعمال الحفر وتزيين المقابر، بالرسوم والنقوش البارزة والغائرة، ونحتوا التماثيل الضخمة لتُزين المعابد التي شيدت في أحضان الجبل، مثل معابد حتشبسوت، والرامسيوم، وإيزيس، وسيتي الأول، وهابو، ومرن بتاح، وغيرها ■

هـل العـادات

أقـز القصيـده مثل قـز البرازيـل ... لابـد شـاعـر ينتقـد في الأمثالي
أعـد المثـل وأحلـل القـول تحليـل ... واشـكي وأشـاكي بالمثـل من شـكالي
قـم ياولـد هـات الحطب والمعاميـل ... وسـوّ الحضيره والـذرى م الشـمالي
هـات الفـراش وعـدل الوضـع تعديـل ... وحـط المسـاند والتكي والزوالي
من عقـب هـذا شـب ضـوك بتمهيـل ... صـف الـدلال مثالثـات بهالي
صـب الغسـول وحـط فيه الفناجيـل ... وحـط الفواله فـرض وإلا نغالي
يـا ماحلا الفنيـال بالبن والهيـل ... في مجلـس فيـه القـروم الرجالي
صبه على ضيفـك كبير الرجاجيـل ... أشـقر حمـر شـروات دم الغزالي
وهاتـوا العـود ودهـن عـود بتجميـل ... عـود الرصاصي لي بالأسـعار غالي
ربعك هـل العـادات جيـل على جيـل ... ولطامـة العايـل أسـود وشـبالي
ربعك بني عمك هل الهجن والخيل ... وأهـل البنـادق والمحـازم ثقالي
حـط العشـا حـول سـمان بتكميـل ... يللي منقـا مـن أخيـار الحلالي
عقـب العشـا حلبـوا عرابي مشـاميل ... وامـزر قـدروك والطـوس والملالي
نـادوا على الضيفـان من أول الليـل ... اكـرم ضيوفـك في الكـرم لا تبالي
أوصيـك فيهـن لا تضيـع ولا تميـل ... وحافـظ عليهـم لنهـن م الغوالي
ربـع بهـن بيـن الدمـث والمسـاييل ... لي بكـر الوسـمي وشـرب الهيالي
يازيـن وقـت العصـر لي يـن مقابيـل ... واشـتاق وأروح لهـن بالعيالي

القصيدة للشاعر أحمد بن محمد بن دري الفلاحي وتتحدث عن عادات وتقاليد البدو في دولة الإمارات العربية المتحدة.

ارتياد الآفاق

من الأندلس إلى بلاد الحرمين

ابن جبير ورحلة التكفير عن الذنب

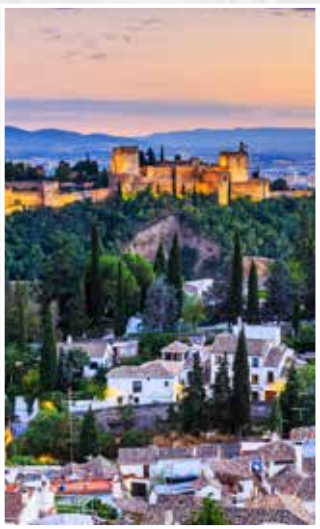

من الأندلس إلى بلاد الحرمين

ابن جبير ورحلة التكفير عن الذنب

محمد عبد العزيز السقا

على متن السفينة المبحرة من الأندلس إلى الشرق، وعلى شكل يوميات، دُونت هذه الرحلة، التي كتبها ابن جبير، وأرّخ لها بالأشهر الهجرية جنبًا إلى التواريخ الميلادية الموافقة لها، في أسلوب فريد يتوج الحلقة الأندلسية في كتابة أدب الرحلات.

من المعتاد أن تكون الرحلة شغفاً واستكشافاً، لكن أن تكون الرحلة كفارة عن ذنب! وتوبة عن خطيئة! فهذا ما يمكن تسميته سبقٌ لابن جبير؛ حدث ذلك عندما استدعاه أمير الموحدين (أبو سعيد بن عبد المؤمن) ذات يوم ليكتب عنه كتابًا، وكان على شرابه المسكر، فناول ابن جبير قدحاً من نبيذ، فاعتذر ابن جبير عن تناوله، فأقسم عليه الأمير يميناً مغلظة ليشربنَّ من النبيذ سبعة أقداح، فشربها صاغرًا، على كره. فلما رأى الأمير أنه أكرهه ردها عليه سبعة أقداح مملوءة بالدنانير، لكن ابن جبير كان يتجرع مرارة الذنب، فأزمع أن يحج تكفيراً عن خطيئته - وإن شكك بعضهم في القصة - فالثابت بلا ريب أنه خرج مع صديقه أحمد بن حسان من غرناطة الأندلسية (جنوب إسبانيا حاليًا) في الخميس 8 شوال سنة 578هـ الموافق3 فبراير 1183م، فوصل إلى مدينة سبتة (مدينة مغربية تحت السيادة الإسبانية حاليًا) ومنها ركب البحر إلى الإسكندرية، متخذا طريق الحجيج إلى مكة المكرمة عبر عيذاب ثم جدة، فحج وزار المدينة المنورة، ولكنه لم يعد من حيث أتى، بل توجه إلى الكوفة وبغداد وتكريت والموصل في العراق، ثم قصد بلاد الشام ماراً، بمدينة نصيبين (في تركيا حاليا)، ثم دنيصر فرأس العين السورية فحران التركية، فمنبج السورية فبزاعة فالباب، فحلب، واصفاً ما جاورها من بلاد، ومن حلب اتجه إلى قنسرين، فـ«خان التركمان»، ثم قصد «معرة النعمان»، ومنها اتجه جنوباً إلى حماة، ثم إلى حمص على ضفاف نهر العاصي، ومنها إلى دمشق، ثم عكا، ومنها ركب البحر، وقصد صقلية، ومنها قفل عائداً إلى داره في غرناطة يوم الخميس 22 محرم سنة 581هـ الموافق 26 أيار/مايو سنة 1185م. الرحلة التي استغرقت أكثر من سنتين، دوَّن فيها الرحالة الأديب مشاهداته على طريقة المذكرات اليومية، ليقدم نفسه أديبًا خالصًا، ووصّافًا متقنًا، درامي السرد، يتمكن من تسجيل خلجات النفس وخبايا الشعور، كتب النثر، ونظم الشعر ببراعة، كما كان له آراء نقدية يقيسها على مسطرة خاصة، لم تخل من النقد للسلوكيات المجتمعية، ومن المواقف السياسية الخاصة بالحكام، كما جاءت غنية بالمصطلحات البحرية والمعلومات

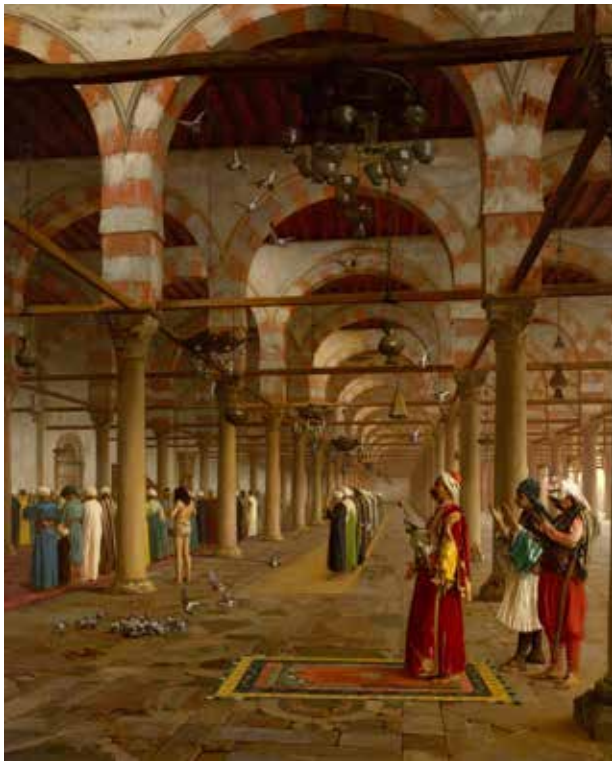

الملاحية، تقدم صورًا صادقة عن واقع جغرافي وسكاني وإثني لا يمكن للمهتم بأدب الرحلة أو المؤرخ أو الجغرافي أن يغفله، ليترك لنا (رحلة ابن جبير) أو (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) سفرًا حافلاً بالمشاهد والتجارب، محفوظًا في مكتبات أوروبا، حتى يطبع كاملًا ولأول مرة بأيدٍ غير عربية في ليدن عام 1852م. أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير الكناني الأندلسي، هكذا اسمه ونسبه، ولد في بلنسية الأندلسية سنة 539هـ / 1145م، وكان أول منصب تقلده هو كاتب حاكم غرناطة الموحد، وحُقَّ له؛ فقد ترعرع متوشحًا ملَكة الكتابة، التي مكنته لمّا خضعت غرناطة لسلطان الموحدين سنة 551 هـ، أن يكون من أبرز كتّاب حكامها، وهو الشاطبي البلنسي الذي شغف أول ما شغف بعلوم الدين فسمعها في شاطبة من أبيه، وأخذ القرآن عن أبي الحسن بن أبي العيش، ثم برع في الشعر فترك لنا «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان» وهو ديوان شعره. وكانت وفاته في سنة 614 هـ، في آخر رحلة قام بها إلى مصر والإسكندرية.

رحلتان مجهولتان!

من يرتحل يعشق الترحال، ويبدو أن ابن جبير (التائب من الذنب) قد ذاق لذة الترحال، فقد وصلنا خبر أنه قام برحلتين نعرف بأمرهما، من دون ثبت دقيق عنهما؛ حيث يروى أنه لما استرد السلطان صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس سنة 583هـ/ 1187م، قام ابن جبير برحلته الثانية لزيارة بين المقدس المحرّر، وشرع في هذه الرحلة سنة 585هـ/1189م، وانتهى منها سنة 586هـ. ولم تصلنا مخطوطتها، ولما توفيت

زوجته - وكان يحبها حباً جمّاً - دفعه الحزن عليها إلى القيام بالرحلة الثالثة طلبًا للسلوان، وقد خرج فيها من مدينة سبتة إلى مكة المكرمة، وبقي فيها فترة من الزمن ثم غادرها إلى بيت المقدس في فلسطين، ثم قصد القاهرة، وبعد فترة قصد الإسكندرية، فكانت وفاته فيها سنة 614هـ/1217م، عن 74 عامًا ولكن لم يصلنا مكتوبًا من رحلات ابن جبير سوى رحلته هذه التي بين أيدينا. عمل ابن جبير سِفْرٌ وسَفَر، بكامله حافلٌ بالدراما إذا ما وصف لنا المخاطر والأهوال، ملونٌ بالانبهار إذا ما صادف أثرًا أو بنيانًا عجيبًا، مشحونٌ بالبهجة إذا ما وصف مشاهد الاحتفالات التي حضرها في المدينة المقدسة، أو لونها بالفرح حسن الانتصار في الشام، أو الهوى البغدادي في العراق، ومن يدري فربما قد شحنها أيضاً إدراكه أن «خطيئته» قد غفرت.

دمشق والجامع الأموي

وصلها يوم 24 ربيع الأول أثناء محاصرة صلاح الدين لحصن الكرك الذي كان تحت قبضة الجنود الصليبين، وأقام في دمشق حتى 5 جمادى الآخرة 580هـ، وكتب وصفا وافياً للجامع الأموي، وقلعة دمشق، وعادات الدمشقيين، وأخبار صلاح الدين في بلاد الشام.

العمرة الرجبية في مكة

وصف ابن جبير العمرة الرجبية لأهل مكة (نسبة إلى شهر رجب) وصفا مبهرًا حيث يقول: والعمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العرفية.... ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة الا من خرج للعمرة من أهلها ومن المجاورين، وكنا في جملة من خرج ابتغاء بركة الليلة العظيمة، فكدنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج، والنيران قد اشعلت

بحافتي الطريق كله، والشمع يتقد بين أيدي الإبل التي عليها هوادج من يشار إليه من عقائل نساء مكة.... فكنا لا نتلخص إلا بين هوادجهن وبين قوائم الإبل لكثرة الزحام واصطكاك الهوادج بعضها على بعض. فعاينا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا، فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجبا يحدث به ولا عجباً يذكره مرأى الحشر يوم القيامة لكثرة الخلائق فيه، محرمين، ملبين، داعين الى الله عزوجل ضارعين، والجبال المكرمة التي بحافتي الطريق تجيبهم بصداها حتى سكتت المسامع، وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع، وذابت القلوب الخواشع.

وفي تلك الليلة ملئ المسجد الحرام كله سرجا فتلألأ نوراً. وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات إشعاراً بأنها ليلة الموسم.

احتفال مهيب في مكة!

ثم يتحدث عن الاحتفال في صبيحة ليلة الخميس حيث تخرج مكة على بكرة أبيها، قبيلة قبيلة وحارة حارة شاكين في الأسلحة فرساناً ورجالة، يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها، والرجالة يتواثبون ويتثاقفون بالأسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وحجفاً وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض والتضارب بالسيوف والمدافعة بالحجف التي يستجنون بها.

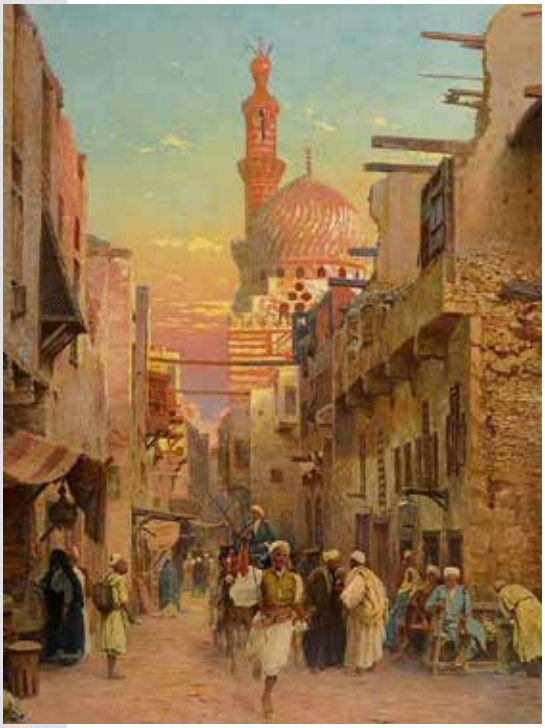

واظهروا من الحذق كل أمر مستغرب. وكانوا يرمون بالحراب الى الهواء ويبادرون اليها لقفا بأيديهم وهي قد تصوبت اسنتها على رؤوسهم وهم في زحام لا يمكن فيه المجال، وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء فيستلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم.... وقد ركب جملة من أعراب البوادي نجباً صهباً لم ير أجمل منظراً منها، وركابها يسابقون الخيل بها، بين يدي الأمير، رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه، الى أن وصل المسجد الحرام، فطاف بالكعبة، والقراء أمامه، والمؤذن الزمزمي يغرد في سطح قبة زمزم رافعا عقيرته بتهنئته بالموسم والثناء عليه..

قناديل السحور في مكة المكرمة

أقام ابن جبير بمكة ثمانية أشهر، مكنته من كتابة أطول فصول رحلته في ليالي رمضان في مكة المكرمة، ذكر أن أحد المؤذنين كان يتولى التسحير في الصومعة الموجودة في الركن الشرقي من المسجد الحرام بسبب قربها من دار أمير مكة، فيقوم المؤذن وقت السحور داعيًا ومذكرًا ومحرضًا على السحور، ونصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع وفي طرفيه بكرتان صغيرتان فوقهما قنديلان كبيران من الزجاج يضيئان طوال فترة السحور، فإذا اقتربت نهاية وقته قام المؤذن بإنزال القنديلين من أعلى الخشبة وبدأ في الأذان، ونتيجة لاتساع مساحة مكة المكرمة وبُعد الكثير من منازلها عن المكان الموجود به قنديلا التسحير، يذكر ابن جبير ارتفاع منازل مكة، وهو الأمر الذي جعل الذين لم يسمعوا نداء السحور يشاهدون القنديلين يضيئان أعلى الصومعة فإذا لم يبصروهما عرفوا أن وقت السحور قد انتهى.

دجلة وفتنة الحسن

لا أنت أنت ولا الديار ديار! هذه المدينة العتيقة، كما شاهدها ابن جبير كانت لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية، لكنها قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهير اسمها. لكن ما لفته فيها هو دجلتها بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين، كما لفته الحسن الحريميّ الذي بين هوائها ومائها ينشأ، هو من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة، ففتنُ الهوى، إلا أن يعصم الله منها، مخوفة.

أعياد الميلاد في صقلية

وفي بلارمة حاضرة صقلية يصادف عيد الميلاد، ويحتفل به الناس رجالًا ونساءً، ويلاحظ ابن جبير أن زي «النصرانيات

(مثل) زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات، متنقبات خرجن في هذا العيد، وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائعة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن حاملات جميع زينة نساء المسلمين.

كرم نصارى جبل لبنان!

من الإنصاف للآخر الذي يذكره ابن جبير حديثه عن نصارى لبنان بعد حديثه عن مسلميها إذ يقول: ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع الى الله عزوجل فتجب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا، فيه أنواع الفواكه، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة. وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض.

الدنيا لمن غلب!

ثم ينقل لنا ابن جبير طرفًا غاية في الأهمية من أحوال الناس في ظل الحروب والصراعات وكيف أن عجلة الحياة اليومية تسير في طريقها، فيقول: «واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك. وتجار النصارى أيضا لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية. وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب.... هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة

بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك. ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه.

فندق في الجيزة بمصر!

في يوم الأربعاء المذكور أجزنا القسم الثاني من النيل في مركب تعدية أيضا بموضع يعرف بدجوة، وذلك وقت الغداة الصغرى، وكان نزولنا في مصر بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص، رضي الله عنه، في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور فأول ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض قد بني عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به، مجلل بأنواع الديباج، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعا أبيض ومنه ما هو دون ذلك، قد وضع أكثرها في أتوار فضة خالصة ومنها مذهبة،

وعلقت عليه قناديل فضة، وحفّ أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهباً في مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسناً وجمالاً، فيه من أنواع الرخام المجزّع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون.

قصر للمجانين في القاهرة!

ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة. وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً وعيّن قيّما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى. وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى. ولهن أيضا من يكفلهن. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين. ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد. وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه.

روضة النيل

وعلى شط نيلها مما يلي غربها، والنيل معترض بينهما، قرية كبيرة حفيلة البنيان تعرف بالجيزة. لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع اليها. ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان وعلالي مشرفة وهي مجتمع اللهو والنزهة،

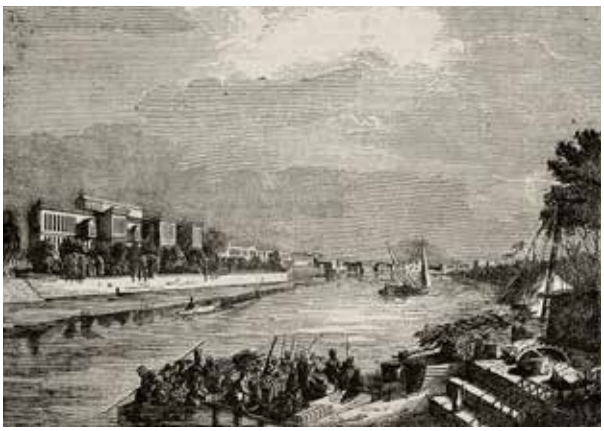

وبينها وبين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل ولها مخرج له. وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه. ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة وهذا المقياس عمود رخام أبيض مثمن في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه....

قرية موسى وسجن يوسف

والقرى في طريقنا متصلة في شطي النيل والبلاد الكبار حسبما يأتي ذكره، ان شاء الله. فمنها قرية تعرف بأسكر في الضفة الشرقية من النيل مياسرة للصاعد فيه. ويذكر أن فيها كان مولد النبي موسى الكليم، صلى الله على نبينا وعليه، ومنها ألقته أمه في اليم، وهو النيل حسبما ذكر. وعاينا أيضا بغربي النيل ميامنا لنا، المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق ﷺ، وبها موضع السجن الذي كان فيه، وهو الآن ينقض وينقل أحجاره الى القلعة المبتناة الآن على القاهرة، وهو حصن حصين المنعة. وبهذه المدينة المذكورة مخازن الطعام التي اختزنها يوسف، ﷺ، وهي مجوفة على ما يذكر. وقابلنا على مقربة من هذا الموضع مياسرا لنا المسجد المبارك المنسوب لإبراهيم خليل الرحمن، وهو مسجد مذكور مشهور معلوم بالبركة مقصود، ويقال: إن بفنائه أثر الدابة التي كان يركبها الخليل إبراهيم ■

* كاتب مصري مقيم في الإمارات

المراجع:

- نفح الطيب للمقري.
- الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب.
- رحلة ابن جبير.
- الأعلام للزركلي.
- مكتبة الوراق، المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق، أبوظبي.

«سانت كاترين».. التجلي الأعظم

ضياء الدين الحفناوي

إن كنت من الذين طرقت أسماعهم أو شاهدت عيونهم هذه السلسلة من جبال سناء المسماة «جبال سانت كاترين» فأنت من دون شك محظوظ، وإن لم تكن منهم، فدعنا نأخذك من خلال هذه الجولة إلى هناك لنسمع ونشاهد التاريخ وهو يحكي عن «التجلي الأعظم» الذي حدث في تلك المنطقة من شبه جزيرة سيناء في مصر، ولم ولن يتكرر بعدها أبداً. حيث كانت المرة الأولى والأخيرة التي يتجلى فيها رب العالمين لأحد الجبال، وهو جبل كاترين فجعله دكاً، ولواحد من البشر، هو نبي الله وكليمه موسى، عليه السلام، فخر صعقاً.

جباليا والجبالية

تقع قرية سانت كاترين وسط مناظر طبيعية خلابة عند سفح جبل سيناء، أو «طور سيناء» الشهير. سميت هذه القرية الصحراوية الصغيرة على اسم الدير البيزنطي القائم في وسطها، وهو من أقدم وأشهر الأديرة في العالم، حيث اتخذ بدو جباليا منها موطناً وعاشوا في هذه القرية منذ القرن السادس الميلادي، وكانوا يعملون في السابق كجنود وحرفيين في خدمة الدير، وخضعوا لحكم الإمبراطور الروماني جستنيان. وتنتشر قبيلة الجبالية في منطقة الجبال العليا بجنوب سيناء في مصر خاصة في منطقة سانت كاترين، التي تضم أحد أكبر الجبال في مصر، وهو جبل كاترين، الذي شهد معجزة التجلي التي وقعت لنبي الله موسى، عليه السلام، خلال رحلة خروجه من مصر، هربا من ظلم الفرعون، مما يجعلهم بحق الحراس الأصليين لتلك المنطقة المقدسة، التي تبدأ من حدود منطقة الطور، وتمتد حتى سلاسل جبال سانت كاترين، مروراً بوادي فيران. أما الآن، فيعمل أهل جباليا، في العديد من الحرف اليدوية، ويكسبون أقواتهم منها، وكذلك من العمل كمرشدين سياحيين، وتكسب نحو 500 امرأة بدوية رزقهن من خلال العمل اليدوي الإبداعي، المتخصص في إنتاج أزياء وإكسسوارات وبيعها لزوار القرية، فيما يكاد التطريز الذي اشتهرن به كحرفة يدوية ينقرض. وانتقلت الحرف اليدوية التقليدية للخياطة والتطريز عبر الأجيال بين النساء البدويات من خلال بيع سلع ومشغولات مصنعه يدوياً، وبمواد طبيعية بسيطه من البيئه المحيطه، وتعود أصول هذه الحرف إلى الرعاة، الذين أخذوا معهم أكياس السكر من أجل تحلية الشاي وأكياسًا أخرى لحمل وحفظ أدواتهم وهم في الطريق إلى الجبال، حيث الكلأ والمرعى، وقاموا بتطريزها فنياً أثناء الرعي كأعمال فنية صغيرة بإبرة وخيط وأشكال مستوحاة من المناظر الطبيعية الخلابة والنباتات والحيوانات المحيطة بمناطق رعيهم، فيبدعون تطريزًا فريدًا، وتزيد أشجار الفاكهة والزيتون والجمال البدوي في القرية والجبال الحبيبة من إبداع النساء، فينتجن أعمالًا فنية رائعة الجمال. وتستطيع المرأه البدوية كسب رزقها من خلال بيع بضائعها الجميلة المطرزة بلطف للسياح. وتعد «الجبالية» القبيلة البدوية الوحيدة التي لا تزين حرفها اليدوية بزخارف هندسية فحسب، بل تشمل هذه الحرف أيضًا ملامح من موطنها كنموذج للتصميم. وتعيش روح جنوب سيناء في أعمالها فتجعلها أكثر تميزًا. ولا توجد أنماط متكررة في اهذه الأعمال، وهذا هو السبب في أن هذا الفن وتلك الحرف مهددة بالانقراض.

أسواق المشغولات اليدوية

كما تعد أسواق المشغولات اليدويه البدويه ضمن الوجهات السياحية الأكثر ارتياداً في سيناء، وهناك تجارة مزدهرة في الحرف اليدوية من قبل النساء البدويات حيث يمكن العثور على هذه الأشياء المصنوعة يدويًا في كل سوق تقريبًا في المدن السياحية في سيناء؛ ويقوم وسطاء معروفون يمثلون المرأة البدوية بجلب المنتجات إلى أصحاب المحلات السياحية والمراكز التجارية لتسويقها وبيعها. وجميع المقتنيات التي تحمل الطابع البدوي من مشغولات سيناء، بصفة عامة، لها تميزها عالمياً حيث تبرع الأنامل الذهبية الساحرة لسيداتها وبناتها فى إبداع أروع التصميمات والمشغولات اليدوية سواء من ملابس سيناء بأشكالها وألوانها الرائعة وتطريزاتها المبهرة وبدقة صناعتها مثل الشنط والمشغولات اليدوية والحلى من عقود وأساور وحلقان، وغيرها من المشغولات السيناوية التى أبهرت فناني العالم، ورغم ضعف الإمكانيات والعراقيل والمعوقات إلا أن الصمود الذى استمدوه من ماضيهم النضالي المشرف هو السلاح الأول الذى يواجهون به خطر الانقراض،

ويذكر أن بعض المهتمين بهذا الفن الرائع في الاتحاد الأوروبي قدموا مساعدات تمثلت في توفير أماكن لعرض منتجات أصحابها البدو ولاقت هذه المنتاجات كثيراً من الاستحسان والتقدير من المستهلك الأوروبي حتى علي مواقع البيع الإلكترونية. وعادة ما تمنع العادات البدوية النساء من الخروج والاختلاط مع الغرباء من غير البدو ولكن مكنتها هذه المساعدات من إجراء اتصالات مع عدد من الأجانب والمهتمين بهذا النوع من المشغولات اليدوية الفريده، ورغم أن العالم قد أصبح قرية صغيرة عبر وسائل الاتصال الإلكترونية، إلا أننا فخورون بتراث وعادات وتقاليد وإنتاج نساء سيناء اللاتي أصبحن مشاركات في إنعاش اقتصاد سيناء والترويج لمنتجاتها على المستوى العالمي. من جهة أخرى تعد أيضا جبال سانت كاترين صيدلية الطبيعة وكنز المعارف التقليدية فى الطب الشعبى حيث توارث حكماؤها مهنة التداوى كابر عن كابر، وتشتهرسيناء بالكثير من الأعشاب وأهمها البردقوش والزعتر والحبق وكذلك الزيوت المختلفة وخلطات ووصفات كثيرة أخرى من التراث السيناوي الفعالة لعلاج العديد من الأمراض، ولا عجب إذا ما شاهدت عدداً من الأجانب من جنسيات مختلفة خاصة من دول أوروبا في زيارة لتلك الصيدليات العشبية المنتشرة في الأسواق الشعبية في سيناء.

نباتات طبية نادرة

وتعد محمية سانت كاترين من أهم المواطن الطبيعية لمعظم النباتات النادرة في سيناء، وتضم حالياً 316 نوعاً من أصل 529 سجلت سابقاً، ما يعني تعرضها للانقراض. ويشكل هذا العدد 50 في المئة من نباتات مصر كلها. وثمة 14 نوعاً نادراً لا يمكن زراعته إلا داخل المحمية لملاءمة مناخها لنموه. ويُستخدم نحو 47 في المئة من هذه النباتات كأعشاب عطرية وطبية أو للطهي، كما تستخدم أنواع أخرى كوقود أو علف للماشية.

ومن أهم النباتات الطبية (السموة) التي تُستخدم في تخفيض نسبة السكر في الدم وعلاج المغص المعوي، والحصلبان لعلاج التهاب الحلق، والبعيثران والزعتران لعلاج المغص والتقيؤ والصداع، وأنواع أخرى كاليانسون والشيح والشمّر، واكتسب سكان المحمية من البدو معرفة طويلة بالنباتات واستخداماتها عبر السنين. ■

الباب

عبد الفتاح صبري
كاتب مصري مقيم في الإمارات

للباب أو الشباك وظيفة مهمة في العمارة أو البنيان منذ عرف الإنسان وأسس لنفسه داراً تأويه وتقيه غائلة المناخ برداً أو حراً، أو تحميه من سابلة الحيوان وشراسته قبل السيطرة عليه وتدجينه، وكذلك تحافظ على خصوصيته وبشريته من الآخرين، ولذلك كان من المهم أن يكون للباب شكل وطبيعة تتناسب ووظيفته التي ستتسع وتتنوع حسب نوع البناء أو حجمه أو الغرض المستخدم له. كما أن هذه الأبواب ستعكس حضارة الإنسان وتطورها وذوقه الجمالي ومكانته الاجتماعية.. وعبر الحضارات كان للباب سمته المواكب للبيئة وتطورها.

الباب مدخل ميسر للداخلين إلى المكان، إذ لابد وأن يكون متسقاً ومناسباً لهم، باب واسع فخم مكتنز بالزخارف والألوان والتواشجات الجمالية المستمدة من حضارة العصر وتطوره وتقدمه، أو حتى بهوتها وتراجعها، أم سيكون باباً مصمتاً أملس الشكل خالياً من بهرجة الفنان، متسقاً مع وظيفته التي يؤديها مجرد دال على مدخل للمكان، مجرداً إلا من وظيفته، وغير مرتبط بشكل الفن أو سمات أهل المكان. حينما تتأمل وظيفة الباب عبر التاريخ، ونفتش عن الإنسان من خلال الأبواب التراثية عبر العصور ستكتشف قيمة الإنسان، وستميط تلك الأبواب عن القيم الإنسانية التي تتوفر للإنسان عبر التاريخ. الباب سر أسرار الإنسان، والباب مكتنز بتاريخ وحضارة وإبداع وفن، وستعكس الأبواب حالة الأمان والطمأنينة والاستقرار لدى أهل المكان، أو سيكون كاشفاً عن حالة وطبيعة المجتمع وأهله في لحظة تاريخية وعدم أمانهم على أنفسهم وعلى متاعهم وممتلكاتهم.

هنا ستكتشف أن الباب ليس مجرد وجاء للمكان وأنه ليس مجرد معبر أو ممر، أنه قشرة خارجية دالة على لب الداخل وعلى المكانة الاجتماعية للساكن وعلى طبقته ومدى ثرائه أو فقره، وتمكنه أو ضعفه. كما أن الباب نفسه سيعكس حالة التطور في الصناعة وفي الفن وفي قدرة الفنان على اتقان الصنعة المدهشة والمسكونة بالجماليات التي تناسب الأبواب والغرض منها.

مثالاً: الأبواب في قصص ألف ليلة وليلة، هذه القصص والحكايات التراثية والشعبية تبرز المخيال الجمعي الشعبي في نسج وتدبيج القصص، وفي نفس الوقت هي تعكس قيم الإنسان وعاداته وسلوكياته المعيشية واليومية، وتبرز حضارته وجانب مهم من أدواته المستخدمة، وطريقة الاستخدام والتعامل معها.. وتصف تلك الحكايات التراثية الطرق والدروب والمباني والبلدان والمدن والفيافي والبرية، وتظهر طريقة التفكير لإنسان المكان وهواجسه ومخاوفه وتراثه والطبقات الاجتماعية التي تشكل لحمة المجتمع. كما تصف المباني وأشكالها ومتاعها وتكويناتها الداخلية، وتصف الأبواب وزينتها وأشكالها ووظيفتها وفقاً لنوع المبنى الذي تقبع فيه. لماذا تتطرق الحكايات في ألف ليلة وليلة

إلى الأبواب، بالتأكيد لأن له دوراً في الحماية، وبالتالي سنتطرق إلى طريقة تكوينه وتركيبه لتكشف عن من له الحق في الدخول منه أو العودة، وسترى أن أبواب القصور الفخمة غير أبواب المغارات والمباني العادية أو المجهولة أو المغمورة أو المهملة وفقاً لوظيفتها في السرد. أبواب القصور يقف عليها حراس وسلاح وتشريفات، الدخول بقدروحذروموجبات وأسباب واستدعاءات، الداخل منه هو أيضاً عالي القدروالشأن والمكانة، بينما في أبواب المغارات والمباني القديمة المهملة ستصورها حكايات ألف ليلة وليلة أنها مداخل للمهمشين والمغامرين واللصوص والباحثين عن ملاذ آمن، هرباً من العسس أو قطّاع الطرق. للباب في الظاهر وظيفة واحدة، أنه فاصل بين الداخل والخارج، وأنه ممر بينهما ولكن الباب يكشف وبحسب نوع المبنى وزمان الدخول نوعية وخلق وقيم وسلوك وعادات هذا الداخل أو المار.. فباب القصر أو باب دار الحكم غير باب الدهماء من العامة أو متوسطي الحال في المجتمع أو المتنفذين الأصاغر في تراتب الحياة الاجتماعية لأهل المكان وزمانه.. كل داخل أو مار ستكشف عن هويته وعن قيمته الاجتماعية من خلال الباب الذي يحكم نوع المبنى، وكأن سيرة الباب والمارقين منه هو سيرة المبنى ومكانته.. الباب ونوعيته مرتبط بالدرجة الاجتماعية والتراتب في سلم الحياة للداخلين المارين منه دخولاً وخروجاً.

ألف ليلة وليلة تكشف عن أنواع مختلفة من الأبواب أكثر اتساعاً وشمولاً، حيث سيرد ذكر بعض الأبواب التي تغلق شارعاً بأكمله أو حارة يقطنها العشرات مثلاً.. وكأن هناك باباً للدار أو المنزل ثم باباً أكبر للمكان برمته حرصاً وأمناً وكأنها زيادة لمتاريس الطمأنينة وبعثاً للسكينة لأهل المكان خوفاً من الأغراب واللصوص والمغامرين. عبر التاريخ هناك لصوص يبحثون عن الولوج للسرقة والاقتناص، وهناك أبواب يتفنن صانعوها في أن تكون أكثر منعة وأقوى لتكون ردعاً لهؤلاء، وباعثة للأمان والطمأنينة وتهدئة روح القاطنين الباحثين عن الهدوء ورضا السكينة وهدأة البال والاطمئنان على النفس والمتاع والحريم والأولاد.. ولذلك تبدلت وتنوعت أشكال الأبواب والمتاريس التي تغلقها عبر التاريخ وحسب تطور الحضارة والإنسان والصناعة. وستتسع وظيفة الباب التي أساسها بعث الطمأنينة في نفوس القاطنين خلفه ليصبح في تاريخ المدن أبواب أكبر، أبواب تغلق

على المدينة بالكامل حين يحين الليل فتصير المدينة داخل سور، وتحيا خلف أبوابها وعلى كل شارع باب وعلى كل دار باب، وكأنها زيادة متاريس الحرص والزود عن المدينة بكاملها من المغيرين واللصوص وقطاع الطرق، وكلما دخلت المدينة القابعة خلف أسوارها وأبوابها ليلاً ستكون هناك شبكة من الأبواب تقف في وجه المخترق أو الغريب أو اللص والعدو القادم بحثاً عن المغامرة والسرقة واقلاق الهدوء وطمأنينة المكان والناس. القاهرة المدينة العريقة كانت داخل سورها العظيم في تاريخها القديم، وفي هذا السور أبواب، باب النصر، باب الفتوح، باب زويلة، ومع كل عصر كانت هناك أبواب أخرى وكان هناك استخدامات أخرى لهذه الأبواب العظيمة الضخمة التي تغلق ليلاً كانت بوابات للإعلان عن النصر أو النكاية بأحد المارقين أو المعتدين يعلق رأسه أو جثته على الباب إعلاماً وإعلاناً بعزة السلطان أو قوته. من يزور المدن العربية القديمة سيجد هذه الأبواب حولها في صفاقس بتونس أو القيروان أو المدينة القديمة في الرباط في المغرب أو الجزائر العاصمة، وفي مدن أخرى أبواب كبيرة لها وظائف عظيمة معبر للمدينة، تفضي إلى أبواب أصغر في مداخل العطفات والحارات ثم أبواب البيوت والدور، أبواب تفضي إلى أبواب زيادة في إسباغ الأمن والأمان والطمأنينة ■

نشأة العقيدة بين كاوتسكي وفروم

عرض - فيبي صبري

كيف تحدد ملابسات الظرف التاريخي، السياسية والاقتصادية، أي العقائد والمنظومات الفكرية يبقى وأيها يندثر؟ وهل تملك مدارس التحليل النفسي ما تقول بهذا الشأن؟ اخترت اليوم عرض كتابين، قام مؤلف كلٍ منهما بالتصدي لإجابة أحد السؤالين. وبعد الاطلاع على الأطروحتين، يمكن للقارئ تحديد إذا ما كانا قد نجحا في مهمتهما أم لا. الكتاب الأول: الدين والصراع الطبقي في المجتمع الشرقي العبودي القديم. آمن كارل كاوتسكي . المنظر الماركسي البارز . بالحتمية التاريخية الاشتراكية، وفسر تاريخ الأديان تفسيرًا ماديًا قائمًا على صراع الطبقات الاجتماعية. لذلك يتناول بالتفصيل في بداية كتابه «أصل المسيحية»، الصادر في ألمانيا عام 1908، خصائص الحياة في الإمبراطورية الرومانية: نظام تملك الأرض، العبودية، الدولة، التجارة، الربا، النبالة، النزعة الاستبدادية، وأيضًا شبكة الطرق الممهدة التي ربطت بين آسيا وأوروبا وأفريقيا، والمواطنة الرومانية التي أصبحت حقًا لساكني الولايات الممتدة على خريطة الأرض المعروفة، من دون تفريقٍ بين قوميةٍ وأخرى؛ مواطنة قائمة على المنفعة الخالصة. صنع كل ذلك عالمًا جديدًا بمواصفاتٍ توجد للمرة الأولى. كان المواطن قد امتلك سابقًا ثلاثة موجهات اعتمد عليها في سلوكه، اتخذت شكل التقاليد، والإرادة الشعبية، واحتياجات الجماعة. أصبحت تلك الآن غائبة. لقد تحلل التقليد إلى ظلٍ خاوٍ، لم يعد لدى الناس إرادة موحدة، أصبح المواطن الآن لا مباليًا باحتياجات الجماعة، إذ كان الفرد معنيًا فقط بنفسه... بدأ التبشير بالأخلاق الفردية، التي يمكن بواسطتها للفرد، من دون أن يغير المجتمع، أن يرفع نفسه خارج وفوق المجتمع، ويصبح مواطنًا جديرًا بعالم أفضل. تنامت الأممية، ومع تفسخ الروابط العائلية والاجتماعية وانهيارها، وانعدام الحرية السياسية، ظهرت الحاجة إلى تنظيمات اجتماعية جديدة، تحولت بسبب الاستبداد إلى نشاط سري محفوف بالمخاطر، لابد لأجل بقائه من أهداف شاملة تفوق الفرد أهميةً، لتولد لديه الحماس الكافي للمخاطرة بحياته.

قد تقترح الطريقة المادية أهدافًا كبرى خاليةً من الأوهام، لكن المتطلبات الضرورية لوجود تلك الطريقة مفتقدة في الفترة الإمبراطورية، فأمكن للفرد أن يتجاوز نفسه فقط بواسطة صوفية خاضعة للسلطان الأخلاقي، تتعالى على الصالح الشخصي العرضي، هذا النمط من التفكير يمكن أن يكون دينيًا فقط. كانت الآلهة الأجنبية، الوافدة مع التجار، تُقَّدر أكثر من الآلهة المحلية، لأن الأخيرة أظهرت عجزها. وبينما اتجهت العقول القوية، المستقلة، إلى الشك في الآلهة القديمة والتساؤل حول الفلسفات كافة، اتجهت العناصر الأضعف إلى البحث عن مخلصٍ جديد، تجد لديه الدعم والأمل. انتشرت ديانة كلٍ من إيزيس المصرية وميثرا الفارسي، وتضمنتا الكفارات القاسية لغفران الذنوب، الممارسات السرية، الخلود المقدس عن طريق نكران الذات الكامل والخضوع غير المحدود لإله. في الوقت نفسه انشغلت الطليعة الفكرية بدراسة الروح. بدت طبيعة الروح المتماثلة في كل البشر دافعًا لاستنتاج أن روحًا مفردة، كلية الوجود، تفيض لتكون حاضرة وفعالة في كل الأشخاص، مما أضفى طابعًا أخلاقيًا على الكون. هكذا تطور إله جديد: وحدة مفردة تتصل بروح الفرد، يقف وراء الطبيعة وفوقها، ويتسبب في الأحداث الطبيعية. حرص كاوتسكي إذن على إعطائنا صورةً مفصلةً لذلك العالم، لتلك التربة الخصبة، الملائمة تمامًا لاحتضان الدوجما الجديدة، الدوجما التي أتت لتبقى ألفي عام. من ثمَّ كان ضروريًا أن يشرح بنفس التدقيق . ونفس الرؤية . كيف بدأ كل شيء في أرض المشرق، مع نهاية السبي البابلي تحديدًا، حين تحول الإيمان اليهودي من الاعتقاد في آلهة متعددة أقل بأسًا من إلههم القومي، إلى الاعتقاد في إله يملك على الأرض كلها. «تعود التناقضات في خطاب اليهود الديني إلى الحياة الفعلية لهذه الأزمنة، إلى الوضع الشاذ لليهود في بابل... كانت الانطباعات الكثيفة تثّور كامل تفكيرهم، بينما ظروف حياتهم تضطرهم للإبقاء على تقاليدهم القديمة، للاحتفاظ بوجودهم القومي. لقد أصبحت مهمة المفكرين اليهود الآن توحيد الأخلاق الجديدة مع الوثنية القديمة... الإيمان بإله واحد وسيطرة الكهنة على إسرائيل تزامنا مع ظهور فكرة المخلص، المرسل من الله لإقامة المملكة الأرضية».[1] عشرات المخلصين توالوا على تاريخ اسرائيل منذئذٍ، فلماذا نجحت سردية يسوع الجليلي بالذات؟ يرى كاوتسكي أن مهمة يسوع الأصلية تم التعتيم عليها من قبل تابعيه المتأخرين، لتوافق قصتهم مزاج السلطات الرومانية وتتحاشى الاضطهاد قدر الإمكان. لقد أسس يسوع. حسب الكاتب. تنظيمًا متمردًا توطئةً لحمل السلاح، وخطط للإطاحة بالسلطتين القائمتين في أورشليم: الكهنة والرومان معًا. بالطبع باءت المحاولة بالفشل كسائر ثورات اليهود المتكررة، وقد يكون للخيانة دور أعمق من مجرد قبلة على الوجه. استمرار التنظيم في البقاء الفعال بعد موت مؤسسه ظاهرة يمكن تبريرها؛ فمجمع التلاميذ ظل يمارس ما أصبح طريقة للحياة: الاشتراكية. لقد كان لزامًا على الفرد الذي ينضم للجماعة أن يتخلى عن كل ملكية خاصة أو رفاهية، مساهمًا بكل ما يملك في حياة مشتركة بين كل التابعين. كان هناك أمين صندوق ووجبات طعام جماعية واجتماعات منظمة؛ مجتمع شيوعي مصغر، يلبي حاجات تلك الحقبة الموبوءة بالفقر وغياب الأمان الاجتماعي. مع اتساع رقعة انتشار المسيحية، وتنوع المؤمنين بها، لم تعد عقيدة خاصة بالبروليتاريا كما نشأت. أصبح للطبقات البرجوازية والأرستقراطية رأي في الصورة المتداولة للمسيح؛ لم يعد العداء السافر للأغنياء والحكام مناسبًا، تم تلطيف الإدانات وتحويرها لتصبح مجرد حض على الترفق بالفقراء أو انتظار المكافأة على معاناتهم في الحياة الآخرة. هنا نجد الأرض المشتركة بين رؤية كاوتسكي وإريك فروم: عالم التحليل النفسي، فهو أيضًا يجد أن تحول المسيحية من ديانة المضطهدين إلى ديانة الحكام بدَّل رسالتها كليةً؛ من افتراض وجود حياة أخلاقية عادلة إلى الاعتماد على وسائط النعمة الكنسية لإراحة الضمير، ومن العداء نحو الدولة إلى الوفاق معها. هذا يقودنا إلى الكتاب الثاني: الوضع البشري المعاصر. «إن المسيحية التي كانت ديانة مجتمع أشقاء متساوين من دون سلطة كنسية أو بيروقراطية، أصبحت «كنيسة» أو انعكاس لصورة سلطة الإمبراطورية المطلقة»[2] حين نشر فروم مقاله «عقيدة المسيح» سنة 1930 كان ملتزمًا بالمنهج الفرويدي في التحليل النفسي، وهو ما يظهر بجلاء في تفسيره لما أسماه بـ «الشخصية الاجتماعية». لقد حلل الموقف

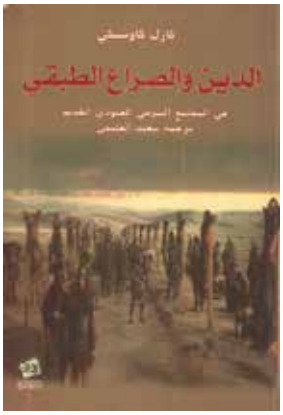

الاقتصادي والاجتماعي للمجموعات التي قامت بالتبشير بالمسيحية، لومنها يوجز استنتاجه الخاص فيما يلي:

«كان للإيمان المسيحي الأول المتمثل في الإنسان الذي يعاني ثم يصبح إلهًا، أهميته الأساسية في الرغبة في الإطاحة بالله الآب، أو ممثليه على الأرض. وقد نشأت شخصية يسوع المتألم من الحاجة إلى تحقيق الذات من جهة الجماهير الكادحة؛ فهو نيابةً عنهم . يترقى بعد معاناته ليصبح إلهًا. كما أن تلك المعاناة نفسها تكفر عن جريمة الاعتداء غير الواعي، عن طريق التمني، على الأب/ الآب، الذي خذلهم مرارًا وتركهم لهزائم لا تنتهي. كان المؤمنون الأوائل هم الطبقات السفلى في المجتمع اليهودي، أناسٌ مملوؤن بالكراهية نحو حكامهم وكهنتهم على السواء، ولديهم أمل في نيل السعادة بسبب وضعهم في الحياة. لاحقًا أدى تغير الوضع الاقتصادي والتركيبة الاجتماعية للمسيحيين إلى تغير الموقف النفسي لهم؛ إذ تطورت العقيدة من فكرة إنسان يصبح إلهًا إلى إله يصبح إنسانًا».[3] ذلك أن الانتصار المنتظر على «ولاة العالم» لم يعد واردًا، والملوم على ذلك يجب أن يكون الجمهور الخاضع للسلطة نفسه وليس القائمين عليها، بالتالي لا يجب أن يفكر الناس بأي شكل في الإطاحة بالأب/الحاكم. لماذا قد يفعلون ذلك إن كان المسيح نفسه ليس إنسانًا تأله، بل هو الله منذ الأزل، وقد أصبح إنسانًا لتحقيق خطته الخاصة لخلاص البشر؟ هكذا ترسخت عقدة الذنب التي لازمت البشرية؛ أنت تعاني لأنك خاطئ بحاجة دائمة إلى التكفير عن ذنوبك ولن تنجح مهما فعلت. ستنال خلاصك بالخضوع لسلطة الكنيسة، وبطاعة الحاكم، لأنه وضع في موقعه بيد الله نفسه. نصل الآن إلى المشكلة الخاصة بالتغير في فكرة علاقة يسوع بالله الآب؛ ليس فقط الابن هو الذي تغير، بل الآب أيضًا. أصبح الأب القوي هو الأم الحامية والمأوى، والابن الذي كان متمردًا ثم صار مذعنًا يعاني، أصبح طفلًا صغيرًا. تبقى الرضاعة من الثديين مثالًا واضحًا لعرض الحب الذي لا ينتهي ويسامح طوال الوقت. في رأيي تتمثل عقدة التكفير عن الذنب منذ فترة الطفولة، التي تختبر مشاعر الغضب والجوع والرضاعة من الثدي في الإجابة عن السؤال الآتي: لماذا يكون الأمل في الغفران والحب أقوى صورة نواجهها في حياة البشر النفسية؟

لو وصفنا الأمر من الناحية النفسية، سنجد أن التغير الحادث هنا هو من اتجاه معادي للأب إلى اتجاه هادئ، يسهل التحكم فيه بطريقة مازوخية من دون مقاومة، وأخيرًا صوب اتجاه الطفل الذي تحبه أمه. لقد كان الموقف النفسي الملائم لإنسان مجتمع العصور الوسطى القائم على التراتبية الطبقية.. إنه كائن بشري وجد نفسه معتمدًا على الحكام، توقع أن يضمن لنفسه أقل كمية من الغذاء عن طريقهم، لأن الجوع بالنسبة إليه كان دليلًا على خطاياه. تشكل أخيولة الأم العظيمة في عفوها أقصى إشباع ممكن قدمته المسيحية الكاثوليكية، ممثلًا عودة خفية إلى ديانة الأم المقدسة التي هزمها يهوه، ولم تمكن العودة إلى الله الآب إلا عن طريق البروتستانتية. إنها تقف على تخوم حقبة اجتماعية تسمح باتجاه نشط من جانب الجماهير، على العكس من الاتجاه الطفولي السلبي الخاص بالعصور الوسطى.

لقد كان الموقف النفسي الملائم لإنسان مجتمع العصور الوسطى القائم على التراتبية الطبقية.. إنه كائن بشري وجد نفسه معتمدًا على الحكام، توقع أن يضمن لنفسه أقل كمية من الغذاء عن طريقهم، لأن الجوع بالنسبة إليه كان دليلًا على خطاياه

هنا ينتهي عرض أفكار كل من كاوتسكي وفروم ويبدأ دور القارئ، ليقرر إن كانت الأسئلة جديرة بالطرح أولًا، وإن كانت الإجابات منطقية ثانيًا، وأخيرًا، إن كان يرجح إحدى الرؤيتين على الأخرى أو يرفضهما معًا ■

* كاتبة مصرية مقيمة في الإمارات

الهوامش:

(1) الدين والصراع الطبقي في المجتمع الشرقي العبودي القديم، تأليف: كارل كاوتسكي، ترجمة: سعيد العليمي، دار روافد للنشر والتوزيع. ص (207-208)

(2)و(3) الوضع البشري المعاصر، تأليف: إريك فروم، ترجمة: نبيل باسيليوس، يوسف نبيل، دار الحوار للنشر والتوزيع. ص (107 - 200).

مع ندى الحاج.. «تحت المطر الأزرق»

د. حمزة قناوي
كاتب وشاعر مصري مقيم في الإمارات

تقدم الشاعرة (ندى الحاج) في ديوانها «تحت المطرِ الأزرق»[1] توليداً دلالياً من المعاني المخاتلة التي تغري النفس بالسير وراء أبعادها الكامنة فيها، بغيةَ استقصائها وتحليل الجمال الإبداعي الخاص بها، يأتي هذا على سياق تذكرنا مقولة الدكتور عبد الله أحمد: «كل حداثة شعرية تراهن على نجاح مشروعها من اشتغالها على منح اللغة طاقات تعبيرية جديدة، تنجم عن تحريف العلاقات بين الكلمات»[2]، وفي ظل إهدائها الديوان إلى والدها الشاعر رائد قصيدة النثر أنسى الحاج؛ فإننا نتوقع منها أداءً توليدياً كبيراً في طاقات اللغة، ونتابع عبر أكثر من أربعين قصيدة، أكثرَ من أربعين عتبة عناوين للقصائد في الديوان، ونلاحظ أن العنونة الرئيسة للديوان ليست من بينها! أي أن «تحت المطر الأزرق» هو العتبة المهيمنة على كل العناوين الداخلية، حيثُ «يجدرُ بنا أن نفهم هذه العتبات بما تؤديه من بعضها بعضاً»[3]، وما تصنعه دلالياً عبر الجو الشعوري العام المحيل إلى المطر الأزرق، والمهدى إلى روح الشاعر الكبير الراحل أنسى الحاج. تغلب على عنونة القصائد الاثنتينِ والأربعين في الديوان الكلمة الواحدة، والقصائد ذات الدفقة الشعورية السريعة والأخاذة، ما إن تبدأ القصيدة حتى يجد القارئ نفسه في منتصف الإحساس اللامتناهي بالمشاعر الفياضة التي ترغب الشاعرة في أن توصلها للسامع، تقول في قصية «جمر»:

النفَـــسُ الذي أردتُـــــه لكَ تلقَّفْـهُ
عبيرٌ هَفـــــا على راحتَيـــكَ وطـــار
أليفٌ صمتُـــه وروحُـــهُ مـن ريـــح
خـــــفَقَتْ بثلـــجٍ فجَمَّـــرتْـــــهُ
كـــنزٌ هو ذاك النفَـسُ المشحـــونُ
بطـــــراوةِ الغافـــي علـى ورقـــة

والزاهدِ المسحورِ الموعودِ بأوتارِ العاصفةِ الماردة. الدفقة الشعورية هنا سريعةٌ وأخَّاذَة، تنقلُ المتلقي إلى عوالم تشكيل الصورة على نحوٍ دلاليٍّ، يحققُ متطلبات قصيدة النثر من الوحدة العضوية الكاملة للقصيدة بأكملها، فلا يمكن فهم القصيدة هنا إلا باعتبارها بيتاً شعرياً كاملاً متكاملاً واحداً، وباقتطاع جزء منه لا تتشكل الصورة النهائية، فإذا كانت البداية من «النفس» في صدر الشاعرة، فلا يمكن تفهم كامل الصورة إلا مع السطر الشعري الآخر، وهنا تتماشى فكرة الصورة مع مفهوم الحداثة التي جاءت لتكون «بمثابة مراجعة، وتصفية حساب مع القوانين القديمة للشعر، ومعيارها الشكليّ والجماليّ».[4] إذاً فطريقة تكوين الصورة في الديوان أن تقوم الشاعرة باختيارِ عنصرٍ عاديٍّ أو تفصيلة عابرة من عناصر وتفاصيل الحياة التي نعيشها، مثل «النَفَس» الذي يلازمنا لحظةً بلحظة، ثم تُسقِطُ عليهِ أبعاداً شعورية، فهذا النَفَس أرادت من حبيبها أن يتلقفه، ولكونه مرسلاً للعاشق فقد كان كالعبير، ما أشار إلى ما يحققه الحب من جماليته الإدراكية الخاصة، ثم تمضي في إسقاط الصفات التي تجعل من ذلك «النَفَس» كائناً أسطورياً، أليست «الأسطورية» متناقضة مع الحداثة وما بعدها؟ أليست أيضاً من سمات الرومانسية؟ لكن هذا يثير سؤالاً يتعلق بأن التعبير ذاته رومانسيٌّ، فهل الحداثة تلغي المشاعر النفسية المتعلقة بالعاطفة؟ وهل الرومانسية وحدها هي المتعلقة بالتعبير عن هذه المشاعر النفسية في؟ ولماذا إذاً لا يأتي التعبير في السياق التقليدي للشعر الحر الأثير لدى المدرسة الرومانسية، وهو ما يحيلنا إلى قضيةٍ أخرى هي «اختصاصية التعبير وعلاقتها بالشكل الشعري»، غير أن هذا له حديثٌ آخر، أكثر تنظيراً وأقل إمتاعيةً من مطر ندى الحاج الأزرق البهيج ■

الهوامش:

1. ندى الحاج: تحت المطر الأزرق، منشورات الضفاف، لبنان، 2015م.
2. د.عبد الله بن احمد الفيفي: حداثة النص الشعري، النادي الأدبي بالرياض، الرياض، 2005م، ص 79.
3. راجع حول أهمية العنونة: شادية شقروش: سيميائية العنوان، محاضرات الملتقى الوطني الأول: السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، الجزائر، 6و7 نوفمبر، 2000م، ص 271.
4. أنظر: محمد جمال باروت: الحداثة الأولى، منشورات اتحاد كتّاب وأدباء الامارات، 1991م، ص 171.

القفز خارج الذهنية الخرافية

شريف مصطفى محمد

واجه الإنسان القديم الطبيعة والحياة وحيداً، ساكناً الكهوف وحاملاً بين يديه بعض تلك الأدوات البسيطة التي صنعها مكملاً بها نقاط ضعفه البدنية، معتمداً على قدراته العقلية التي بدأت تتشكل فيها بذور معرفية. وفي ليلة مظلمة حين ضربت صاعقة شجرة يابسة واشتعلت فيها النيران أصابته دهشة أولى، وحين لم يجد تفسيراً لما حدث لجأ إلى خلق وعي بالقوة الخفية، وانتهى إلى تقديسها وعبادتها. وبدأت رحلة الإنسان مع التفكير متكئاً على الذهنية الخرافية في تفسير ما لم يستطع فهمه وإدراك آلياته. مع التطور واتساع خبرات الإنسان تحول التفكير من الاعتماد على التفكير الخرافي إلى التفكير العلمي. ولكن هل انحسر التفكير الخرافي في عقلية إنسان القرن الواحد والعشرين بعد الميلاد؟ أم أنه كما قال الدكتور عبد المحسن صالح في مقدمة كتابه الإنسان الحائر بين العلم والخرافة «أن لكل عصر خرافاته ولكل بيئة أساطيرها»[1]

الذهنية الخرافية والصراع

من أجل مواجهة المشكلات والتحديات يتولى العقل الفهم والتحليل وإيجاد الحلول والتخطيط لها فيما يسمى بالتفكير. تلك العملية الذهنية تخضع للمؤثرات الخارجية التي تحيط بالفرد من محددات مجتمعية وثقافية وهوياتية وكل ذلك يؤثر في منطقية التفكير والذي حين يغيب يبدأ الفكر الخرافي يسيطر على منتجات العقل من الأفكار فقد عرف مالينوفسكي[2] الخرافة «أنها مجموعة من الأفكار أو الممارسات التي لا تستند إلى أي تبرير معقول ولا تخضع لأي مفهوم علمي سواء من حيث النظرية أو التطبيق»[3]. من هنا نستنبط شكل الذهنية الخرافية التي تعتمد اعتماداً رئيسيا على الرصيد المتوارث من الخرافات داخل المجتمع وتحافظ على دورها في تسيير التفكير والسلوك الجمعي لأفراده. ورغم أن التفكير الخرافي هو الصورة الأولى التي تتطور منها التفكير العلمي إلا أن الأخير لم يستطع أن يكون بديلاً له بشكل كامل ويقصيه من حاضر البشرية. بل تحولاً إلى نقيضين يتصارعان في السيطرة على ذهنية البشرية، وأصبح لدينا كفتان تتحكمان في ميزان العقل. ومدى ثقل كل واحدة منهما في ثقافة مجتمع يشير إلى مدى تطور هذا المجتمع وأين يقف من الحضارة البشرية الحديثة.

الذهنية الخرافية ولعبة القداسة

ينتشر التفكير الخرافي حين يقف العلم عاجزاً عن إيجاد التفسيرات، فحين واجه الإنسان الرعد والبرق قديماً وعجز عن فهمها فُسرت على سبيل المثال في الحضارة اليونانية بأنها ضربة غضب من زيوس على الأرض، وتشابه هذا التفسير في الكثير من الحضارات الإنسانية قديما. انسحب ذلك التفسير على الكثير من الظواهر الطبيعية التي اعتبرها الإنسان في حينها صورة من صور الغضب أو الرضا المقدس للآلهة.

وبتأمل بسيط لواقع الحال حالياً يطرح السؤال نفسه ما الذي تغير؟! بنظرة سريعة على شبكات التواصل الاجتماعي وملاحظة المجتمع ستجد أن هناك من يتعامل مع الزلازل والبراكين والكوارث الطبيعية على أنها تعبير عن غضب أو رضا الله، يختلف الاختيار بين الغضب والرضا طبقا لموقع الحدوث، إن ضربت بلاد المسلمين فهي اختبار من الله لإيمانهم وتخفيف من ذنوبهم، وإن ضربت غير المسلمين فهي عقاب من الله.

إن منشورات تفسير الحوادث والمرض وغيرها بأنها انعكاس للغضب أو الرضا الإلهي منتشرة بصورة مؤلمة، والآفة الكبرى حين تجد أساتذة جامعة -المفترض أنهم رجال التفكير العلمي والمنطقي والإيمان بالسببية - تمتلئ صفحاتهم بتلك الخرافات شبيهاتها من خرافات الثقافة التي ينتمون إليها. فقد سلموا مفاتيح أفكارهم لرصيد الخرافة الكامن فيهم حتى أنني يوماً ما شاهدت فيديو لأحد الأساتذة وهو داعية ومفكر ورجل سياسة وكان يوماً وزيراً في إحدى الحكومات العربية استعرض فيه تفسيره لتأخر العرب والمسلمين في الصناعة وإنتاج العلم في حين أن الغرب يصنع وينتج العلم ونحن نستهلكه فقال «ما لهذا خُلقنا» وأضاف أن الله جعل من العرب أصحاب فكر وهداة «أساتذة»، وجعل من الآخرين «تلاميذ» يهتدوا بهُدانا وعليهم العمل.

عند بداية أزمة جائحة الكورونا حين عكف العلماء داخل معاملهم يجترون رصيد المعرفة و يبحثون ويستكشفون و يجربون بحثاً عن ملامح لفهم الفيروس ووضع مخطط علمي

لمواجهته في حربه الشرسة المهددة للوجود الإنساني، خرج علينا الكثير من رجال الدين ليس فقط الإسلامي بل في كل الأديان والملل عبر الكرة الأرضية وبجولة بسيطة عبر اليوتيوب ستجد الكثير من المقاطع لهؤلاء وهم يمارسون ألاعيبهم وأسحارهم كما مارسه سحرة فرعون على عقول الناس، ويعزفون سوناتا الجهل والخرافة على أوتار القلوب الخائفة والمرتعبة، وأطلقوا التفسيرات المقدسة التي غمسوها في تفسيرات مشوهة للمشيئة الإلهية. انخرط في هذا التيار الخرافي الجارف حتى بعض رجال العلم أنفسهم وبدأ بعضهم مستخدما الذهنية الخرافية الراسخة في موروثه الخفي وأطلق التفسيرات والتعليلات والتحذيرات الخرافية ووصفات العلاج والمقاومة التي لا تستند إلى بحث ولا على رؤية علمية ذات منهجية سليمة. الأزمة الكبرى أننا واجهنا مجتمعات تفتح عقولها على تلك الخرافات وتعاملت معها على أنها حقائق.

إنها طبيعة الإنسان يهرب إلى الشعور بالأمان، حتى لو كان شعوراً مبنياً على أوهام لا منطقية وخادعة وتلك الثغرة الكبيرة في النفس البشرية التي تنفذ من خلالها أوهام القداسة للكثير من الخرافات والتي ترسخ وتتحول إلى مؤثر قوي في السلوك الجمعي مما يؤثر في علاقة المجتمع مع التطور والحضارة.

الذهنية الخرافية والثقافة العربية

نواجه في ثقافتنا العربية واحدة من أصعب الإشكاليات التي تعمل كأكياس الرمال المبتل والمربوطة في العقل العربي - ليس العقل العربي فقط، بل الكثير من الشعوب التي ما زالت تكافح من أجل الخروج من محنة التأخر الحضاري لكني أركز على العقل العربي بخصوصية انتمائنا للثقافة العربية - وتلك الإشكالية تتمثل في بقاء الذهنية الخرافية مسيطرة على طريقة التفكير في المجتمعات العربية.

ما زالت الذهنية العلمية تكافح تجذر الفكر الخرافي في العقل العربي وتحاول الارتقاء والخروج من ذلك النفق المظلم الذي بقينا فيه مئات السنين.

إن التطور التكنولوجي والعلمي الحديث يمثل ضاغطاً كبيراً على الثقافة العربية. وبقاء الفكر الخرافي مسيطراً على العقل العربي هو إجهاض لكافة محاولات التعلق بقطار الحضارة الحديثة وزيادة الانغماس في وحل الماضوية المظلم. ينتشر في الكثير من المجتمعات العربية الإيمان

بالسحر والجن والأعمال وقدرتها في تحديد مصير وسلوك الإنسان ويفسر على سبيل المثال المرض النفسي على أنه مس من الجن وتنتشر فكرة العفاريت والأشباح. حتى خرج علينا مؤخراً أحد المنتمين للأزهر الشريف برؤية كاشفة لمستوى توغل الفكر الخرافي القائم على تراث ماضوي مهين للعقلية العلمية والإنسانية حين تحدث أن الجن يسرقون الأموال من البيوت! هذا يفسر لنا ما أشارت إليه دراسة أكاديمية، أعدها أستاذ الثقافة الإسلامية بالجامعات العربية والسودانية الدكتور إسماعيل محمد الحكيم بعنوان (الإسلام ومحاربة الدجل والشعوذة) - «أن العالم العربي ينفق سنوياً أكثر من خمسة مليارات دولار على أعمال الدجل والشعوذة».[4] هل يمكن أن نقول إن المجتمع الغربي، أو اليابان، أو كوريا الجنوبية، أو غيرها من المجتمعات المتحضرة خالية من الذهنية الخرافية؟ بالتأكيد لا فهي ذهنية موجودة في كل الثقافات والمجتمعات، ولكن العبرة هنا بالنمط السائد، وحجم تأثير ذلك النمط على حركة العلم والمعرفة داخل المجتمع، وانعكاس ذلك على سلوك الناس. فالذهنية الخرافية تكاد تكون نمط سائد المجتمعات العربية ويصل لحالة النمط المتفشي في بعضها، عكس المجتمعات المتقدمة التي يتضاءل فيها حجم وأثر الذهنية الخرافية أمام الذهنية العلمية.

هل ثمة أمل؟

التغير سمة الوجود وهو حتمي فليس هناك شيء ثابت فكل ما في الكون مآله إلى السيرورة. ما لم ننتبه ونتدخل بصورة فاعلة في تغيير نمط الذهنية الخرافية المسيطرة على المجتمعات سيتغير العالم من حولنا بسرعة الضوء ونحن سنتغير أيضاً، ولكن بسرعة

السلحفاة. التغيير بدأ من القاعدة من إرادة سياسية ومجتمعية حقيقية للتخلص من هذا الركام والطريق ليس غامضاً، بل هو واضح وضوح الشمس. بناء أجيال جديدة على ذهنية علمية وعقلية ناقدة فالمصادر الأولى للمعرفة للطفل هي الأكثر أهمية في توجيه ذهنيته وهي تعتمد على المصادر اللاصقة لوجوده في بدايات التكوين وهي الأسرة ثم المجتمع. لذلك وجود الإنسان في مراحل تكوينه الأولى في بيئة ذات عقلية خرافية يؤسس بشكل كبير لبناء ذهنية خرافية. والانسلاخ من تلك الذهنية يزداد صعوبة مع الوقت. خطوتنا الأولى تبدأ من التعليم، وهذا الطرح ليس بفريد ولا جديد، الجميع يعلم ذلك ولديه قناعة، ولكن هل تكفي القناعات؟ وهل لدينا إرادة حقيقية للتخلص من الانتظار لما تقدمه المجتمعات المتقدمة لنا من علوم ومعرفة ونتحول إلى براح صناعة المعرفة؟ ■

الهوامش:

1. د. عبد المحسن صالح - الإنسان الحائر بين العلم والخرافة (الكويت - سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - 1979 - ص9).
2. مالينوفسكي (1884 - 1942م): عالم أنثروبولوجيا بريطاني الجنسيّة بولنديّ الأصل، يعدّ مؤسس الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة بناءً على دراساته التي أنجزها حول شعوب المحيط الهادي - أهمّ مؤلّفات مالينوفسكي «الجريمة والعرف في المجتمع البدائي» (1926)، «الأسطورة في علم النفس البدائي» (1926)، «الجنس والكبت في المجتمع البدائي» (1927)، «النظريّة العلميّة للثقافة" (1940)، «السحر والعلم والدين» (1948).
3. وفاء عبد الكريم الزاغة - التفكير الخرافي والمفاهيم العلمية الخطأ (الأردن - دار ديبونو للنشر والتوزيع - 2010م - ص26).
4. ابراهيم النجار - 5 مليارات دولار فاتورة «الدجل والشعوذة" في الوطن العربي - بوابة جريدة الأهرام الإلكترونية - مصر - 2015م.

الحكاية الشعبية وأهميتها في التراث

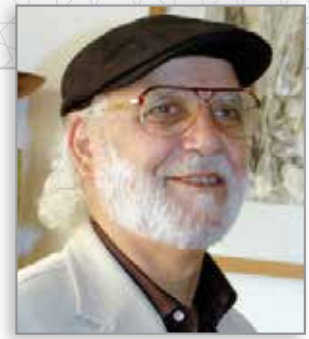

علي كنعان
كاتب سوري مقيم في الإمارات

تشكل الحكاية الشعبية ركناً أساسياً في التراث الأدبي وهي من أهم الثمرات في فن السرد الشفاهي، ولها أهميتها في المجالس والأسمار، كما كان لها دور تربوي بارز ومحبب لدى الكبار والصغار في الأسرة والمجتمع. وكثير من الحكايات تتقاطع، ولو بلمحات رمزية، مع وقائع التاريخ وأحداثه الغابرة، وإن لم تستطع ذاكرة الرواة أن تعين لها تاريخاً محدداً، لكن بلاغة السرد وصدق النبرة اللغوية وطلاقة الخيال تجعل موضوع الحكاية قريباً من الواقع، من دون أن تتخلى نهائياً عن غرائبها التي تلامس أحياناً حدود الأسطورة. ومن أهم خصائص الحكاية الشعبية أنها تنتقل ومن مجتمع إلى مجتمع آخر، ومن مكان إلى مكان بعيد عن منشئها الأصلي، إما مع القوافل المترحلة بين المدن والأمصار في أحوال السفر والتجارة، أو في حالات الهجرة والتشريد والحروب.

ونرى في الإمارات اهتماماً كبيراً بأحاديث الكبار ورواياتهم، سواء في المؤسسات الثقافية أو في المجتمع الأهلي، كما أن الشاعر الراحل أحمد راشد ثاني كان له دور مهم في تجميع الحكايات الشعبية ونشرها في أكثر من كتاب، بدأها بكتاب «حصاة الصبر»، ثم نشر بعده «دردميس»، ويقول إنه لم يجد هذه المفردة في المعاجم ولا في اللغة الدارجة بين الناس، لكنه بالمصادفة انتبه إلى كلمة «طرطميس» يتداولها أبناء العراق والشام، ونحن في بلاد الشام نقول «طلطميس»، بمعنى الغبي أو ضعيف الوعي قليل الانتباه والحضور. وكتاب «دردميس» يتضمن 8 حكايات مع شروحها، إضافة إلى مقدمة مهمة يقول فيها: «في المرحلة الشفاهية من حياة المجتمعات كان للسرد دوره الأساسي والمهم، وسواء كانت هذه الحكايات خرافية أو حول أبطال شعبيين، كسيرة عنترة أو السيرة الهلالية، أو الحكاية الشعبية (غير الخرافية) أو تلك التي يمكن إدراجها في ما يسمى بـ«التاريخ الشفهي»، فكل هذه المظاهر والأشكال من السرد الشفاهي تؤدي أدواراً مهمة وعضوية في المجتمعات التي لم تترسخ فيها الكتابة ولم تسد، حيث ينظم السرد في هذه المجتمعات الخبرة والمعرفة...»

وهكذا نرى أن الحكاية الشعبية حملت، بمختلف أشكالها وموضوعاتها، خبرات الإنسان وأحلامه وهواجسه وتحدياته، وذلك قبل انتشار القصة أو الرواية على نطاق واسع بفضل اختراع المطبعة.

أحمد راشد ثاني

والشاعر أحمد راشد يأسف لأن أشكال السرد الشفاهية لم تكن تلاقي الاهتمام الكافي قبل ثمانينيات القرن الماضي. ويشير إلى مصادفة طريفة حدثت له في حدود عام 1983 وهو طالب في الجامعة، حيث كان مدعواً مع بعض زملائه لسهرة وداعية لأحد أساتذتهم في كلية الآداب. وأثناء السهرة لاحظ أن هناك علبة «كرتون» أعدها الأستاذ المغادر لتلقى في حاوية النفايات. ولما سأل الأستاذ عما فيها، أجابه: مجموعة من المقالات عن «التراث الشعبي» وحكايات «شعبية» كنت أطلب من تلميذاتي تدوينها ضمن الواجبات الدراسية الحرة، إن كنت تريدها فهي لك، فلم يتردد أحمد بأخذها.

الجهود التي بذلها الشاعر الفقيد، إلى جانب أدباء آخرين، تبدو كبيرة ومضنية، سواء في جمع هذه الحكايات وترتيبها أو في شرح كلماتها الغامضة. وقد خصص صفحة اليسار الأولى لعرض مقطع من الحكاية كما رواها السارد، ثم يبدأ بنشرها كاملة على الصفحات اليسرى، بينما يضع الشروح في المقابل على الصفحة اليمنى. وبهذه الطريقة جعل الحكايات مفهومة لكل قارئ عربي. وكانت الحكاية الأولى بعنوان «اليلب»، أي «الجلب». وهي عن امرأة تزوجت ولم ترزق بطفل طوال سبع سنوات، وكانت تحلم دائماً بطفلة تسميها «اليلب»، وقد تحقق حلمها بإنجاب طفلة أسمتها «اليلب» كما كانت تحلم. وبعد سنوات أخذت تذهب مع ابن عمها لتتعلم عند المطوع الذي تكشف الحكاية أنه ساحر. وفي أحد الأيام، رأته يقتل ابن عمها، من دون أن تجرؤ أن تخبر أحداً بذلك. ويبدو أن حادثة القتل حيلة فنية لاختبار البنت، لأن الساحر

يسألها عدة مرات عما رأت، وهي تؤكد له أنها ما رأت إلا ذرور العطر على رأسه. ويلجأ الساحر إلى تصرفات أقسى ليجبرها على تبديل رأيها، ويلقي بها فوق غافة. وشاءت المصادفة أن أميراً يخرج للصيد فيكتشف أمرها ويأخذها معه إلى القصر ليتزوجها بعد رفضه الزواج من بنت عمه، وتنجب اليلب منه ولدين وبنتاً. ويعود (المطوع الساحر) ليخطف أولادها واحداً بعد الآخر، وهي صابرة لا تتكلم رغم أن المحيطين بها اتهموها بقتل أولادها. لكن زوجها الأمير ظل يعاملها بالحسنى وكأنه واثق من معدنها الطيب. وتابع أهل الأمير الضغط عليه حتى أجبروه على طردها والموافقة على أن يتزوج ابنة عمه. وعندئذ يظهر الساحر ومعه الأولاد وقد كبروا وتعلموا، وفي حفلة العرس يتعرف أبوهم عليهم ويكتشف الحقيقة فيحضر أمهم وتنتهي الحكاية باجتماع العائلة معاً في جو من التفاهم والمحبة والحياة السعيدة. لقد أطلت بسرد بعض تفاصيل هذه الحكاية لأشير إلى الرسالة التربوية التي تكنها الحكاية الشعبية، وهي تزرع في نفوس الصغار والكبار قيم الصبر والصدق والمعاملة الحسنة.

والحكايات السبع الباقية ومنها (ابن الحطاب) وهو شاب يرغم والده المسكين على الذهاب إلى حاكم البلاد ليخطب له بنته، متجاوز الفرق الكبير بينهما. وتكشف الحكاية عن ذكاء الشاب في حل اللغز الذي اشترطه الحاكم على الحطاب، كما أن فروسيته وشجاعته ومروءته تجعل الفتاة تتعلق به، بعد أن رفضته في البداية لأنه ابن حطاب، ووصفته بعبارات نابية ومسيئة. لكن تسلسل الأحداث كشفت لها بالتجربة الواقعية الحية أنه أفضل من ابن عمها وأشجع، وبالتالي آثرت مكارم الأخلاق على القرابة والنسب. وكذلك نجد في حكاية (الطير والعقد) أو (الصندوقان) أو (المذبوح) وبقية الحكايات.

وإذا تأملنا بدقة وإمعان تفاصيل الحكاية الشعبية ودلالاتها الفكرية والنفسية ومغزاها التربوي والأخلاقي، يتبين لنا أن أجدادنا القدماء كانوا يتمتعون بحكمة فطرية، مثلما امتازوا بإبداع شعري تراثي جميل، بداية من المعلقات. وتركيز الحكاية على الخاتمة السعيدة، بعيداً عن كل ما تضمنت من عنف وقسوة في بداياتها، يريح نفسية الطفل ليستسلم لنوم هادئ خال من الكوابيس والمشاهد المخيفة. وهذا يؤكد أن الذين أبدعوا هذه الحكايات كانوا على دراية بحالة الطفل النفسية وهم حريصون على مراعاتها. وهناك مزايا أخرى لا تقل أهمية عن الحالة النفسية، وهي أن الحكايات الشعبية بمجموعها تؤكد على مكارم الأخلاق، ليس بطريقة إرشادية مباشرة، إنما بفضل نسيج الحكاية وجمال الخيال وفن السرد الذي لا يخلو من جاذبية ساحرة. وهذا يدلنا على أن تجارب الحياة، بكل ما فيها من مصاعب وأخطار، لا تقل معرفة وفائدة واستنارة عما تقدمه مناهج التربية والتعليم في عصرنا.

ومن هذه السمات والخصائص الإيجابية، نكتشف مدى أهمية جمع هذه الكحايات الشعبية، لأنها تشكل أساساً أدبياً بليغاً في خزانة التراث، وهي تسهم في بناء الهوية الوطنية ودعائمها الفكرية وتقاليدها الأخلاقية. ولا شك أن الجانب السحري المبثوث في بعض الحكايات يرمي إلى التشويق وإطلاق خيال الطفل، ولفت انتباهه إلى أن الحياة فيها غرائب وخفايا كثيرة، وعلينا أن نواجهها بوعي وشجاعة وثقة، من دون تردد ولا إحجام ■

الفائزة بجائزة إحسان عبد القدوس

مفارقات الاغتراب في «حالة شجن»

أحمد حسين حميدان

قبل أشهر قليلة نشرت الدار الثقافية للطباعة والتوزيع رواية حالة شجن للروائي أحمد رجب شلتوت، وهذه الرواية فازت بجائزة إحسان عبدالقدوس كما ورد على صفحة غلافها، وهي من الناحية الفنية تنتمي إلى السرد الروائي القصير الذي اشتق اسمه من الكلمة (نوفيلاّ) أي (الجديد) في معناها اللغوي و(الرواية القصيرة) في معناها الاصطلاحي..

ويبدو أن الروائي أحمد شلتوت اضطلع على العناصر الفنية لهذا الفن السردي المستحدث لأنه أنجز سياقه الروائي على هدي معظمها، فلجأ إلى تقسيم روايته إلى مقاطع بعناوين من حروف اللغة العربية لأن الرواية القصيرة لا تحتوي على فصول، وقدم فكرتها المحورية على حدث رئيس يقوم على فقدان شقيق الراوي (غريب) وبذلك استطاع أن يشغل القارئ معه في عملية البحث وهي لعبة ذكية منه أكسب سياقه التشويق والإثارة، التي يصبح المتلقي جزءاً من بنية سياقها السردي من دون أن يدري ويمضي مع الراوي من مشفى إلى مشفى ومن قسم شرطة إلى قسم شرطة من دون العثور على أي أثر لأخيه المفقود (غريب) ويستثمر الكاتب راويه والشخصيات التي يلتقيها في تنقلاته ليضيف أحداثاً فرعية تساهم في إغناء حدثه الرئيس وعالمه الروائي معتمداً في ذلك على تقنية التذكر، فيمضي من خلال صديقه الذي شاركه الخدمة العسكرية إلى بعض ما حدث في حرب تشرين . أكتوبر 1973 ولا يفوته الحديث عن سماعه لغناء الشيخ إمام وقصائد أمل دنقل ويتذكر الرواية الأولى التي قرأها حين يصادف في المستشفى صديقه الذي دلّه عليها أيام الدراسة الجامعية، ومن خلال الحوار تارة والتداعيات الداخلية تارة أخرى يضيء مأساة شخصية أخيه (غريب) الذي نهض السرد الروائي من خلال البحث عنه، والذي يأتي اختيار اسمه على دلالة مقصودة فرواية حالة شجن استطالت قامتها بمفارقات الغربة والاغتراب التي عاشها غريب في سفره وتنقلاته خارج وداخل مصر بعد أن غرق في أزماته الحياتية محلياً وعربياً، فتأخذ معاناته أبعاداً قومية وقطرية ويقفل عائداً من رحلته بالخيبة فلم يعثرحتى بعد سفره على أيّ فرصة عمل وحين يعود إلى مدينته ويصبح فيها بائعاً متجولا تطارده الشرطة من مكان إلى آخر ثم يختفي ولا يجدون له أثراً في مكان، وتفشل خطوبته الأولى بعدما طالت مدتها من دون أن تكلل بالزواج بسبب ضيق أحواله المادية وكذلك حال خطوبته الثانية بقيت قائمة لكن من دون زواج أيضاً، فتبدو الحياة عبر السياق الروائي منزوعة من عناصر الخصوبة وتنمو جراء أزماتها الحياتية المزمنة الغربة والاغتراب عبر الأمكنة كلها التي يتنقل ضمنها الحدث الروائي بلا حدود فاصلة بينها بعدما عمّت فيها كل أسباب المعاناة، وبذلك جسد الكاتب مقاصد ودلالات اسم بطل روايته المفقود (غريب) وتقمص شخصية راوي الحدث ليكون تبئير السرد من الداخل معتمداً بذلك على

الراوي المشارك الذي يتسنى له التحرك ضمن الفضاء الروائي بحرية وحيوية تساعد في تحقيق ما يتطلبه ويبتغيه الخطاب الروائي على نحو يتضافر فيه مع الأنا الضمنية الثانية للكاتب التي ينجز من خلالها صياغة سياقات السرد وسيرورة حدثها حسب تعبير وأين بوث، وهو ما قام به الروائي أحمد رجب شلتوت في روايته (حالة شجن) ملغياً المسافة بينه وبين الراوي جاعلاً إياه الشخصية الرئيسة في سياقه الروائي ومن حوله الشخصيات الأخرى المرافقة له والمؤدية معه ما يخدم الفكرة الروائية وحدثها، واختارلهم اللغة المناسبة لمستوياتهم وإمكاناتهم وقدراتهم الثقافية والمعرفية وحرصاً منه على ذلك نجد في بنية السرد لديه وفي العديد من الحوارات التي قامت بين الشخصيات استخدم المفردات المحكية باللهجة العامية المصرية، رغم أن ذلك أتاح له فرصة كان بإمكانه أن يستفيد منها في تفعيل دور هذه الشخصيات وإلقاء مزيد من الضوء على دواخلها النفسية ليبين آثار مجريات الأحداث عليها وإبراز ما يعتريها، ويكشف عبر المونولوج وتداعياته الداخلية الطارئ والجديد من مواقفها الداخلية، إلا أن كل ذلك أبقاه حكراً على الراوي المشارك الرئيس في عملية البحث عن شقيقه غريب والذي رصد أحمد شلتوت عوالمه السيكولوجية على نحو بارع وخصوصاً وهو يصور ردود فعله الداخليه حين أخبروه في المستشفى وصول شخص إليهم فارق الحياة جراء ما أصابه من طعنات، فصوره وهو يُلقي بنفسه على الجثة وهو يردد بذروة انفعاله التي بلغت به درجة انفصال الذات عن فعلها: صرخت ملتاعاً، قفزت معانقاً الجثة، انكفأت عليها، واصلت الصراخ، صرختي كأنها حُمِّلت بكل عذابات غريب، ولما حاولت تقبيل الوجه شعرت بالشارب الكث.. انتهت، أخي غريب لم يكن ذا شارب، أدرت الوجه، لم يكن هو.. وحين ارتطمت بأرض المستشفى سمعت صوتي يهتف: (ليس هو.. ليس هو..) ص61 هكذا استفردت الشخصية الساردة برصد عوالمها الداخلية مستغلة انعدام المسافة بينها وبين الكاتب جاعلة المونولوج في البنية الروائية لها وحدها، مبقية الديالوج.الحوار.لسائر الشخصيات الأمر الذي نجم عنه تعاظم الجملة الوصفية التي لم تحط بأكثر من إبراز الملامح الخارجية لها ولردود الأفعال على سياق الأحداث فيها التي تبلغ حد الغياب لبعض شخصياتها وخصوصاً النسائية منها فعلى امتداد السياق لم نجد أية ردة فعل من خطيبة غريب الأولى سوى البكاء عليه رغم فسخ الخطوبة التي دامت بينهما فترة طويلة ورغم علمها بخطبته فتاة غيرها وقعت معه في العلاقة العاطفية الحرام في وقت باتت فيه على عهدة زوج آخر. وفي وقت باتت فيه المرأة على حال متقدمة من الوعي بعدما أضحت في زمن عمومية التعليم والمعرفة وعصر التقدم العلمي والتكنولوجي . وهذا من المفترض أن يميز بين سوية الأم التي اختلف زمنها كثيراً عن زمن أبنائها من الشباب والبنات ولعل الكاتب أحمد رجب شلتوت انتبه إلى ذلك قبل أن تبلغ روايته سطر الختام فحرص أن يقرن فيه اقتراب ولادة زوجة الراوي النشط والدائب في البحث عن أخيه غريب ولهذه الولادة ومخاضها عالمها الرمزي وبُعدها الدلالي، وذلك بعدما كشف لنا من خلال عملية البحث ذاتها عن مدى الفساد الأخلاقي الضارب في البنية الاجتماعية المنتشرة في جوانب الحياة المختلفة، فأينما يتحرك الراوي يصطدم بالفساد المستشري في المخافروالأقسام والمستشفيات وصولاً إلى مجلس الشعب الذي مضى أحد أعضائه ليُخرج (غريب) من قسم الشرطة الذي اعترف بوجوده بعد إنكاره ذلك، وبسبب علاقته ومعرفته برئيس القسم يتم الإفراج عنه معاتباً ذويه لعدم انتخابهم له خلال الدورة السابقة. ووسط فرحة العائلة بالعثور على غريب وعودته وولادة زوجة أخيه يحضر الفرح، ولكن مشوباً بالحزن على وطن يأكل أبناءه بألوان من الفساد والبطالة والمعاناة المزمنة التي كانت قبلة الراوي في جحيمها البحث عن أخيه الغائب بينما كانت قبلة الكاتب في ذيّاك الجحيم البحث عن الوطن الذي يتقاذفه الغياب أيضاً متسائلاً بحرقة في السطور الأخيرة من روايته: (ماذا تعني كلمة وطن؟ هل تعني أرضاً.. هل تعني حدود مكان، أم حالة شجن؟) بهذه المرارة الدائرة بفلك الأسئلة المفتوحة على الغربة والاغتراب يأخذ أحمد رجب شلتوت قارئه من حالة شجن الخاتمة غير المنتهية ويرتدّ به بالتدوير إلى حالة شجن التي ابتدأ بها على غلاف روايته جاعلاً إياها المدخل المركزي والرئيس إلى حدثها للدلالة على استمراريته كما هو حاله ضمن الواقع المعاش تماماً ■

أحمد رجب شلتوت

* كاتب سوري مقيم في الإمارات

محمية كهف وادي سنور

حمادة عبد اللطيف

يقع كهف وادي سور على بعد 70 كيلومتر شرق مدينة بني سويف، و200 كيلو متر من القاهرة. ويمتد 700 متر في باطن الأرض بعمق 15 متر، واتساعه حوالي 15 مترًا. أعلن كهف وادي سنور محمية طبيعية سنة 1992م.

ويُعد "وادي سنور" المصدر الأساسي لخام الألباستر المستخدم في صنع التماثيل، والأواني والمزهريات والجعارين، وغيرها من الأدوات التي وجدت في مقابر الملوك والعامة في الحضارة المصرية القديمة، وظل محجرًا رئيسيًا لخام الرخام حتى سنة 1991م.

تم اكتشاف الكهف بالصدفة عن طريق عامل بمحاجر قريبة منه، إذ اعتاد عمال المحاجر على تفجير المناطق الصلبة من الارض الحجرية لاستخراج قطع الاحجار وخام الألباستر. في أعقاب أحد التفجيرات ظهرت فتحة عميقة أدت إلى كهف كبير في باطن الأرض، قدر علماء الجيولوجيا أنه يرجع إلى العصر الأيوسي الأوسط، بعمر يقترب من 40 مليون سنة، ليصبح أحد أقدم كهوف العالم المكتشفة، له مثيل واحد فقط في ولاية فيرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد وصف العلماء التكوينات الطبيعية للكهف بالنادرة جدا، مما جعل له أهمية عالمية وأصبح مزارا عالميا متفردا ثقافيا وعلميا للباحثين والدارسين في علم الجيولوجيا.

وكهف وادي سنور جزء من الصحراء الشرقية، يقع داخل هضبة المعاذة إلى الشمال من وادي سنور شرق بني سويف(70 كيلو متر من مدينة بني سويف)، وهي منطقة تغطيها صخور الحجر الجيري الإيوسيني.

يمكن الوصول إلى محمية كهف وادي سنور من القاهرة، عبر الطريق الصحراوي الشرقي بني سويف – المنيا، إلى قرية سنور شرق النيل، الكيلو 18، إلى الكهف على الطريق الصحراوي الممهد، الذي يُعرف بدرب الرخام البحري، أو درب الرخام القبلي لمسافة 50 كيلو متر، ويستلزم الوصول إلى الكهف عبور عدد من المدقات والكثبان الرملية بالسيارة لأكثر من ساعة، ثم تبدأ الرحلة سيرًا على الأقدام لنصف ساعة أخري.

كيف تكون الكهف

تكون الكهف نتيجة تفاعلات كيميائية للمياه الجوفية تحت سطح الأرض واختلاطها بالحجر الجيري، منذ العصر الإيوسيني أي منذ

حوالي 40 مليون سنة. هذه التفاعلات أنتجت رخام "الألباستر" وهو أجود أنواع الرخام في العالم، يستخدم في صناعه أواني الزينة. بالإضافة إلى أن الكهف به تشكيلات جميلة بين صواعد وهوابط وستائر وأعمدة، ويتكون الكهف من بهوين كبيرين يمين وشمال الفتحة المؤدية إلى داخله. بالجزء الأيمن منها تكوينات كلسية، تأخذ أشكالا مختلفة مثل الكمثري والجزري، والشعاب المرجانية، وكذلك مثل الستائر الكلسية النامية على أرضية جدار الكهف، وعند التقائها بالهوابط تشكل عموداً يشبه جذع الشجرة، ويأخذ الكهف ككل شكلًا هلاليا، وحوله طرق دائرية وجبال صخرية، ويقع الكهف في مكان التقاء واديين.

هناك رأي أخر يعيد إلى ما قبل العصر الإيوسيني الأوسط، أي منذ حوالي 47 مليون سنة، حين بدأت المياه بإذابة الحجر الجيري مكونة حفر إذابة صغيرة، قبل أن تتصل ببعضها البعض، ما أدي الى تكوين تجويف صغير، ظل هذا التجويف يكبر ويتسع. ومع غزارة المياه واستمرارها، نشأ الكهف وتدرج منسوب المياه فيه. ومع التغير المناخي وميله إلى الجفاف، بدأت المياه المخزنة في التسرب من خلال الشقوق، ما أدى إلى تكون بعض المحاليل والأحماض والرواسب التي تقف شاهدة على وجود فترات رطبة مرت بها أرض وادي سنور والصحراء الشرقية.

الكهف قوسي الشكل، يتوسط سقفه الفتحة المؤدية إليه، على بوابته سلم خشبي يمتد لثلاثة طوابق لأسفل، وعندها ينقسم الكهف إلى معرضين للظواهر الطبيعية، أحدهما على اليمين، ويُعد أروع القسمين لكثرة ما به من هوابط صخرية بللورات كرستالية نقية تتدلى من سقف الكهف، تأخذ الشكل المخروطي، كما تظهر به العديد من الصواعد، تشبه في شكلها الشعاب المرجانية، وحين تتلاحم هذه الصواعد مع الهوابط تكون أعمدة يختلف سمكها من مكان لآخر، أغلبها مغطى بنتوءات حادة تسمي بالقش الصخري. وعلي أرض الكهف صواعد وهوابط انهارت بفعل الجاذبية أو الزمن أو الإنسان وتفجيراته أثناء التحجير.

الجزء الأيسر من الكهف، أكثر انحدارًا وانخفاضًا من الجزء الأيمن، ما يدل على امتلائه بالمياه يومًا ما، ويتميز بالرواسب الناعمة وجمال الجدران وتداخل ألوانه، وفي كلا القسمين تنتشر رواسب من الطمي.

سد روماني

علي بُعد 2.5 كيلو متر جنوب شرق الكهف، عُثر على بقايا سد يعود للعصر الروماني، بارتفاع، يقع بين مرتفعين يصلان إلى 50 متر فوق سطح البحر. ارتفاعه ستة أمتار ويمتد بطول 71 مترا، حيطانه في الاتجاه الشرقي مبنية بالطوب الأحمر، بينما الناحية الغربية مبنية من الحجر الجيري، وتوجد في نفس الاتجاه أربعة حوائط تشكل دعامات للسد.

يحتوي السد على فتحتين لصب المياه التي كانت تتجمع خلفه، تصل المياه إلى الفتحتين عبر قناة ثم إلى كوتين رأسيتين تمتدان داخل الحائط المشيد من الطوب الأحمر المغطى بالألباستر، لمنع تسرب المياه.

كانت وظيفة السد احتجاز مياه السيول والأمطار، كما أنه حجز كميات كبيرة من طمي الجبال المحيطة، لاستخدامها في صناعة الأواني الفخارية، وقوالب الطوب الأحمر باستخدام فرن يبعد حوالي عشرين مترا عن جسم السد.

تعتبر محمية كهف وادي سنور، أحد الكهوف النادرة عالمياً، والفريدة من نوعها، فالكهف لا يوجد له مثيل في العالم سوى كهف واحد في ولاية فيرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وذلك لأن به تكوينات صخرية تكونت عبر ملايين السنوات، وهو مكان سياحي جذاب يضاف إلى الأماكن السياحية بمحافظة بني سويف، وهو كهف طبيعي كبير نتج من تأثير عوامل الإذابة للحجر الجيري الأيوسيني بمنطقة جبل سنور شرق النيل ببني سويف. يحتوي على أشكال مورفولوجية جميلة تعرف باسم "الأسبيليوتيم". ويوجد بالكهف نطاق كارستي كامل محفوظ بمنطقة المحمية، ينقسم إلى نطاق علوي من التربة، تعرف بـ"التيراروزا" ونطاق سفلي يكون كهف وادي سنور جزءًا منه، بما يحتوي عليه من أشكال ورسوبيات الكالسيت المختلفة.

يعلم الصبر والشجاعة

الصيد بالصقور رياضة تراثية أصيلة

سوسن محمد كامل

الصيد بالصقور من الرياضات الإماراتية التقليدية التاريخية، التي تعود إلى أكثر من 2000 سنة، حيث تعتبر جزءاً من التراث الذي تناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل. وتعد من أهم الرياضات التقليدية في دولة الإمارات العربية المتحدة.

وقد اشتهر الإماراتيون منذ قديم الزمان بحبهم للصقور وتوارثوا ذلك، وأصبحت لهم وسائل خاصة بهم للصيد بالصقور وتربيتها، ولعلها باتت من أحسن الطرق عندهم وأصبحت رياضة الصيد بالصقور هواية ورياضة، فهي مرتبطة بالقيم العربية النبيلة كالشجاعة والفخر والمجد، إضافة إلى صلتها بالحفاظ على الطبيعة والصيد المستدام، حيث أبدع أهل الإمارات في اصطيادهم لأغلى أنواع الصقور في العالم، التي تأتي مهاجرة من عدد من الدول البعيدة في هجرتها السنوية، فاستخدموا كل المهارات وفنون الصيد لترويض الصقر البري ليصبح صياداً ماهراً في غضون أيام، ومع انتهاء موسم الصيد كان يتم إطلاق الصقور إلى البرية مرة أخرى.

ولم تقف خبرة أهل الإمارات عند حد التدريب واستخدام الصقر في القنص فقط، بل تعدتها إلى حيث معرفتهم بالأمراض التي تصيب الصقر وكيفية علاجها بكل دقة. حيث تعلم رياضة الصيد بالصقور الصبر والجلد والقوة، وتعتبر لوناً من ألوان التغلب على الخصم بالذكاء والقوة، وتظهر ابن البادية بما وهبه الله من فطرة ومقدرة على تدجين هذا الطير الجارح وتأديبه... إنها رياضة تحظى باهتمام خاص من قيادة دولة الإمارات.

يبدأ موسم الصيد مع طلوع نجم سهيل مع عملية التحول التدريجي في المناخ وانخفاض درجات الحرارة،

الصيد بالصقور من الرياضات الإماراتية التقليدية التاريخية، التي تعود إلى أكثر من 2000 سنة، حيث تعتبر جزءاً من التراث الذي تناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل. وتعد من أهم الرياضات التقليدية في دولة الإمارات العربية المتحدة

حيث يلاحظ اخضرار النباتات الصحراوية وانخفاض درجة حرارة المياه، وتبدأ طلائع الطيور المهاجرة البرية والبحرية في الوصول إلى شواطئ الخليج العربي الدافئة، وتسمى عملية نزوح الطيور إلى هذه المنطقة بـ«اللفو»، كما تعرف عملية هجرة الطيور في طريق مناطق الإشتاء وعودتها إلى مواطن تكاثرها بـ«العبور» في دولة الإمارات العربية المتحدة كمثله في دول الخليج العربية في فصل الخريف، حيث تبدأ طيور الحبارى بالهجرة إلى مواطن تكاثرها من أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر، وينتهي في شهر مارس عندما تبدأ حرارة فصل الصيف، ومن أنواع الصقور «الصقر الحر» وهو ثلاثة أنواع «الحر الكامل» و«القرموشة» و«الوكري الحرار»، ويعتبر هذا النوع من الصقور من أشجع الطيور وأكثرها صبراً على الجوع والتحمل، سواء على الأرض أو في الجو ..أيضاً «الشاهين»، وهو من جنس الصقر الذي يفضل العيش على الشواطئ ويتغذى على طيور الماء، وهو من أسرع الصقور في أثناء الصيد لذا فهو مفضل من دون غيره، ومن أهم أنواعه «الشاهين الكامل»، و«الشاهين الوكري» ، و«الشاهين الخميس» ، و«الشاهين التبع».

وفي إطار الاهتمام المتزايد بالصقور والصيد بها للحفاظ على التراث والرياضات التراثية، أطلقت دولة الإمارات العديد من المبادرات لحماية هذه الأنواع من الصقور والطرائد الرئيسة للصيد بها من الانقراض والحفاظ عليها، جاء برنامج المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان لإطلاق الصقور، الذي يهدف إلى إعادة الصقور إلى بيئتها في مواطن تكاثرها الطبيعية، وإتاحة الفرصة لها للتكاثر، بما يسهم في دعم أعدادها في الطبيعة والحفاظ على رياضة الصيد بالصقور، كما يعد مشروع «البروفالكن لإكثار الصقور» في العين من المشاريع الرائدة للحفاظ على الصقور البرية في العالم، حيث يهدف المشروع إلى تحسين سلالات الصقور المتكاثرة في الأسر، وتقليل مخاطر انقراض الصقور البرية الناجمة عن صيدها في الطبيعة لاستخدامها في رياضة

الصيد بالصقور، وإتاحة الفرصة لها للتكاثر وزيادة أعدادها، كذلك وعلى مقربة من مطار أبوظبي الدولي يقع «مستشفى أبوظبي للصقور»، الذي يضمّ متحف الصقور وبيت الطيور، الذي تتمتّع الصقور في داخله بحريّة الطيران، إضافة إلى مستشفى آخر في دبي للغرض ذاته.

وجاءت فكرة إنشاء نادٍ لصقاري الإمارات، استكمالاً لجهود دولة الإمارات في الحفاظ على هذه الرياضة الأصيلة وحمايتها من الاندثار، حيث يعتبر الأول من نوعه في العالم العربي ليكون المظلة التي تجمع كل صقاري المنطقة، ويهدف النادي إلى نشر الوعي والارتقاء بمستوى رياضة الصيد بالصقور في دولة الإمارات ومنطقة الخليج العربي، بهدف المحافظة عليها ونشر أخلاقيات رياضة الصيد بالصقور والتعريف بصفات الصقور وعاداتها وأطوار حياتها وأنواعها ومواطنها الأصلية وهجراتها، ونقل إرث الأجداد هذا إلى الأجيال القادمة.

تعد «الحبارى العربية» من الطيور التي تعتبر من أجمل ما يصطادها الصقر، ويبلغ طولها 70 سنتيمتراً، ويأتي ريشها مرقطاً بالذهبي والأبيض والأسود والأحمر الذي تشوبه كدرة، ومن ميزاتها أن لها ثلاث أصابع في كل رجل يستدل بها على مكانها، ويظهر ذلك بسهولة فوق الرمل والأعشاب الطرية، وتعيش في سرب من 4 أو 6، وقد تصل أحياناً إلى عشرة طيور، وهي سريعة الركض على الأرض، قوية الاندفاع والانطلاق في الطيران إذا ما شعرت بخطر.

يتطلّب الصيد بالصقور الكثير من الصبر والتعاون بين الصقار وطيره، فكلّما تعامل معه بلطف، كسب ثقته وبدأ يطيعه، يبدأ الصقار البحث عن الحبارى منذ ساعات الفجر الأولى، حيث لايزال الجو بارداً، وقد يستمر إلى الساعة الحادية عشرة، ليعود من جديد بعد الظهر، ويقوم بتقصي آثار أصابع الحبارى والصقر فوق قبضته، وقد جوّعه ليلة الصيد ليقوى وينشط، وعندما يقف على أثر أو على عشب، ينزع الكمامة عن رأسه ويدعه يتحسس ريح الحبارى وينقض على فريسته، وتمتد فترة صيد الحبارى بين شهري نوفمبر إلى ديسمبر وهي فترة قصيرة.

وعرف عن الشيخ زايد مؤسس دولة الإمارات «رحمه الله» حبه وعشقه لهذه الرياضة، وكان خبيراً بأنواعها وخصائصها

وطبائعها، حيث قال عنها «إن الصيد بالصقور رياضة مهمة ووسيلة من الوسائل التي تعلم الصبر والجلد والقوة، كما أن هذه الرياضة تظهر ابن البادية بما وهبه الله من فطرة ومقدرة على تأنيس هذا الطير الجارح وتأديبه، يأمره فيطيعه وينادیه فيحضر مسرعاً إليه»... ويصف المغفور له بإذن الله الشيخ زايد في كتابه «تدريب الصقور: تراثنا العربي»، إحدى التقنيات الأساسية لاصطياد الطيور وتربيتها، حيث يقوم الصياد بحفر فجوة في الأرض ويختبئ بين الأشجار، ومن ثم يستخدم طائر الحمام كفخ لالتقاط الصقر. وبعد ذلك، يُخرج الحمامة من الفجوة ويتحكّم بتحركاتها من خلال ربط خيط برجلها، وحالما يثب الصقر على فريسته، يقوم الصياد بسحب الخيط برفق حتى يقع الصقر في قبضته. تستخدم الصقور عادة حاسة البصر القوية التي تمكنها من رؤية فريستها من ارتفاعات شاهقة، بسبب احتواء شبكية عينها على أعداد من الخلايا العصبية الضوئية أكبر بكثير عن مثيلها في الكائنات الأخرى، حيث تتجمع الخلايا الضوئية في مكان يُطلق عليه «البقعة الصفراء»، وتكون شدة الإبصار فيها أقوى ما يمكن وتمتاز بحدة النظر إذ يمكنها الرؤية أفضل بثماني مرات من الإنسان، كما أنها تستطيع أن تحدد مكان الفريسة من مسافة 100 قدم ورؤيتها من ارتفاعات عالية، وتطير معظم الصقور بسرعة تصل إلى 320 كيلومتراً في الساعة الواحدة.

يعتبر الصقر رمزاً للقوة والرفعة والصبر والشجاعة للشعوب العربية، حتى أصبح شعاراً للكثير من الدول العربية ومنها دولة الإمارات، وقد اعتمد المجلس الأعلى للاتحاد الصقر شعاراً لدولة الإمارات يوم 9 ديسمبر عام 1971م.

وتعد هواية رياضة الصيد بالصقور، من أشهر وأقدم الرياضات التي عرفتها الشعوب العربية، وكانوا يمارسونها لاصطياد الأرانب البرية وطيور الحبارى كوسيلة لتوفير الغذاء، إلى أن تطورت فيما بعد لتصبح رياضة تقليدية مقننة بضوابط قانونية، توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد وبعد ذلك انتقلت إلى البلدان الأخرى، وتحظى رياضة الصيد أو القنص بالصقور بشعبية كبيرة وتعد من الرياضات المحببة في دولة الإمارات، وتنال اهتماماً خاصاً من قبل صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة «حفظه الله»، وأصحاب السمو حكام الإمارات، كونها جزءاً لا يتجزأ من تراث الإمارات العريق ■

طرائق نغمية جديرة بانتباهنا - 2

مصطفى سعيد
عازف عود وباحث في علم النغم

ظهر في القاهرة على الأرجح، قبل القرن التاسع عشر الميلاديّ شكلٌ نغميٌّ عُرف بـ«الدور» لكنّه لم يُرصد في الكتب إلّا نهاية القرن التاسع عشر، حيث يذكر عثمان الجندي في مصنّفه «روض المسرّات في علم النغمات» أنّ أهل النغم أصبحوا لا يغنّون الموشّح كاملاً بل اقتصروا على دورٍ منها أو دورَين، فأصبحوا يسمّونها أدواراً بديلاً من موشّحات. لكنّ صاحب روض المسرّات كان قريباً جدّاً من زمن التسجيل، لذا فيبدو شرحه محاولة تقريبٍ بين الدور والموشّح أكثر منها شرحاً للواقع. فالواقع أنّ طريقة صياغة الدور نصّاً قد تكون قريبةً من أدوار الموشّحات، على أنّها أقرب للّهجة الدارجة منها للّسان الفصيح. أمّا التباين في النصّ الموسيقيّ، فلا أحسبه خفي عليه أو على أيّ معاصريه، فالموشّح تطوّرٌ للقول، وقالب القول أوّل ما وصلنا مدوّناً نصّاً موسيقيّاً طويلاً في مصنّف الشيرازي «درّة التاج» ونسب لحنه لصفيّ الدين الأرمويّ البغداديّ الذي عاش في القرن السابع الهجريّ، الثالث عشر الميلاديّ، والحقّ أنّ النصّ الموسيقيّ للقول لا يختلف كثيراً عن الموشّح، بل إنّ بعض الموشّحات التي تغنّى اليوم في الأصل من قالب القول لحناً، ودُوِّنَت كذلك، لكن غلبة الاسم وتطوّر الشكل جعل أهل النغم يعرّفونها بـ«الموشّح» وهما قالبان ثابتَا النصّ الموسيقيّ، على أنّ الموشّح أطول نصّاً وقد تحوي خاناتٍ أكثر في مقاماتٍ متفرّعةٍ عن نغمته الأصليّة، فهو إذن يتبع لحن النص، والكلام فيه يطول لكنّ الكلام هنا عن لحن الطريقة. قد يصحّ أنّ نصّ الدور، أدبيّاً، أُخذ عن الموشّح، أمّا من حيث صياغة النصّ الموسيقيّ، فإنّه ليس تطوّراً عن القول، بل أغلب الظنّ أنّه تطوّر الصوت المذكور في كتب النغم العبّاسيّة، أو تطوّر قوالب تطوّرَت عن الصوت ظهرت واندثرت من دون أن نسمع بها. فإذا علمنا أنّ الصوت بسيطٌ ونشيدٌ وصيحةٌ وختام، فالدور في شكله الذي استقرّ عليه مذهبٌ فتفريدٌ فترنّمٌ فمجاوبةٌ فصيحةٌ ففقلة. لكن، كيف وصل الدور لهذا الشكل المركّب؟

أوّل الأسماء التي نسمع عنها في الدور: محمّد عبد الرحيم، وأبو غنيمة والشلشلموني، أوّلهم عُرِف في كتب التنظير بـ«المسلوب». لكن إذا ألقينا نظرةً على المدوّنات الواردة في الجزء الثامن من «وصف مصر» نجد ألحاناً متشابهةً في الصياغة مع ألحان الجيل الأوّل هذا، لكن أحداً لا يسمّيها «دور»، لحنٌ بسيطٌ يقبل البناء النغميّ قد يتخلّله ترنّمٌ بسيطٌ أو مركّب على «آه» أو «يا ليل» إلخ.

لنترك التنظير وكتبه إلى ما ورد من أهل العمل: من أقدم الأدوار الواصلة لنا نسباً «يا حليوة يا مسلّيني»، نسبه أغلب أهل النغم للشيخ محمّد عبد الرحيم، وهو لحنٌ معروفٌ مشهورٌ لم يزل يُغنَّى بصيغته البسيطة إلى زماننا هذا، إنّما، هل هذا اللحن البسيط هو ما كان يغنّى؟ من تحليل ثلاثة تسجيلاتٍ لهذا الدور، أحدها على گراموفون نحو 1919، ورغم أنّه أحدث التسجيلات موضع الدراسة إلّا أنّه يرد أوّلاً بحكم أن المؤدّي «محمّد أفندي سالم الكبير» عرفه بعض الموسيقيّين بـ«العجوز» لأنّه معمّرٌ معاصرٌ للشيخ محمّد عبد الرحيم، وهو جيلٌ قبل الجيل الأشهر بإنتاج الدور «محمّد عثمان وعبده الحمولي»، سجّل محمّد سالم الدور وهو قرابة التسعين أمّا التسجيلان الآخران بصوتٍ واحدٍ هو «عبد الحيّ أفندي حلمي» أقدمهما على گراموفون 1910 والآخر بعده بسنةٍ تقريباً أي 1911 لشركة أوديون. تبدأ سائر التسجيلات بنفس المذهب كلاماً ونغماً، أمّا بقيّة بناء النصّ الموسيقيّ فتتباين بينهما بوناً لا يكاد السامع يدرك أنّهما عملاً واحداً.

من حيث النصّ المكتوب، للدور عدّة أغصان، فهو أطول كلاماً من الأدوار اللاحقة له في نهج جيل الحمولي ومن تلاه، لكن يبدو أنّ النصّ الكلاميّ الطويل ليس له إلّا نصّاً نغميّاً بسيطاً، لا يزيد على أربع جملٍ صغيرةٍ من مقام بيّاتي شوري تكوّن عبارةً أو فقرةً نغميّةً تصلح أن تكون مقدّمة عمل. يبدو أنّ صياغة العمل شكلاً تُرك تماماً للمؤدّي، إنّما وضع الملحّن مضمون العمل، كأنّ لسان الملحّن يقول: (أريده من هذه النغمة في هذا المسار وهذا الترتيب وصفه أنتَ شكلاً كما تشاء ويشاء لك صاحب التجلّي).

يقسّم محمّد سالم أغصان العمل بحيث يفرّع كلّ غصنٍ عن جملةٍ من جمل النصّ النغميّ الأربع، فيصيغ كلّ غصنٍ على فرعٍ

نغميّ ومقرٍّ مختلفٍ عن مقرّ النغمة الأمّ، فكلّ غصنٍ عنده في مقامٍ فرعيٍّ أُخذ من جمل اللحن الثابت جملةً بعد أُخرى فكأنّما فصّل الجمل الأربع وصاغ من تلك المقدّمة مقالةً نغميّةً، وكلّ ما خلا المذهب له، فقبل كلّ غصنٍ يصيغ ترنّماً على (آه) من المقام الذي سيتفرّع إليه حسب ترتيب الجمل. وهذا المنطق يتناسق مع ما أورده فيلوتو في شرحه لكيفيّة أداء العمل عند موسيقيّ أهل مصر في «وصف مصر». أمّا عبد الحيّ، فدور البطانة عنده أكبر، من حيث المجاوبة مع أفرادها، لكنّه لا يقطّع جمل الدور في الأغصان، أقلّه في تسجيل گراموفون، بل يلتزم نفس القسمة في سائر الأغصان فيكاد يعيدها بنفس المنطق مع بعض التنويع كلّ مرّة، أمّا في تسجيل أوديون، فيحاول التقطيع أوّلاً، ثمّ لا يلبس أن يعود لمنطقه الأوّل مع قلب وجه القرص، لكنّ الترنّم عنده ليسا فرديّاً، إنّما تجاوبه فيه البطانة بمنطق الدور في شكله الذي استقرّ عليه إبّان الحقبة الخديويّة، قد يرجع هذا الأداء عنده لأنّه اعتاد غناء الطقاطيق «رصيد العوالم»، ولعلّ هذا يفسّر خلط بعض المنظّرين بين القالبَين وظنّهم أنّ أصل الدور والطقطوقة واحد. أخذ جيل عثمان والحمولي هذا البرعم الذي لا دور للملحّن فيه إلّا المذهب وطوّروه من دون المساس بمنطق «لحن الطريقة» فرغم ثبات عناصر الدور: المذهب ثابت اللحن، إلّا أنّ ما تلاه في الدور:

التفريد حيث للمؤدّي أن يرتجل ما شاء استناداً على لحن المذهب.

الترنّم: لحنٌ لا كلام فيه يترنّم المؤدّي عليه في ليال أو آهات، هذا اللحن تؤدّيه البطانة أصلاً، وللمؤدّي المنفرد الردّ عليهم بما شاء من ارتجالٍ استناداً على هذا اللحن.

المجاوبة: تصاعدٌ نغميٌّ في المقام المُختار للدور والمقامات المجاورة له، تستلم فيه البطانة من المؤدّي المنفرد وتسلّمه، ينقلها هو من جملةٍ لأخرى بما يُفتح عليه من ارتجالٍ في ثلاث أو أربع جمل متصاعدةٍ تسلّم للصيحة.

الصيحة: أشبه بالترنّم لكنّها من أقصى المقام، إيذاناً بالختام، غالباً لا يكون عليها كلامٌ بل ترنّمٌ على «آه» وأحياناً ما تجاوب البطانة المؤدّي المنفرد في الصيحة سنداً له.

قفلةٌ: تُعيد المقام إلى بدايته بالنزول استيحاءً من جملةٍ في المذهب إلى مقرّ العمل وبها انتهاءه. والحاصل أنّ هذا الشكل لا يستند فقط على برعم الدور الذي كان قبل عصر رعاية الخديوي إسماعيل لأهل النغم، بل نهل أكثر ما نهل من حلقات الذكر، خصوصاً في منطق التصاعد والصيحة، لذا كان الدور أكثر ما جذب المشايخ المنشدين للغناء الدنيويّ في عصره فأضحت ألقاب أهل النغم بين شيخٍ وأفندي، «الشيخ يوسف المنيلاوي» «عبد الحيّ أفندي حلمي» دلالةً على البيئة التي خرج منها الموسيقيّ ما إذا كان تعلّم الغناء في إطارٍ دينيٍّ قبل انتقاله للغناء الدنيويّ فيكون شيخاً، أم أنّه تعلّم النغم خارج التلاوة وحلقات الذكر فيصبح أفندي. حتّى بعد انتهاء عصر الدور وأفول نجمه، نجد المشايخ في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين إذا طُلب منهم غناءً دنيويّاً يقع اختيارهم على الدور رغم انتهاء عصر تلحين الدور قبل أربعة عقود تقريباً حينئذ. إذن فالنصّ الموسيقيّ للدور تامّ البناء من حيث المضمون، لكنّه من حيث الشكل يعبّأ بارتجالٍ ومجاوبةٍ بين مجموعة المؤدّين بل وللحضور أيضاً تأثيرٌ قويٌّ في كيفيّة أداء هذا الشكل من الغناء، فهو شكلٌ دائم الحركة فإذا ثُبّتَ خرج عن هدفه ومضمونه من حيث التفاعل الكائن بين المؤدّي والمتلقّي. ذاع في عناوين كتب النغم بين القرن السابع الهجريّ والحادي عشر اسم «الأدوار» فلصفيّ الدين الأرموي كتاب الأدوار، كذلك الصيداوي والمارداني وقنطمير، يبدو أنّ تسميتهم أتت من تتابع النغمات، أو حتّى بعض المقاربة بينها وبين أدوار الفلك وطوالعه. فهل لما بالدور من تأثير المزاج في خروجه من المؤدّي للمتلقّي، فيخرج كلّ مرّةٍ في شكلٍ ومدة مختلفة، هل لهذا الطبع شيءٌ من اسمه؟

كيف تعامل مع التراث العجائبي والأسطوري؟

عقلانية ياقوت الحموي في (معجم البلدان)

عبد الله يحيى السريحي

كانت لدى أغلب الأمم والشعوب القديمة، ومن بينها العرب قبل الإسلام، تصوراتها الخاصة المستمدة من ثقافتها وتراثها الشعبي عن الكون وخلقه، وصورة الأرض والكائنات، وما تحفل به من العجائب والغرائب: عجائب البلدان والأقوام، وغرائب الأقوام، اختلط فيها الواقعي بالخرافي والأسطوري، وتأثربها التراث العربي بصورة عامة، والتراث الجغرافي بصورة خاصة، حيث أسهم في تعزيزوجودها الحشد الكبيرمن المرويات الإسرائيلية التي بثها الرواة الذين دخلوا في الإسلام وكانوا من علماء أهل الكتاب أمثال وهب بن منبه وكعب الأحباروغيرهما، وبعضها من الموروثات الشعبية الهندية والفارسية والإغريقية التي انتقلت إلى العربية عن طريق الأدباء والكتاب والمترجمين الذين ينتمون إلى تلك الثقافات والشعوب، ونمّتها مخيلة (القُصَّاص)، ووسعتها وغذّتها أخبار التجاروالبحارة والرحالة الذين رحلوا إلى أقاصي البلدان التي لم يعرف المتلقي عنها إلاّ القدر الضئيل من المعلومات، وانتقل قسم منها إلى كتب التفسيرعند تفسيرما ورد في القرآن الكريم من ذكرأحوال الأمم والشعوب السابقة للإسلام التي كذّبت رسلها، أوعند ذكرقصة أصحاب الكهف والرقيم، وخبرسد ذي القرنين، وشخصية الخضر التي وردت في القرآن الكريم..إلخ؛ وعجّت بها معظم كتب قصص الأنبياء[1]، كما اهتمت كتب التاريخ والأدب بهذا الموروث وبالعالم الغرائبي الذي يرويه الرحالة وأهل البحر، ثم تسللت، هذه الموضوعات إلى بعض المصنفات الجغرافية الرصينة[2].

ولم يقتصر بث تلك الآراء والأقوال في ثنايا بعض المصنفات الجغرافية، بل أفردت لها مصنفات مستقلة بها، ومنها:

- «كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزائره»، لبزرك بن شهريار الناخذاه الرامهرمزي، (القرن الرابع الهجري)؛ مطبوع.
- «الصحيح من أخبار البحار وعجائبها وما يتعلق بذلك»، لموسى بن رباح الأوسي (القرن الرابع الهجري)، ألّفه لكافور الإخشيدي، (المتوفى سنة 357هـ)؛ مفقود، نقل عنه ابن فضل الله العمري في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» معظم مادة الفصل الثالث «عجائب البر والبحر»[3].
- «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب»، لأبي حامد الغرناطي، (المتوفى سنة 565هـ)؛ مطبوع.
- «الاستبصار في عجائب الأمصار»، لمجهول، (القرن السادس الهجري)؛ مطبوع.
- «تحفة العجائب وطرفة الغرائب»، لعزالدين ابن الأثير الجزري، المؤرخ، (المتوفى سنة 630هـ)؛ مخطوط، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، رقم 499 جغرافيا، وأخرى بمكتبة آيا صوفيا (860)، وثالثة بالسليمانية بإسطنبول، رقمها (1007)، حصلت على مصورة الأخيرة بالإهداء من الأستاذ عادل عبد الرحيم العوضي، جزاه الله خيراً.
- «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، لزكريا بن محمد القزويني، (المتوفى سنة 682هـ)؛ مطبوع.
- «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر»، لشمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي، المعروف بشيخ الربوة، (المتوفى سنة 727هـ)؛ مطبوع.
- «خريدة العجائب وفريدة الغرائب»، لسراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر ابن الوردي، (المتوفى سنة 852هـ)؛ مطبوع.

وكانت تلك المرويات تتناسب مع ذهنيات العوام ومع الثقافة السائدة في بعض أقطار العالم الإسلامي خلال حقب تاريخه المختلفة.

النقد العلمي في تحرير مادة المعجم

وتجلت عقلانية ياقوت في تحليه بروح النقد العلمي في تحرير مادة المعجم[4]، وقدرته على تقييم المصادر ونقدها، وتمييزه بين الغث والسمين من الأخبار والروايات المتعلقة بمادة معجمه، فلا ينقل عنها من دون تثبُّت وتمحيص، بل يتثبت ويمحص ويناقش ويرجّح ويصحح خطأ ما تبيّن له خطأه، أو ينبّه على شكّه فيه، وقد يعلن براءته من بعض النصوص ذات الطابع الغرائبي أو الأسطوري التي نقلها عن المصادر السابقة لعصره، وكان يحرص

على ذكر بعضها من أجل ظرافتها، من باب (إحراز الفائدة) كما أكّد على ذلك عدة مرات، أو من أجل بيان مستوى تفكير أصحابها، وسأكتفي بعرض بعض النصوص الواردة في المعجم التي نقلها ياقوت عن المتقدمين من مؤلفي كتب الجغرافية وتواريخ البلدان وموقفه النقدي منها، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

ففي مقدمة المعجم: (في صفة الأرض وما فيها من الجبال البحار وغير ذلك) عند ذكر الأقوال المختلفة والمتضاربة للمتكلمين والفلاسفة والفلكيين عن هيئة الأرض وشكلها خلص إلى توثيق أقوال علماء الفلك المتميزين أمثال الخوارزمي وأبي الريحان البيروني، قال: «وأصلح ما رأيت في ذلك وأسدّه في رأيي، ما حكاه محمد بن أحمد الخوارزمي، قال: الأرض في وسط السماء، والوسط هو السّفل بالحقيقة، والأرض مدوّرة بالكلية..». وخلص إلى نتيجة عامة من تلك الآراء والأقوال: «والذي يعتمد عليه جماهيرهم، أن الأرض مدورة كتدوير الكرة، موضوعة في جوف الفلك كالمحّة في جوف البيضة، والنسيم حول الأرض جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك، وبينه الخلق على الأرض، وأن النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفّة، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل..». ونقل ياقوت في الباب نفسه بعض أخبار القصاص الخرافية عن هيكل الأرض وما تحتها، ومهّد لذلك بقوله: «وفي أخبار قصّاص المسلمين أشياء عجيبة تضيق بها صدور العقلاء، أنا أحكي بعضها غير معتقد لصحّتها». وختمها أيضا بالبراءة مما ورد فيها: «قال عبيد الله الفقير إليه مؤلّف الكتاب: قد كتبنا قليلاً من كثير مما حُكي من هذا الباب، وههنا اختلاف وتخليط لا يقف عند حدّ غير ما ذكرنا لا يكاد ذو تحصيل يسكن إليه، ولا ذو رأي يعوّل عليه، وإنما هي أشياء تكلّم بها القصّاص للتهويل على العامّة، على حسب عقولهم، لا مستند لها من عقل ولا نقل»

وفي رسم (بغداد) نقل عدة نصوص من كتب الجغرافيا الفلكية لتحديد موقع بغداد فلكيا، ومن بينها ما نُسب إلى بطليموس، قال: «وأما طولها فذكر بطلميوس في كتاب الملحمة المنسوب إليه أن مدينة بغداد طولها خمس وسبعون درجة وعرضها أربع وثلاثون درجة داخلة في الإقليم الرابع...». وعقّب ياقوت على النص بقول: «قلت أنا: ولا شك أن بغداد أحدثت بعد بطليموس بأكثر من ألف سنة، ولكني أظنّ أن مفسري كلامه قاسوا وقالوا..». وفي رسم (دُومَةُ الجندَل) عرض مختلف الروايات عن فتحها، ورجّح منها رأي البلاذري صاحب كتاب «فتوح البلدان»، قال: «وأهل كتب الفتوح مجمعون على أن خالد بن الوليد، رضي الله عنه، غزا دومة أيام أبي بكر، رضي الله عنه، عند كونه بالعراق في سنة 12، وقتل أكيدر لأنه كان نقض وارتدّ، وعلى هذا لا يصح أن عمر، رضي الله عنه، أجلاه وقد غزي وقتل في أيام أبي بكر، رضي الله عنه، وأحسن ما ورد في ذلك ما ذكره أحمد بن جابر

في كتاب الفتوح له، وأنا حاك جميع ما قاله على الوجه». في رسم (النِّيل) أورد ياقوت حكاية خرافية تناقلتها قبله بعض المصنفات الجغرافية عن قصة استكشاف منابع نهر النيل، وممن أورد تلك الحكاية المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم»[5]، وعقب عليها ياقوت بقوله: «قال عبيد الله الفقير إليه مؤلف الكتاب: هذا خبر شبيه بالخرافة، وهو مستفيض ووجوده في كتب الناس كثير، والله أعلم بصحته، وإنما كتبت ما وجدت». وفي رسم (طَمَام)، أورد ما قيل عن السيف المطلسم الموجود في ذروة جبلها الذي لا يستطيع أحد أخذه، ثم قال: «وهذا من الخرافات الكاذبة وإنما نذكر ما قيل للتعجب». وفي رسم (بَيتُ رَامَةَ): وهي قرية مشهورة بين غور الأردنّ والبلقاء، نقل ياقوت بسنده عن كتاب «فضائل البيت المقدس»، لأبي محمد القاسم بن أبي القاسم بن عساكر وصفا لِمَا كانت عليه الصخرة ببيت المقدس أيام النبي سليمان بن داود، وأنه كانت عليها قبّة ... وارتفاع القبّة ثمانية عشر ميلاً، وفوق القبّة غزال من الذهب بين عينيه درّة حمراء يقعد نساء البلقاء ويغزلن في ضوئها ليلاً، وهي على ثلاثة أيام منها، وكان أهل عمواس يستظلّون بظل القبة إذا طلعت الشمس، وإذا غربت استظلّ أهل بيت الرامة وغيرها من الغور بظلّها. ثم عقّب على النص بقوله: «هكذا وجدت هذا الخبر كما تراه مسنداً، وفيه طول، وهو أبعد من السماء عن الحق، والله المستعان».

ملاحظات على الأوهام

ومن بين المصادر التي أفاد منها ياقوت وتعامل معها بحذر: رحلتي أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد[6]، رسول المقتدر إلى بلاد الصقالبة، (جنوب روسيا)، ورحلة أَبي دُلَف مسعر بن مهلهل الخزرجي اليَنْبُوعي[7]، إلى الصين وإلى غرب وشمال إيران وأرمينية، لأن ياقوت لم يقف على معلومات كافية عن الروس والصين غير ماورد في الرحلتين، وكانتا تحتويان على بعض المبالغات والأخبار الخارجة عن نطاق العقل، وأبدى ياقوت ملاحظاته ونقده على بعض ما ورد فيهما، ومما نقله عن ابن فضلان وعقّب عليه بالنقد:

ففي رسم (إِتِل) نقل عنه ياقوت حكاية الرجل العملاق من قوم يأجوج ومأجوج الذي خرج إلى بلغارومات فيها، وأن ابن فضلان رأى عظامه، فكانت هائلة جدّا. وعقّب المؤلف على الحكاية بقوله: «قال المؤلّف، رحمه الله تعالى: هذا وأمثاله هو الذي قدّمت البراءة منه، ولم أضمن صحته. وقصة ابن فضلان وإنفاذ المقتدر له إلى بلغار مدوّنة معروفة مشهورة بأيدي الناس، رأيت منها عدّة نسخ». وقال في رسم (خُوارِزْم): «وقرأت في الرسالة التي كتبها أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد، مولى محمد بن سليمان، رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة ذكر فيها ما شاهده منذ خرج من بغداد إلى أن عاد إليها فقال بعد

وصوله إلى بخارى، قال: وانفصلنا من بخارى إلى خوارزم وانحدرنا من خوارزم إلى الجرجانية، وبينها وبين خوارزم في الماء خمسون فرسخاً». وعقب على النص بقوله: «قلت: هكذا قال، ولا أدري أي شيء عنى بخوارزم لأن خوارزم هو اسم الإقليم بلا شك».

وفي رسم الـ(رُوس) نقل ياقوت معظم نص رحلة ابن فضلان في وصف بلاد الروس، ووصف بلاط ملكها وديانتهم وعاداتهم في دفن موتاهم، واستهلها بقوله:

«وقرأت في رسالة أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر إلى ملك الصقالبة حكى فيها ما عاينه منذ انفصل عن بغداد إلى أن عاد إليها فحكيت ما ذكره على وجهه استعجابا به»، وختمها بقوله: «هذا ما نقلته من رسالة ابن فضلان حرفاً حرفاً، وعليه عهدة ما حكاه، والله أعلم بصحته، وأمّا الآن فالمشهور من دينهم دين النصرانيّة».

ومن الملاحظات التي أبداها ياقوت على ما ورد من أوهام ومبالغات في رحلتي مسعر بن مهلهل: استهلّ ياقوت مادة (الصِّين) بقوله: «وهذا شيء من أخبار الصين الأقصى ذكرته كما وجدته لا أضمن صحته، فإن كان صحيحا فقد ظفرت بالغرض وإن كان كذبا فتعرف ما تقوّله الناس، فإن هذه بلاد شاسعة ما رأينا من مضى إليها فأوغل فيها وإنما يقصد التجار أطرافها، وهي بلاد تعرف بالجاوة على سواحل البحر شبيهة ببلاد الهند يجلب منها العود والكافور والسنبل والقرنفل والبسباسة والعقاقير والغضائر الصينيّة، فأمّا بلاد الملك فلم نر أحدا رآها».

ثم قال: «وقرأت في كتاب عتيق ما صورته: «كتب إلينا أبو دلف مسعر بن مهلهل: وسرت من مدن السواحل إلى الملتان، وهي آخر مدن الهند ممّا يلي الصين وأوّلها ممّا يلينا وتلي أرض السند، وهي مدينة عظيمة جليلة القدر عند أهل الهند والصين لأنّها بيت حجهم ودار عبادتهم مثل مكّة عند المسلمين وبيت المقدس عند اليهود والنصارى، وبها القبة العظمى والبدّ الأكبر، وهذه القبة سمكها في السماء ثلاثمائة ذراع وطول الصنم في جوفها مائة ذراع، وبين رأسه وبين القبة مائة ذراع، وبين رجليه وبين الأرض مائة ذراع، وهو معلّق من جوفها لا بقائمة من أسفله يدعم عليها ولا بعلاقة من أعلاه تمسكه».

وعلّق ياقوت على الخبر بقوله: «قلت: هذا هو الكذب الصراح لأن هذا الصنم ذكره المدائني في فتوح الهند والسند وذكر أن طوله عشرون ذراعاً» وفي رسم (زَرَاوَنْد)، وهي حمّة في وادي الكرد بأرمية نقل عن مسعر بن مهلهل وصف الخواص العلاجية الخارجة عن المألوف لمياه تلك الحمّة، وختمها بقوله: «والله أعلم بصحته».

وفي رسم (شِيز) نقل عن مسعر بن مهلهل حكاية خرافية عن سبب بناء أحد ملوك فارس (بيت النار) في الشيز، وعقّب عليه بقوله: «قال عبيد الله الفقير إليه مؤلف هذا الكتاب: هذا كله عن أبي دلف مسعر بن المهلهل الشاعر، وأنا بريء من عهدة صحته، فإنّه كان يحكى عنه الشريد والكذب، وإنما نقلته على ما وجدته، والله أعلم». وجاء في رسم (مَطْبَخُ كِسْرَى): «ذكر مسعر بن المهلهل أبو دلف الشاعر في رسالة له اقتصّ أحوال البلاد التي شاهدها والعهدة عليه في هذه الحكاية، قال: وسرت من قصر اللّصوص إلى موضع يعرف بمطبخ كسرى أربعة فراسخ، وهذا المطبخ بناء عظيم في صحراء لا شيء حوله من العمران، وكان أبرويز ينزل بقصر اللصوص وابنه شاه مردان ينزل بأسدآباذ، وبين المطبخ وقصر اللصوص، كما ذكرنا، أربعة فراسخ، وبينه وبين أسدآباذ ثلاثة فراسخ، فإذا أراد الملك أن يتغدّى اصطفّ الغلمان سماطين من قصر اللصوص إلى موضع المطبخ فيناول بعضهم بعضاً الغضائر وكذلك من أسدآباذ إلى المطبخ لابنه شاه مردان». ثم عقب عليها ياقوت: «وهذا بالكذب أشبه منه بالصدق لأنهم لو طاروا بالطعام على أجنحة النّسور في هذه المسافة لبرد وتأخّر عن الوقت المطلوب إلا أن يكون أطعمة بوارد ويبكّر بحضورها ويكون القصد بها تأخير أنواع الطعام كلما أكل نوعاً أحضر نوعاً آخر». ومن بين الموضوعات التي دارت حولها الأساطير، ونسجت حولها الغرائب - كما أسلفنا- وتناقلتها بعض

كتب التفسير وقصص الأنبياء، ونُقل قسم منها إلى النصوص الجغرافية، ومنها بعض ما ورد في القصص القرآني مثل أخبار: مدينة قوم عاد (إرم ذات العماد)، وقوم (يأجوج ومأجوج) و(سد ذي القرنين)، وذكر ياقوت جانبا منها في رسم (سُدّ يأجُوجَ ومأجوجَ)، حيث أورد ياقوت بعض ما حُكي من وصف أسطوري لقوم يأجوج ومأجوج وصفة طعامهم ومن بينها التنّين العملاق الذي يقذفه البحر لهم كل عام، وله صفات أسطورية بالغة الغرابة، قال ياقوت بعدما روى خبره: «قلت: هذه صفة فاسدة لأنه قال أوّلا رأس كرأس الإنسان ثمّ قال ستة رؤوس كرؤوس الحية، وقد نقلته كما وجدته، ولكن تركه أولى». كما نقل في رسم (سُدّ يأجُوجَ ومأجوجَ) أيضاً، جانباً من رحلة سلام الترجمان الذي بعثه الخليفة العباسي الواثق بالله (227-232 هـ) إلى المكان الذي كان يعتقدون أنه موجود فيه (بحر قزوين) في الأصقاع الشمالية ليأتيه بخبره فعاد إليه بقصة رحلته التي حكاها لابن خرداذبه وقيدها في كتابه «المسالك والممالك» بكل أمانة، ونالت حكايته انتشاراً واسعاً في الأدب الجغرافي العربي، فرواها عنه الجغرافيون المتقدمون مع تفاوت في التفاصيل كالمسعودي، وأبي حامد الغرناطي، وياقوت، والقزويني، وكانت تلك الرحلة ذات محتوى غرائبي أسطوري، وقال ياقوت في ختامها: «قد كتبت من خبر السدّ ما وجدته في الكتب، ولست أقطع بصحة ما أوردته لاختلاف الروايات فيه، والله أعلم بصحته، وعلى كلّ حال فليس في صحة أمر السد ريب وقد جاء ذكره في الكتاب العزيز». وفي رسم (إرَمُ ذَاتُ العِمَادِ) نقل ياقوت عن ابن الكلبي حكاية عبد الله بن قلابة، الذي نُسب إليه أنه تمكن من الوصول صدفة إلى مدينة إرَم ذَات العِمَادِ أيام معاوية بن أبي سفيان وأنه أخذ منها شيئاً من بنادق المسك، والكافور، وشيئاً من الياقوت وقصد إلى معاوية بالشام، وأخبره خبرها وصفتها..إلخ. ثم عقّب عليها بقوله: «قلت: هذه القصّة مما قدمنا البراءة من صحّتها وظننا أنها من أخبار القصّاص المنمّقة وأوضاعها المزوّقة».

الهوامش:

1. بعض مصادر «قصص الأنبياء» استهلت تلك المصنفات بذكر بدء الخلق: خلق السماوات والأرض، وخلق الملائكة والجن وآدم...وجبل قاف المحيط بالأرض، إلخ. فأكثرت من تلك المرويات ذات الطابع الغرائبي الأسطوري، وامتد تأثيرها إلى بعض كتب التاريخ التي أرخت للبشرية منذ آدم، مثلما فعل «الطبري» في تاريخه، و«المسعودي» في كتابه «مروج الذهب»، و«المقدسي» في كتابه «البدء والتاريخ».

2. ابتدأت بعض الكتب الجغرافية بذكر بدء الخلق، مثل كتاب البلدان لابن الفقيه، مروج الذهب، وأخبار الزمان، والتنبيه والإشراف، كلها للمسعودي، والمسالك والممالك لأبي عبيد البكري.

3. انظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، بتحقيقنا، 2/335-411.

4. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي تحليل وتقييم، ناجية مراني، مجلة المورد، م7، ع3، (1398هـ 1978-م)، ص1161-109، والنص الجغرافي بين الواقعي والغرائبي قبل وبعد ياقوت الحموي، بحث غير منشور لصديقنا الأستاذ الدكتور عمرو عبد العزيز منير، أهدانيه مشكورا قبل نشره، وأذن لي الإفادة منه.

5. أحسن التقاسيم 22-21.

6. أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، كان مولى الخليفة العباسي المقتدر (المتوفى سنة 320هـ)، أوفده المقتدر إلى روسيا (بلغار نهر الفولغا) بناءً على طلب ملكهم (المسلم) ليعرفهم أمور الدين ويبني لهم مسجداً وحصناً ...إلخ، فسافر ابن فضلان من بغداد في شهر صفر سنة 309هـ، وبصحبته مجموعة من الفقهاء والمعلمين والمترجمين، فوصل إلى بلاد البلغار في جنوب روسيا (جمهورية تتارستان حالياً) في محرم سنة 310هـ، واستغرقت رحلة ذهابه 11 شهراً، وكانت مصدراً مهماً لياقوت ولسائر الباحثين عن تلك المناطق، فقد نقل عنها معظم ما ورد فيها. نشرت رسالة (رحلة) ابن فضلان بالعربية سنة 1939م، بتحقيق أحمد زكي وليدي طوقان، بعنوان «أخبار رحلة ابن فضلان»، ونشرت مرة أخرى بتحقيق سامي الدهان، بعنوان «رسالة ابن فضلان»، دمشق: مجمع اللغة العربية بدمشق (1960م).

7. أَبُو دُلَف مسعر بن مهلهل الخزرجي اليَنْبُوعي، (المتوفى نحو 390هـ) له رسالتان: الأولى في أخبار رحلته إلى الصين؛ والثانية في أخبار رحلته إلى غرب وشمال إيران وأرمينية.

شهادة من أجل الحياة

عبدالله عبدالرحمن
إعلامي وباحث - الإمارات

ويتجدد شهودنا ليوم الشهيد، ذلك اليوم الذي قدر له أن يكون مطلعًا، ونعم المطلع والمستهل، لاحتفالات إماراتنا بيومها الوطني من كل عام، كما قدر لأول شهيد إماراتي في تاريخ الدولة المعاصر بأن يقترن ارتقاؤه إلى مقامه القمري الأعلى مجلياً أسمى معاني فداء الحياة بالحياة والأرض بالنفس والجسد بالروح بإعلان قيام دولة الامارات العربية المتحدة.

في هذا اليوم الأغر نقف بأجسادنا وأرواحنا في صمت متحل بالإجلال، متطلع بإكبار إلى ذلك المعنى المتجلي في سماء وجداننا نجوما ترسل أنواراً وأسراراً، شارحة كيف للحياة، مجردة من أي شح ومتسامية عن أي أثر للأثرة، أن تفدي الحياة، مجردة عن أي تعلق أو انتماء غير انتمائها الأصلي لأمها الأرض، وللإنسان بأسمى ما يملك من معرّفات إنسانيته اللامتناهية علواً ورفعة، وأصالة، وحبًّا للخير والعدل.

وعندما نقف مع الشهداء، مستحضرين أنفسهم وأنفاسهم الزكية والتي لم تبخل بأعز ما تملك بذله فعطرت دماءهم ميادين البطولة في خورفكان ورأس الخيمة والظفرة وطنب الكبرى والبحرين وصافر والمكلا وقندهار ومواضع شتى في دارهم وديار إخوانهم في الدم والقربى والمصير، فإننا نستلهم في تلك السير المخلدة قواسم مشتركة تشير وتشهد بصدى صادح بحقيقة أن بطولاتهم لم تكن تضحية فحسب، بل تأدية لأمانة مغروسة في قلوبهم لم يكونوا بحاجة إلى من يُذكي بعدها شعلتهم أو يغريهم بأي شعارات أو مبادئ أو إيديولوجيات مصطنعة أو مكتسبة لكي يؤدوها، فهم بكل ما هم عليه لوطنهم وإخوتهم وقيادتهم كما كان ولا يزال وطنهم لهم، وكما كانت قيادتهم منهم وإليهم. ولم يكن من غير البدهي أن ترى الفخر مرتسماً في محيا وعبارات أمهات وآباء وأهل وعشيرة شهداء الإمارات بارتقاء أبنائهم إلى فراديس العلا في ميادين العلا، إذ كان هذا دأب هذا الشعب منذ غابر القرون ومتى ما حقت كلمة الدفاع عن الوطن أن الشهادة والاستشهاد في الوجدان الإماراتي لم تأت عن سابق إصرار أو باطن عصبية أو سعيا لأي نوع من إثبات التفوق أو كسبا لمصالح آنية، ففي مجتمع رضع الرحمة والتراحم وكانت (الفزعة) و(المعونة) المكوّن الأكثر سمواً في بنائه السلوكي كان الجميع للجميع والواحد للجميع سواء بسواء من أجل تحقيق واستدامة تلك الرحمة وسريان المثل العليا جيلاً بعد جيل.

ولأن تلك الرحمة وذلك التعاضد قيم إنسانية عليا عامة، لم يكن من المستغرب أن لا تحد انتشارها حدود ولا تحد تلك الأمانة التي حملها بقوة واقتدار أبناء شعبنا الوفي جيلاً بعد جيل قوالب الجغرافيا وما فرضته من تباين في المسميات أديانا وأعراقاً ولغات، فالإنسان هو الإنسان و(كلنا عباد الله). ومن هذا المنبع تدفقت عين جارية نضخت، إن نادى منادي النصرة للمظلوم والدفاع عن الأخوة ضد من بغى عليها وأنكر معانيها السامية، بدماء أبناء الإمارات الزكية بكل حب وسخاء.

وصية القائد المؤسس

«حافظوا على طاعة الله ورسوله وحافظوا على أراضيكم، وحافظوا على دياركم».

سيبقى صدى هذه الوصية المأثورة عن القائد المؤسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه، يتردد في آفاق الحاضر والمستقبل، وهي وصية منبعها العلم والخبرة والحكمة ومدرسة التاريخ فهو القائل: «إنني أفضّل قراءة الشعر والتاريخ وأخبار القبائل والسير لأنني أطلع من خلالها على تجارب الناس الذين كان لهم دور بارز في خدمة الإنسانية وإدارة شؤونها عبر العصور».

ولا شك أن افتخار زايد بالماضي مستمد من وعيه بتاريخ الآباء والأجداد، وما سطروه من بطولات قامت على التضحية والفداء للوطن، أولئك الذين قال عنهم (زايد) رحمه الله، بأنه «لولا جلدهم وصبرهم على خطوب الزمان وقساوة العيش لما كتب لجيلنا الوجود على هذه الأرض التي ننعم اليوم بخيراتها، وإن تفكيرنا في الماضي وعظاته وتفكيرنا في الحاضر وآمالنا وتفكيرنا في المستقبل وتطلعاته المشرقة هو الذي سيقودنا دائماً إلى بناء

وطننا وتقدمه ونهضته». والواقع أن كل متتبع لتاريخ الإمارات يلحظ هذا الاتصال الوثيق بين ماضيها وحاضرها، وهو أمر يجب التوقف عنده في هذه السياقات لندرك خلاصة أساسية هي أن الحس الوطني، والإنساني العام، الذي يغلف سياسية الإمارات تجاه شقيقاتها من الدول العربية والإسلامية والصديقة حول العالم وقت الأزمات، هو امتداد لنوازع قومية وإنسانية رافقت الإنسان الإماراتي منذ سنين طويلة، وبها أصبحت مكانة دولتنا مرادفاً للحكمة والعقلانية في التعامل مع قضاياها الساخنة والملحة.

ولعلنا لا نحتاج إلى عظيم جهد للتذكير بما بذلته دولتنا ولا زالت تقدمه من أرواح وأموال نصرةً لكل شرعية وسعياً إلى إعادة حق مسلوب وإسهاماً في ترسيخ دعائم سلام في أيّ بقعة تتهددها ويلات الحروب الاقتتال أو الكوارث الإنسانية. وفي كل موقف، يضع الإماراتيون أنفسهم تحت تصرف القيادة الحكيمة ثقة في اختياراتها وتعبيراً عن روح "الفزعة" التي تعبر عن تلاحم الشعب وحكامه. كتب أبناء الإمارات بدمائهم الزكية ملحمة حقيقية في تاريخ الأمة، من أجل الوقوف إلى جانب الحق ونصرة المظلوم واستقرار الأمن، وضربوا أروع الأمثلة في الفداء والتضحية دفاعاً عن الأمة، تخليداً ووفاءً وعرفاناً بتضحيات وعطاء، وهبوا أرواحهم لتظل راية الإمارات خفاقة عالية، وهم يؤدون مهامهم وواجباتهم الوطنية داخل الوطن وخارجه في الميادين المدنية والعسكرية والإنسانية.

يقول صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان في الشهادة: «إن الجود بالنفس هو أعلى درجات التفاني والإخلاص للوطن، بذلٌ لا يضاهيه في المكانة بذل، وعطاءٌ لا يقدر في القيمة بثمن، ولذلك ستظل بطولات شهدائنا، عسكريين ومدنيين، محفورة في ذاكرة الوطن وخالدة في الوجدان، وأوسمة عزة وفخر في صدورنا».

ويقول صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم: «إن أكثر القيم مدعاة الفخر رؤية أبناء الإمارات يتسابقون إلى ساحات الكرامة حاملين أرواحهم على أكفهم وإماراتهم في وجدانهم ليرتقوا إلى ذرى المجد باستشهادهم وليرتقي الوطن بهم أكثر فأكثر».

ولشهداء الوطن مكانة خاصة لدى صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة، إذ يؤكد سموه أن «يوم الشهيد مناسبة وطنية عزيزة على قلوبنا، نتذكر فيها تضحيات نخبة من أعز وأوفى وأنبل أبناء دولة الإمارات العربية المتحدة، جادوا بأرواحهم الطاهرة ودمائهم الزكية في أشرف المعارك من أجل رفعة هذا الوطن المعطاء، والدفاع عن أمنه ومصالحه».

وفي قصيدة (قبر الشهيد): يقول سمو الشيخ حمدان بن محمد بن راشد ولي عهد دبي

(حنّا نجيد نحقق الإنجاز بالفكر ونجيد
نردع هل الفتنة يالين اتحيد عن درب الفتن
الهمة العليا لنا.. والعزم والرأي الحميد
ونقدم (الفزعة) لوجه الله ولا نرجو ثمن
في كل يوم لو فقدنا من أشاوسنا فقيد
ما ننتهي ولو نهاية دربنا قبر وكفن).

هذه الأبيات المختارة تؤكد أننا نفزع إلى الصديق والأخ، وهنا مأثرة من مآثر النخوة التي يؤكد عليها ولي العهد، وهي فزعة لا نرجو ثمناً مقابلها، فهي في سبيل الله، بل هي من عاداتنا وشيمنا التي تربينا عليها، وذلك لن يثنينا عن مواقفنا، حتى لو فقدنا أي جندي من جنودنا الأبطال، حتى لو كانت نهاية هذا المشوار القبر والكفن كناية عن الاستشهاد ■

خمسون عاماً من الإنجاز والإبداع والتفاني

حداثة الإمارات ودورها الفاعل والمؤثّر في الحضارة الإنسانية

محمد غبريس

عندما كانت أنظار العالم في حقبة السبعينيات والثمانينيات تتجه إلى الأحداث والتحديات والتحولات الملتهبة التي كانت تعصف بالعديد من دول العالم، ومن بينها منطقتنا، فيما كانت مدن عريقة تغرق بالحروب والويلات والتدمير، ومدن أخرى تتمزق بأيدي بغيضة وشعارات عقيمة، وفيما كانت بعض الشعوب ترزح تحت نير الاحتلال والاضطهاد والظلام، وبعضهم الآخر يواجه مصيراً مأساوياً بين الاقتتال والفقر والجوع، كان هناك في قلب الصحراء رجل ذو أصول قبلية نبيلة، مجبول بالصبر والمسؤولية، متّقد العزيمة والرؤية، أراد أن يرفع الحرمان عن ناسه، ويطفىء نار الظروف القاسية، ويفتّت صخرة العطش والفقر، ويحيي الأرض الصفراء، ويجمع الشتات الممزّق، هو الشيخ زايد رحمه الله الذي صنع معجزة الإمارات فوق رمال الصحراء، وأذهل العالم بتأسيس دولة تسابقت مع الزمن بخطى سريعة مضمّخة بإرادة قوية وإيمان عميق، ومتلألئة بحكمة صادقة وفكر خصيب.

راهن الشيخ زايد وهو يقود مسيرة البناء في دولة الإمارات على عملية التحديث، للخروج من الإطار العربي التقليدي الذي لم يجلب إلى الأمّة إلا المزيد من الأزمات والمشكلات والتخلّف، بمعنى أن يقوم التحديث على أسس احترام الحرّيات والتعدّدية وتحقيق المساواة، وهذا ما دعا إليه المفكر محمد أركون في أطروحاته ومقارباته الفكرية، فابتكر الشيخ زايد صيغة سياسية ودستورية نابضة بالتحدّي والحيوية، حيث جمعت بين الثوابت التاريخية والتراثية، والنظريات الحديثة، في إطلاق نهضة صناعية ومعرفية وثقافية وتقنية، متكئة على الديمقراطية والعدالة والمواطنة، هذه الصيغة أوجدت مؤسّسات متقدّمة استطاعت أن تحتوي الأزمات، وتجد حلولاً حديثة للقضايا التي كانت تعترض طريق مشروع البناء والتنمية والتنوير. خمسون عاماً من الإنجاز والإبداع والتفاني، والمحطّات المضيئة والمواقف الناصعة في مسيرة الاتحاد، فكانت الغاية كما يقول الشيخ زايد توفير الحياة الأفضل، وتوطيد دعائم الدولة، وتحقيق تقدّمها وازدهارها في مختلف الميادين، وتوفير الأمن والطمأنينة في ربوع البلاد، فضلاً عن بناء المواطن الصالح باعتباره القيمة الحقيقية لهذا البلد، والرصيد المدّخر لحاضره ومستقبله، من هنا تتجلّى الأسس الحداثوية الحقيقية التي تنطلق من الإيمان بأن الإنسان هو أهم كائن في العالم الطبيعي وأنه معيار الأشياء جميعاً وغاية الوجود كما يقول المفكر قسطنطين زريق. ولكونه غاية حرصت الإمارات على تقديم له كل أسباب الرعاية والحماية والسعادة، وتوفير شروط الإبداع والحياة الحرّة الكريمة.

بين الأصالة والمعاصرة

امتلك الشيخ زايد اندفاعة حضارية اكتسب جزءاً منها أثناء رحلاته التي قام بها إلى كثير من بلدان العالم، واطلع هناك على تجلّيات الحضارة الحديثة وإبداعات الإنسان العصري، هذه الاندفاعة جعلته يبني مجتمعاً حداثياً يواكب التطلّعات والآمال ومتطلّبات العصر من دون أن يتخلّى عن القيم التقليدية، وأن

يحقّق إنجازاً مادياً ومعنوياً قلّ نظيره لأنّه امتزج بالمثل العليا والقيم الإنسانية والجمع بين الأصالة والمعاصرة.

لو أردنا أن نقرأ مظاهر التغيير في الإمارات خلال العقود الخمسة الماضية، سنجد أنها انسيابية ومتلائمة مع ثقافة الناس وقيمهم وقناعاتهم وطموحاتهم، هذا الأمر تطلّب بذل جهود كبيرة في الاهتمام بالتنمية الإنسانية والاستثمار في الإنسان وتعزيز قدراته وصقل وعيه وتوجيه طاقاته، إضافة إلى استثمار الموارد الطبيعية والأنشطة الاقتصادية وتطوير البنى التحتية من مطارات وموانىء ومساكن وطرقات ومشافي، لعلّ الأهمّ في عملية التنمية أن لا يكون الاعتماد فقط على عائدات البترول، وإنما التركيز على تنوع الموارد مثل الزراعة والصناعة والتجارة والسياحة والثقافة. يقول الدكتور محمد بن مسلم بن حم في كتابه «الإمارات العربية المتحدة.. الحكم الرشيد»: لخّص المغفور له الشيخ زايد فلسفة دولة الإمارات العربية المتحدة وسياستها وأهدافها، ورسم خطوط انطلاقتها من البداوة إلى الحداثة مع حفاظها على الأصالة، من هنا نقرأ قول الشيخ زايد: «إنني لا أرغب في نقل البدو إلى المدنية بل سوف أنقل المدينة إلى البدو». ولذلك لم تقف الأعراف والتقاليد وطرائق التفكير سداً

في بناء حداثة الإمارات وتكوين حضارتها، بل تكاملت مع الأنماط الجديدة، ولعبت دوراً مهماً من دون التأثير على عملية التغيير والابتكار، عبر رفض الجمود والانغلاق والقبول بمبادئ الانفتاح والتفاعل مع الثقافات الإنسانية. إنّ المعاصرة في فكر الشيخ زايد تعني أن تعيش الأمة روح العصر، وتحقّق التقدّم والازدهار في شتّى مناحي الحياة، وأنّ الحداثة هي الإبداع والتجديد والعقل والتفكير والتكيّف مع العصرنة واستيعابها وفق الخصوصيات المحلية والذاتية.

أنموذج فكري راقٍ

قدّمت الإمارات نموذجاً فكرياً راقياً في الحكم ينطلق من الإيمان الحقيقي بالديمقراطية، عبر التخلّص أولاً من أيّ أيديولوجية تعيق تقدّم المجتمع وتنشر بذور الكراهية، وثانياً ترسيخ نهج الشورى وتطبيق مبدأ التشاور بهدف تحمل المسؤولية والإخلاص والالتزام في العمل، من هنا يمكن فهم جوهر ديمقراطية الصحراء من القول المأثور للشيخ زايد: «الديمقراطية في الإمارات العربية المتحدة ليست شعارات. وليست مجرد نصوص في الدستور، إنها واقع عملي، سواء على مستوى السلطة العليا للبلاد، أو على

المستوى الشعبي». ليس اكتشاف النفط الذي شكّل نقطة تحول في تاريخ الإمارات، أو تدفّق الأموال والحصول على عائدات مالية ضخمة يعني في أي حال من الأحوال تحقيق الحداثة. وذلك لأن الحداثة عمل وفعل وتطور وتفاعل وتخطيط وإدارة، إنها شعلة تنوير تضيء الطريق إلى تحرّر الإنسانية من الصراعات والتناقضات. فالتطور الذي عانق المجتمع الصحراوي والانتقال إلى العيش في فضاء المدينة كان مدروساً وواعياً، لعل تحقيق هذا الانتقال بكل يسر وسرعة يعود إلى استيعاب مفهوم المدينة والارتقاء في الفكر والوعي والثقافة والعمل.

كما يعود التطور الحديث للإمارات وازدهارها نتيجة تحصّنها أولاً بالأخلاق والثقافة، وثانياً بالثقة بين الحاكم والشعب، وتقديم الولاء والاحترام المتبادل، بالفعل نجحت في تجسيد القيم الأخلاقية وترقية المواطن والحفاظ على حقوقه الأساسية، منطلقة من المعادلة التي تقول إنّ الدولة الحقّ اجتماع وأخلاق، قوّة وإقناع، وما القوّة التي استمدتها إلا من خلال تجسيدها للأخلاق، ومحافظتها على الهوية والارتكاز على الثقافة في التفاعل مع الثقافات الأخرى، فحرصت على أن تكون الثقافة مستوعبة وغنية، ما جعلها مدينة كوزموبوليتانية بامتياز، منفتحة على العالم وتضم عشرات الجنسيات من مختلف الأجناس والثقافات والأديان. ثم جاء التحوّل المهمّ الآخر باتجاه الحداثة في دولة الإمارات، بدعم المرأة بشكل مباشر، وتمكينها وتعزيز دورها في مختلف المجالات، فحلقت عالياً في فضاءات التعليم والعمل، وشاركت الرجل في الشأن العام، وأصبحت تتبوأ اليوم أعلى المناصب، وتسهم بفعالية في قيادة مسيرة التنمية والتطوير والتحديث، من خلال مشاركتها في السلطات السيادية الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية، إضافة إلى حضورها الفاعل في المشهد الثقافي والإبداعي.

الفكر والرؤية والمنهج

بناء على تقدّم تتمحوّر حداثة الإمارات حول الفكر والرؤية والمنهج، إذ ركزت الإمارات على إنشاء المتاحف والمكتبات وكبريات الجامعات ودور السينما، واهتمت بإنشاء المسارح ودور الثقافة، وكل ما له صلة بالثقافة والفنون والعلوم، فمشروع الحداثة لم يقتصر على الصناعة والتجارة والسياحة والتكنولوجيا، بل مع إعطاء دور كبير للأدب والفكر والإبداع والفن، كما أنّ التحديث لم ينف تاريخها، بل على العكس، حرصت الإمارات على استعادة ذاكرة المكان ورمّمت ما تبقى من الماضي، وحافظت على المعمار القديم والمباني التاريخية والتراثية. والمتتبع لحداثة الإمارات سيكتشف أنها لم تتبنّ القطيعة مع التراث، كما نادى بها بعض المفكرين في العصر الحديث وجرى الترويج لها في قراءات فكرية سابقة، وإنما هي ضمن الرؤية الإماراتية فعل حضاري مستمر يتحد في سبيكة من القيم والمبادئ التي تنير الوجود الإنساني، ولهذا نلمس في الإمارات الاهتمام الكبير بالتراث والاحتفاء به بالتوازي مع النهوض

العمراني والتقني، وهي حداثة تعكس جوهر الجمع بين الأصالة والمعاصرة. إن النهج الفكري الذي اتبعته الإمارات ينطلق من القيم الكبرى التي حملتها الثقافة العربية، وهو نهج يربط بين الأصالة والحداثة، ولا يتعارض مع منطق العصر ومتطلباته، وطالما بنيت الحضارة العربية وتأسّست على أسس التعاون والتواصل، أثّرت وتأثّرت بالثقافات الأخرى، وأسهمت بدورها في إغناء الحضارات العالمية، حرصت الإمارات دائماً على البحث في تعزيز سبل التواصل والتعاون وإزالة الحواجز وتبني لغة الحوار مع الآخر بهدف توفير عوامل النهوض والتقدّم، فتبنت التسامح خياراً استراتيجياً وكقاعدة أساسية للتواصل الإنساني وتحرير العقل من سطوة الماضي وحالة الجمود، مع التركيز على الجوانب الثقافية والأخلاقية والقيمية التي تعيد للإنسان إنسانيته، فالتسامح يعني الإيمان العميق بالتعدّد، وهو الإيمان الذي ينطلق من أن قبول الآخر هو قبول «للذات» من هنا جاء إعلان «وثيقة الأخوة الإنسانية» عام 2019، وكانت بمثابة رسالة حضارية تدعو إلى التسامح والتعايش والتآلف بين الجميع.

رؤية استراتيجية علمية

ولأنّ الحداثة تعني إنتاج المعرفة وتحقيق الابتكار والإبداع في ميدان العلم والتكنولوجيا، حقّقت الإمارات أشواطاً في عملية الاستثمار في التربية والتعليم وتأهيل المواد البشرية، وتوفير البيئة الصحيحة للابتكار والإبداع، فاستخدمت النظريات التربوية الحديثة التي تعدّ أجيالاً مثقفة وواعية ومتصالحة قادرة على الحوار والمناقشة وإبداء الرأي وتقبل الرأي الآخر، كما أنها قادرة على تحمل المسؤولية والقيام بالواجب وصنع المستقبل.
لا تكتمل الحداثة إلا بإيلاء الاهتمام بالبحث العلمي لذلك وضعت الإمارات رؤية استراتيجية واضحة تهدف إلى التعرّف إلى أهمّ التوجّهات العالمية الكبرى التي تشكّل مستقبل العالم، حيث سجلت الإمارات اسمها في تاريخ استكشاف الفضاء على المستوى العالمي من خلال صعود أول رائد فضاء إماراتي إلى محطة الفضاء الدولية، ثم إطلاق أول مسبار عربي لاستكشاف المريخ «مسبار الأمل» والذي يعكس سعي الدولة إلى إثبات مكانتها العلمية والفضائية. من هنا تكمن أهمية تجربة الإمارات التي أضحت أنموذجاً للدولة الحديثة الناهضة، والتي قادها المغفور له الشيخ زايد على مدى أكثر من ثلاثة عقود، فيما اكتسبت المزيد من النهوض الحضاري والإنجازات العظيمة والحكم الرشيد في ظل قيادة أصحاب السمو حكام الإمارات الذين أثروا المسيرة بثقافة التميز والريادة والطموح، واستخلصوا زبدة الحداثة كمصدر إلهام للبناء والتقدّم.
إنّ نجاحات العقود الخمسة الماضية وإنجازاتها، التي حازت إعجاب العالم وتقديره واحترامه، تحقّقت بالجهد والعزيمة والتفاني كما يقول صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد، ومن دون هذه الثلاثية لا يمكن لأي دولة أن تستمر بالعطاء والتطوّر، وأن تواجه التحوّلات في عالم متسارع، وأن يكون لها دور فاعل ومؤثّر في الحضارة الإنسانية، وتحقيق المواطنة العالمية ■

المسرح الإماراتي في مسيرة نصف قرن (2-2)

عصام أبو القاسم

في الجزء الأول من هذا المقال تم التطرق إلى دور المؤسسات الرسمية مثل وزارات ودوائر الشباب والإعلام والثقافة في دعم النشاط المسرحي الإماراتي منذ بداياته، وذلك من خلال ما نظمته تلك المؤسسات من مؤتمرات وورش تدريبية، وما استقطبته من خبرات عربية لا سيما خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، كما سُلط بعض الضوء على الطريقة التي صنعت بها أيام الشارقة المسرحية نشاط «أبو الفنون» في الدولة، والتأثير المهم للفرق المسرحية، وجمعية المسرحيين، إلى جانب الحضور النوعي لأكاديمي المسرح من الإماراتيين، في دفع وإثراء مسيرة المسرح في البلاد.

والى جانب ما ذكر آنفا ثمة محطات ومواعيد أخرى كان لها أثرها في تمديد وتعميق مسيرة المسرح الاماراتي محلياً ودولياً خلال الخمسين سنة الماضية.

صدى عالمي

في مارس 2007 اختارت اليونسكو عبر هيئتها الدولية للمسرح صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة لكتابة وقراءة رسالة اليوم العالمي للمسرح ولقد كان ذلك الاختيار المستحق بمثابة تأكيد شديد الوضوح للأثر القوي الذي أحدثته جهود سموه الداعمة للمسرح الإماراتي والعربي ليس على الصعيد الإقليمي وحسب، بل على الصعيد العالمي. في سنة 2008 بدأت رحلة طافت أنحاء عدة في العالم، وامتدت لأكثر من عشر سنوات، لمسرحية «النمرود» التي كتبها حاكم الشارقة وجسدتها فوق الخشبة فرقة مسرح الشارقة الوطني؛ إذ قُدمت المسرحية في بلدان عربية وغربية مثل: مصر ولبنان وتونس وكندا ورومانيا وايرلندا والمجر وألمانيا وإسبانيا والسويد.. لتنقل بذلك سمعة المسرح الإماراتي إلى فضاءات أرحب ولتسجل تطوافاً لعله الأوسع والأكثر استمرارية لمسرحية عربية خاصة في خشبات البلدان الأوروبية.

مبادرات

وبالعودة إلى سنة 2007 التي يمكن اعتبارها من بين أهم مواقيت المسرح الإماراتي في العقدين الأخيرين، يلاحظ أن في شهر أكتوبر منها تم تأسيس الهيئة العربية للمسرح بتوجيهات صاحب السمو حاكم الشارقة وتحت رعايته ورئاسته لتشكل رافعة إضافية مهمة للنهوض بالفعل المسرحي العربي ممارسةً وخطاباً. ولقد نشطت تلك الهيئة في اقتراح وتنفيذ جملة من الفاعليات التدريبية والتوثيقية والعلمية والاحتفالية لفائدة جل المسارح العربية، وفي فترة وجيزة نجحت في خلق فضاء مسرحي عربي جديد يتسم بالحيوية والفاعلية، وليس من المبالغة في شيء القول إن الهيئة استردت لـ «أبو الفنون» الكثير مما فقده لسبب أو لآخر في الحياة العربية العامة وأنعشت حضوره خاصة عبر «مهرجان المسرح العربي» الذي ينظم سنوياً في عاصمة عربية. ولعل تأسيس الهيئة العربية للمسرح جاء استكمالاً لمبادرات أسبق بذلتها دولة الإمارات وهدفت من خلالها دعم وتثمين التجارب المسرحية العربية ربما من أبرزها «ملتقى الشارقة للمسرح العربي» الذي تأسس سنة 2003 وشكل على مدار العقدين الفائتين نقطة لقاء حيوية لصناع الحياة المسرحية العربية الرواد والشباب بمختلف حساسياتهم الفنية، وقد انبثقت عن حوارات منصته الجدلية العديد من المبادرات اللاحقة. وطيلة الوقت كانت ثمة رغبة ظاهرة لدى الجهات الرسمية المخططة للنشاط المسرحي في الدولة لرؤية ودعم المسرح المحلي في الإطار العام للمسرح العربي، ولعل ذلك هو السبيل الذي جاء عبره تأسيس «جائزة الشارقة للإبداع المسرحي العربي» في مارس 2007، وهي جائزة مقدرة تمنح سنوياً لأصحاب المنجزات المؤثرة في مسيرة المسرح العربي خاصة بين الأجيال الرائدة. وفي أفق ذلك العام (2007) دشنت الشارقة مشروعاً مسرحياً يمكن القول إنه يمثل اليوم

مرجعية لا غنى عنها في الذاكرة المسرحية العربية، وهو عبارة عن خزانة للمؤلفات المسرحية إذ قامت دائرة الثقافة باقتناء ونشر أكبر قدر من النصوص المسرحية العربية لتغطية النقص الملحوظ في هذا الجانب. وبموازاة هذا المشروع طرحت الشارقة سنة 2011 الملتقى السنوي للكتاب المسرحيين الشباب لينظم سنوياً في عاصمة عربية بهدف إبراز التجارب الجديدة والاحتفاء بها وتحفيزها على التقدم في الطريق، ويقال ذلك وفي البال أن الشارقة أطلقت سنة 1996 مسابقة للتأليف المسرحي موجهة للكتاب الإماراتيين وبعد نحو عشرين دورة توسعت المسابقة لتتوجه للكتاب المسرحيين في دول مجلس التعاون وذلك سنة 2016. مع العلم أن الاهتمام بالنص المسرحي هو جزء من مسابقة أقدم تنظم في الإمارة وهي «جائزة الشارقة للإبداع العربي - الإصدار الأول» المكرسة للمبدعين الشباب ممن لم يسبق لهم النشر، وهي تقام منذ أكثر من عقدين من الزمان (الدورة 25 هي الحالية). وفي إطار الأنشطة المسرحية ذات الطابع العربي التي تقام بصفة سنوية في الإمارات ثمة «ملتقى الشارقة لأوائل المسرح العربي» الذي نظمت دورته الأولى 2012 وهدفه

الاحتفاء بالمتميزين من طالبات وطلاب معاهد وكليات المسرح في الوطن العربي، عبر سلسلة من الورش التدريبية والمحاضرات واللقاءات الثقافية، وينظم في إطار أيام الشارقة المسرحية، وهو يظهر عناية الشارقة بصنّاع مسرح المستقبل ورهانها على دورهم في التطوير والتحديث. كذلك هناك «ملتقى الشارقة للبحث المسرحي» وهو الآخر ينظم بصفة سنوية منذ 2013 ويعنى باستعراض ومناقشة الأبحاث العلمية التي تنجز في كليات الدراسات العليا لنيل الماجستير أو الدكتوراه وتحفيز أصحابها بنشر أبحاثهم والتعريف بهم.

مهرجانات

وخلال مسيرة المسرح الإماراتي مثلت المهرجانات منصة لربط صناع أبو الفنون والجمهور خاصة على الصعيد المحلي، كما مثلت نافذة للتواصل مع العالم والتفاعل مع مستجدات هذا الفن في مختلف بقاع المعمورة. وإلى جانب المهرجانات المسرحية المحلية مثل «أيام الشارقة المسرحية»، و«مهرجان دبي لمسرح الشباب» ثمة مجموعة من التظاهرات المسرحية العربية والدولية التي أقامتها الإمارات خلال العقود الفائتة وكان لها عظيم الأثر في تعميق حضور هذا الفن وانتشاره وزيادة أعداد المشتغلين به، ومنها مهرجان الفجيرة الدولي للمونودراما الذي تأسس منذ نحو عقدين (2003) وكان في بدايته ينظم كل عامين ثم صار ينظم سنوياً بعد توسعه أخيراً ليغدو «مهرجان الفجيرة الدولي للفنون» وليشمل إلى جانب عروض المونودراما طائفة متنوعة من الضروب الفنية الأدائية التقليدية والمعاصرة.

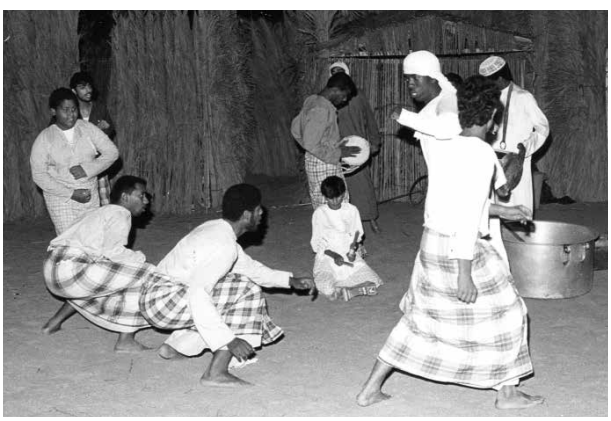

وهناك أيضاً مهرجان خورفكان المسرحي وهو ملتقى فني دولي ينظم بصفة سنوية على شاطئ المدينة الساحلية ونظمت دورته الأولى سنة 2014، وثمة مهرجان «لشارقة للمسرح الصحراوي» الذي تأسس سنة 2015 وهو من المهرجانات المسرحية العربية الفريدة إذ تشكل الصحراء، بوصفها فضاء اجتماعياً وثقافياً، منصة لعروضه وموضوعاً لنصوصه وصالة لجمهوره وفعالياته الموازية. وفي السنة ذاتها جاء تأسيس مهرجان الشارقة للمسرح الخليجي 2015 لكن لينظم كل عامين، وبعد عام واحد أطلقت الشارقة مهرجان «دبا الحصن للمسرح الثنائي» المكرس

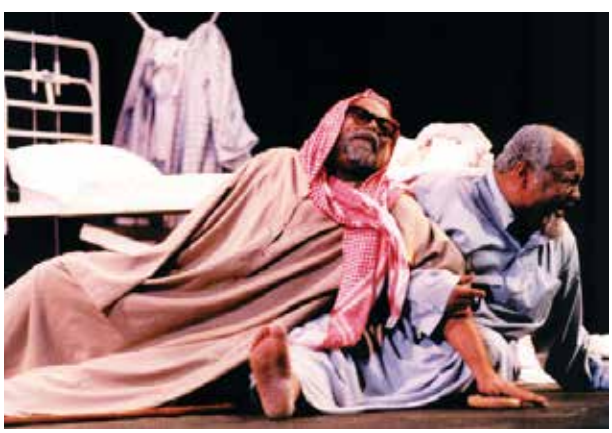

للعروض المسرحية العربية التي تعتمد في جمالياتها على المواجهة الدرامية بين شخصيتين فوق الخشبة ونظمت أول دورة منه سنة 2016. ويلاحظ في هذه العينة من المهرجانات، التي أوردها المقال من باب التمثيل لا الحصر، الاختلافات النوعية بينها، فكل مهرجان يتميز بخصوصيته الفنية والمكانية، وتلك سمة تعكس دينامية التفكير المسرحي بقدر ما تترجم توسع مساحة ممارسة وتلقي الفعل المسرحي في البلاد.

أكاديميات مسرحية

وبتأسيس أكاديمية الشارقة للفنون الأدائية سنة 2019 ينفتح المجال المسرحي الإماراتي على أفق جديد من الاهتمام الأكاديمي والعملي بهذا الفن الذي يبدو أنه يعيش اليوم أفضل فتراته في الدولة. بلا شك سترفد تلك الأكاديمية المجال المسرحي بطاقات جديدة في المستقبل القريب ولعلها بدأت تفعل ذلك اليوم. ودخل المسرح كمادة دراسية في العديد من الجامعات الإماراتية منذ وقت أبكر إذ أنجزت العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في جامعات بمختلف إمارات الدولة، كما تحول المسرح الإماراتي بوصفه ممارسة إبداعية وثقافية إلى مادة للتناول الأكاديمي في جامعات عدة بمختلف أنحاء العالم خاصة في كليات الدراسات العليا.

منشآت مسرحية بارزة

وخلال نصف قرن أسست الدولة العديد من المنشآت المسرحية المتميزة بطرزها المعمارية البديعة ومن بين أقدمها قاعة أفريقيا في الشارقة 1976، وفي المدينة نفسها هناك قصر الثقافة الذي افتتح سنة 1984، وثمة مسرح أبوظبي الذي افتتح 1981 ويعتبر الأضخم في المنطقة، وهنالك العديد من البنايات

والقاعات المسرحية الأخرى في كل مدن الدولة تستضيف العروض والندوات والورش التدريبية على مدار أيام السنة وتضم كل المستلزمات التقنية وأحدثها، وهذا كله يظهر الاهتمام المتعاظم والمتصل للدولة بهذا المجال الحيوي.

رعاية

وفي سنة 2019 أعلن صاحب السمو حاكم الشارقة تأسيس رابطة للمسرحيين العرب هدفها رعايتهم وتقديم الدعم لهم في الظروف الحياتية الصعبة. وهي مبادرة لاقت استحسانا واسعا من المسرحيين في الأقطار العربية.

خاتمة

ولا يمكن لأي محاولة هدفها رصد مسيرة المسرح الإماراتي خلال السنوات الماضية أن تغفل توجه وزارة التربية في العامين الاخيرين إلى جعل مادة المسرح جزءاً من المقررات الدراسية، وهو توجه سيكون له أثره العظيم في السنوات القليلة القادمة بلا شك.

إرث علماء المسلمين

د. نورة صابر المزروعي
أكاديمية من الإمارات

من أهم الأحداث العالمية التي أسهمت في نشر الحضارة الاسلامية في أوروبا، الحروب، إذ مكنت الغرب من الاتصال المباشر بالعالم الإسلامي. تأثرت أوروبا بالثقافة العربية الإسلامية - تحديداً عبر بلاد الأندلس وجزيرة صقلية (جنوب إيطاليا)، ولعب المستعربون وهم من فئة المسيحيين واليهود من أطياف الشعب الأندلسي، دوراً مهماً في نقل الحضارة الإسلامية إلى العالم الغربي. ومن ثم انتشرت الثقافة العربية الاسلامية إلى أنحاء أوروبا. (المستعرب في المعجم: من لم يكن عربيا فتعرب، بتعلم اللغة العربية).

ومن نتائج الاستعراب في ظل الثقافة العربية الإسلامية التطبع بأخلاقيات المسلمين من حيث اللغة والعادات والمعاملات، نهل المستعربون من العلوم السائدة في الأندلس وتأثروا بالثقافة الإسلامية مع الاحتفاظ بثقافتهم وديانتهم. وأضافوا الكثير للحضارة الاسلامية بسبب تعدد لغاتهم ودورهم في علم الترجمة ومكانتهم العلمية واختراعاتهم.

لذا ارتفعت مكانتهم في المجتمع الأندلسي واعتمد الكثير من خلفاء المسلمين عليهم حتى أصبحوا وزراء للخلفاء. في الترجمة قام المستعربون، بترجمة كتب علماء المسلمين من اللغة العربية إلى العبرية واللاتينية، ومنها انتقلت مختلف العلوم والتراث الإسلامي إلى أنحاء أوروبا، وأسهم الكثير من المستعربين اليهود في ترجمة كتب عربية إلى اللغة العبرية، أمثال «يعقوب بن ماري» الذي ترجم كتب ابن رشد. والمستعرب موسى بن طبون الذي ترجم 30 كتاباً، من بينها كتاب «القانون وأرجوزة في الحميات» لابن سينا، و«الترياق» لأبوبكر الرازي. وترجم «يهوذا بن سليمان» «مقامات الحريري»، وهناك الكثير من رواد حركة الترجمة أمثال، إبراهيم بن عزرا، وابراهام بريحا هانسي...إلخ. ولم يتوقف دورهم عند الترجمة، ولكفاءتهم وحنكتهم وإتقانهم لغات عدة، اختير عدد منهم لتمثيل مصالح الدولة في الخارج، فعلى سبيل المثال عيَّن عبد الرحمن الثالث، المستعرب اليهودي «حسداي بن إسحاق»، المفاوض الرسمي نيابة عن الخليفة، كما اخُتير الأسقف رسيموند من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر، ليكون مترجماً وسفيراً باسمه لإمبراطور ألمانيا. كما اعتمد الكثير من الأوروبيين على شخصيات عربية ذوي كفاءة عالية في تمثيل مصالح الدولة، يذكر لنا التاريخ أن الرومان اعتمدوا على عناصر عربية مسلمة في تمثيل مصالح جزيرة صقلية السياسية والاقتصادية. على سبيل المثال، في عهد الأمير «روجر الثاني» اختير لمنصب المسمى بالأدميرال (قائد الأسطول، منصب أمير البحر) قائد عربي يدعى «عبد الرحمن النصراني»، وعُيّن بوظيفة كبير القضاة. واختير الأدميرال الثاني شخص عربي يدعى «جورج الأنطاكي». وكان الملك «روجر الثاني» شغوفاً بالعلم والمعرفة وبالثقافة الاسلامية، وتذكر الكتب التاريخية أنه قدّر علماء المسلمين وأكرمهم، وأسس مجلساً لهم لمناقشة علومهم، كما قرّبهم منه، وقدّم لهم الحماية، وأشهر ما قيل عنه إنه «أكرم المسلمين، وقرّبهم، ومنع عنهم الفرنجة فأحبوه». ومن بين العلماء المسلمين الذين استقطبهم، محمد الإدريسي، وكان شاعراً وأديباً تلقى علومه في قرطبة، ودرس علم النبات والطب والفلك والفلسفة والجغرافيا، وكلفه الملك بجمع أكبر قدر من المعلومات التي تصف البلدان وأقاليمها وطبيعتها الجغرافية، ونشاطها الاقتصادي وأهم صناعتها. واستغرق الإدريسي لتأليف كتابه المعرف باسم «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» 18 عاماً، ويعرف في الغرب باسم «كتاب روجر»، وأرفق فيه خريطة العالم، بالإضافة إلى خريطة العالم التي نحتها على كرة فضية وأهدها للملك، ويعد هذا الكتاب أعظم موسوعة جغرافية في التاريخ، وصف بدقة متناهية جغرافية بلدان القارة الأوروبية والآسيوية والأفريقية، وأصبح مرجعاً رئيساً في أوروبا.

وفي عهد «روجر الثاني» نشطت حركة ترجمة كتبِ علماء المسلمين، ففي عام 1224 تأسست جامعة نابولي، وجلب الملك إلى قصره علماء من العقائد السماوية الثلاث، ليتكفلوا بترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية، ولتُعتمد كمناهج في الجامعات. واستطاع عدد من الأوروبيين تعلم اللغة العربية، وترجمة

الكثير من المؤلفات، إذ ترجم أيتيين الأنطاكي، كتاب «الكامل في الصناعة» لعلي بن عباس الأهوازي، وترجم فيليب الطرابلسي كتاب «السياسة في تدبير الرئاسة» لأرسطو، كما أسهمت تلك الترجمة في تعريف العالم الأوروبي بالثقافة الاسلامية، بكل ما تزخر به من فنون وعلوم ومعارف، وقد أسهمت حركة الترجمة في صقلية وبلاد الأندلس والحروب الصليبية في يقظة العالم الغربي، ودخول مرحلة جديدة، عرفت بـ (النهضة الأوروبية).

ومن المؤسف أن الانتاج الفكري لمؤلفات علماء المسلمين تعرض للحرق أو نهب، أو تم شراؤه على مر الأزمنة والعصور. وجل ما تبقى من مؤلفاتهم نقل إلى المكتبات الأوروبية ولم يبق له أثر يذكر في العالم العربي.

ومن أهم الدول التي تحتفظ بنسخ من مؤلفات العلماء المسلمين إسبانيا وفرنسا وبريطانيا. فإسبانيا لديها العديد من المخطوطات العربية محفوظة في مكتبة «دير الإسكوريال» بمدريد، وأهم ما تقتنيه «مختصر ابن سينا في استعمال الترياق» ومخطوطة «الموسيقى الكبير» للفارابي.

وتمكنت بريطانيا من امتلاك الآلاف من المخطوطات العربية بحكم استعمارها للدول العربية، ومن بينها مخطوطة أبو يوسف يعقوب الكندي الموسيقية «رسالة في خبر صناعة التأليف».

أما فرنسا، فقد استولت على عدد كبير من المخطوطات، موجودة في المكتبة الوطنية بباريس، وصل عددها إلى 7376 مخطوطة. وأهمها نسخة من ترجمة حنين بن إسحاق لكتاب «العلل والأمراض» لجالينوس. أما ألمانيا، فقد اعتمدت على شراء ونقل عشرة آلاف مخطوطة عربية أثناء الحرب العالمية الثانية، وأهمها «القانون» لابن سينا، و«شرح تشريح القانون» لابن النفيس. وتملك الولايات المتحدة مخطوطة «ألف ليلة وليلة» التي تعود إلى القرن الثالث للهجرة.

أثبت المستشرقون أن الكثير من الأوروبيين لم يحترموا الملكية الفكرية لمؤلفات علماء المسلمين، وانتحلوا أفكارهم، والتي تندرج تحت ما يسمى بـ «السرقة العلمية»، وعلى سبيل المثال لا الحصر نُسب ابتكار دواء لمعالجة الجروح (ما يعرف باسم المضادات الحيوية Antibiotic) إلى كل من الطبيب «لويس باستور» و«جوليس جوبرت»، بينما يؤكد المستشرق «جاك ريسلر» أن ابتكاره يعود في الأصل إلى أبو بكر الرازي الذي شرحه في كتابيه «الحاوي» و«سر الأسرار». وتؤكد المستشرقة الألمانية «زيغريد هونه» صاحبة كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» أن أول من تخصص بجراحة الأعضاء التناسلية هو أبو قاسم الزهراوي الذي يعد مؤسس علم الجراحة وابتكار العمليات التجميلية لإخفاء الجروح وليس الألماني فريدريك ترندلبوغ كما يدعي الغرب.

وأثبت المستشرق الألماني «ماير هوف» السرقة الفكرية التي قام بها الإسباني ميخائيل سرفيتوس - الذي نسب إلى نفسه اكتشاف الدورة الدموية الصغرى - من كتاب «شرح تشريح القانون» للعلامة ابن النفيس. وصنف الغرب الطبيب البلجيكي «أندرياس فيزاليوس» أولَ من شرّح أعضاء جسم الإنسان إلا أن المستشرقين أكدوا أن أول من شرّح أعضاء جسم الإنسان (العين، الحلق، القلب...الخ) هو ابن سينا.

ونُسب اختراع آلة الكاميرا إلى «دلابورتا»، بينما هي واحدة من اختراعات الحسن ابن الهيثم تسمى بـ «الخزانة المظلمة ذات الثقب» أو«بالبيت المظلم».

كما نسبت نظرية قوس قزح إلى «رينيه ديكارت»، في حين أكد المستشرقان «سارتون» و«فيدمان» أنها بشروحاتها مثل آلة الكاميرا تعود إلى ابن الهيثم وابن سينا. ومن ضمن الأخطاء التي وقع فيها العرب نقلاً عن الغرب إرجاع قوانين الحركة والضوء إلى إسحاق نيوتن، إلا أنها تعود في الأصل إلى ابن الهيثم. وبينما كان عالم الكيمياء جابر بن حيان هو من قام بتجارب مختبرية، أثبت فيها أن جمع العناصر تسمى ذرات، وحينما تتحد تشكل مركبات، فقد نسب الغرب النظرية الذرية إلى الإنجليزي «جون دالتون».

من أهم الدول التي تحتفظ بنسخ من مؤلفات العلماء المسلمين إسبانيا وفرنسا وبريطانيا. فإسبانيا لديها العديد من المخطوطات العربية محفوظة في مكتبة «دير الإسكوريال» بمدريد، وأهم ما تقتنيه «مختصر ابن سينا في استعمال الترياق» ومخطوطة «الموسيقى الكبير» للفارابي

يمكن القول إن المستشرقين استطاعوا أن يثبتوا الملكية الفكرية لعلماء المسلمين، وما قام به بعض العلماء الأوروبيين يعد عملاً غير أخلاقي ومخالفاً للقوانين وجريمة جنائية يجب أن يعاقب عليها المنتحل ■

أثر الأغنية في الشعر الشعبي الإماراتي

فهد علي المعمري

تعد الأغنية الإماراتية، أحد أهم العوامل التي ساعدت في بقاء القصيدة الإماراتية على قيد الحياة، لأنها حفظتها ودونتها ووثقتها، وتركتها خالدة للأجيال اللاحقة، لذا بقيت الكثير من تلك القصائد المغناة، حيّة إلى اليوم يقرؤها كل محبي ومتذوقي الشعر الشعبي، لاسيما تلك القصائد التي غنيت في خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن العشرين، عبر الكثير من المطربين مثل سعيد الشراري وحارب حسن وجابر جاسم وعلي بو الروغة وميحد حمد، وغيرهم مثل عبيد الزعابي وسالم سيف وعبيد الشامسي وخليفة عبدالله، وغيرهم لم نجعلهم في سياق هذا البحث، لحداثتهم نوعا ما مثل عبدالله حميد ومحمد حسن وأحمد الشيباني وخالد محمد.

وخلال عقود ممتدة من الزمن تجاوزت الستة عقود، حفظت الساحة الغنائية آلاف القصائد ومئات الشعراء، منهم من أصبح علماً بارزاً من شعراء الإمارات، ومنهم من بقي خالداً في الذكرى من خلال أغنية واحدة فقط، وخلال هذا التاريخ الطويل، أصبحت الأغنية الإماراتية عاملاً لنجاح القصيدة الإماراتية، وتطورها، ووصولها إلى خارج حدود بلادها، لذا فإن هذا الموضع يستحق الدراسة، لنتعرف على أثر الأغنية الإماراتية في القصيدة الإماراتية.

إن أثر الأغنية الإماراتية في القصيدة الإماراتية يُعدّ أثراً بالغاً وواضحاً، وملامح هذا الأثر تأتي من خلال عدة نقاط، أهمها ينحصر في ثلاثة مؤثرات، وربما تنعكس بعض هذه المؤثرات على الشعراء أنفسهم في كتابة قصائدهم، والمؤثرات الثلاثة هي:

- أثر الأغنية الشعبية الإماراتية في الشعر الشعبي الإماراتي.
- أثر الفنان والمطرب الإماراتي في الشعر الشعبي الإماراتي.
- أثر القصيدة الشعبية الإماراتية في الأغنية الإماراتية.

ومن خلال هذه المؤثرات تتبيّن أهمية الأغنية الشعبية الكبيرة في حفظها للشعر الشعبي وانتشاره إلى خارج حدود موطنه الأم ليصل إلى دول الخليج العربي وشبة الجزيرة العربية وآسيا مروراً إلى إفريقيا، وربما أبعد من ذلك. والبداية سوف تكون بالمؤثر الأول والرئيس، وهو أثر الأغنية الشعبية الإماراتية في القصيدة الإماراتية من خلال ثلاثة عوامل رئيسة هي:

1. توثيق القصائد للشعراء.

2. حفظ وتدوين القصائد من الضياع والنسيان.
3. حفظ الأسماء الكثيرة للشعراء في دولة الإمارات.

ولنتحدث بشيء من التفصيل في هذه العوامل الثلاثة، فأما العامل الأول وهو توثيق القصائد للشعراء، فهو عامل مهم جداً في حفظ الملكية الفكرية آنذاك، إن أصبنا التعبير، فالكثير من القصائد المتنازع عليها اليوم بين الشعراء لمن هي هذه القصيدة، ومن صاحبها وما هو اسمه، فقد تم حل هذا النزاع قبل عشرات السنين، عندما يقول الفنان أو المطرب قبل بداية كل أغنية العبارة الشهيرة وهي كلمات الشاعر يعقوب الشامسي أو الشاعر عبدالله بن ذيبان أو الشاعر سالم الزحمي أو الشاعر العصري المهيري أو الشاعر محمد الزعابي أو الشاعر علي بن شمسه، ومهما يكن من اختلاف في بناء القصيدة للشاعر، وتفاوتها بين الجزالة والهزالة، إلا أن الفنان يكون أميناً في توثيق القصيدة لصاحبها، فمثلاً، هناك قصيدة للشاعر محمد بن زنيد غناها الفنان علي بو الروغة، وتقول كلماتها :

يـــــارايـــــح دبـــــــي انتـظـــــــر
ود إل علـــــــي مـــــني ســـــــــلام
إن وجمـــــــــنٍ فـــــــاح العطـــــــر
نرجـــــــس وعـــــــود ورد شـــــــام

وتعد هذه الأبيات ليس لها المبنى الجزل ولا المعنى الفخم، وفي نفسى شيء من قبول هذه النسبة لهذا الشاعر الذي تميّز بقوة الكلمة وجزالة اللفظ وجميل المعاني، وفي أحد الأيام أثناء زيارتي للشاعر حمد بن سوقات في مجلسه بمنطقة الراشدية بدبي، وتحدثت معه عن شعراء منطقة الراشدية بدبي، وكنت أقصده بجانب كل من الشعراء المرحومين الشاعر سالم بن محمد الجمري والشاعر محمد بن سوقات والشاعر محمد بن زنيد والشاعر ثاني بن عبود، فحدثني باختصار عن كل واحد منهم مبتدئاً بنفسه، وعندما بدأ الحديث عن الشاعر محمد بن زنيد قال: كان قوي الكلمة، وصادفته يوماً، وهو على عجل، فقلت له: أين تريد فقال: أريد الذهاب للفنان علي بو الروغة لأعطيه قصيدة جديدة من كلماتي، فقلت له مقاطعاً حديثه، أتذكر كلماتها، قال نعم، يقول فيها :

يـــــا رايـــــح دبـــــي انتظـــــــر
ود إلعلـــــــي منـــــــي ســـــــــلام
إن وجمـــــــــنٍ فـــــــاح العطـــــــر
نرجـــــــس وعـــــــود ورد شـــــــام

وعندها تأكدت أن التوثيق صحيح، وبه درجة عالية من الأمانة، إلا أنه أحياناً يغفل الفنان عن ذكر اسم القصيدة، ولا يعلم متعمداً أم ناسياً، فلو قسنا هذا مثلاً وشاهداً على الفنان علي بوالروغة، فهناك أغنية وضحى، وهي من النوع المثولث:

يقـــــــــول الشاعـــــــر المغـــــــرم
وجـــــرح الحـــــب مـــــا يسلـــــــم
وهـــــــو في علتـــــــي يعلـــــــم
ســـــــبتني ف الهـــــــوا وضحـــــــى

ولم يذكر صاحبها، كما أنه في بعض الأغاني، يأتي بالكنية فقط، مثلا في أغنية:

أرقـــــب الهاتـــــف عـــــسى يْبّيني خبـــــر
من جـــــدا اللـــــي شاغـــــلٍ قلبي هـــــواه
كـــــمّ أنا يالـــــس على الخط انتظـــــر
وارتي الغالـــــــي يرجّـــــع لـــــي نبـــــاه

فإنه يقول كلمات بوسيف، ولا نعلم من هو هذا الشاعر المكنى بأبي سيف.

أما العامل الثاني وهو حفظ وتدوين القصائد من الضياع والنسيان، فهو عامل لا يقل أهميّة عن سابقه، بل متممٌ له ومكمل له، فبعد أن يوثّق القصيدة لصاحبها، يقوم بحفظ القصيدة من الضياع والنسيان، وكم من مئات القصائد قد دُوّنت لاحقاً في بطون الصفحات معولين على الأغنية الشعبية الإماراتية في كتابتها، وكم من الدواوين الشعرية جمعت من خلال الأغنية الشعبية الإماراتية، وإلى هذا اليوم تُدوّن الدواوين الشعرية معتمدة اعتماداً كبيراً على هذه الأغنية، ولنضرب على هذا العامل مثالين لكل من الشاعر حميد بن ذيبان، والشاعر

ثاني بن عبود، ولنبدأ بالشاعر حميد بن ذيبان وديوانه المسمى جناديل، ويضم بين صفحاته 73 قصيدة، وجميعها غير مغناة، ولو تتبعنا قصائده المغناة لرأيناها تتعدى حاجز السبعين أغنية، وهي على النحو التالي:

- الفنان عبيد الزعابي 15 أغنية.
- الفنان سالم سيف اغنيتان.
- الفنان شهاب حمد 20 أغنية.
- الفنان عبيد الشامسي 25 أغنية.
- الفنان سعيد الشراري أغنية واحدة.
- الفنان خليفة عبدالله 12 أغنية.
- الفنان حارب حسن أغنية واحدة.

وجميعها ليست من قصائد الديوان، وعددها 76 قصيدة، وبالتالي فهي تشكل عدداً أكثر من قصائد الديوان نفسه، فانظر إلى هذا التدوين، وأيضا نأخذ المثل الثاني وهو ديوان ثاني بن عبود، وضم ديوانه 66 قصيدة، منها 34 قصيدة مغناة، أي نصف الديوان وهي على النحو التالي

- الفنان علي بو الروغة 11 أغنية.
- الفنان ميحد حمد 8 أغنيات.
- الفنان عبيد الشامسي 9 أغنيات.
- الفنان سعيد سالم أغنية واحدة.
- الفنان أحمد الحرفي 5 أغنيات.

والعكس صحيح، فمثلاً كم يوجد هناك من الشعراء الذين لهم عشرات القصائد المغناة وليس لهم ديوان مطبوع إلى الآن مثل الشاعر سهيل بن مبارك والشاعر محمد سهيل والشاعر محمد الزعابي، والشاعر الفنان علي بو الروغة نفسه فقد غنى من كلماته أكثر من 10 قصائد، فلو جمعت هذه القصائد لهؤلاء الشعراء، فسوف يكون هناك ديوان ليس بالكبير، ولكن ليس بالصغير، وعلى هذا المبدأ لو جمعت القصائد المغناة والتي لم تدون إلى الآن لامتلأت بها الصفحات وكثرت بها المجلدات، وأصبح أمام القارئ مئات ومئات القصائد التي تنشر وتدوّن لأول مرة، وجميعها يرتكز على الأغنية الشعبية الإماراتية التي كانت سبّاقه في هذا المجال. وكذلك هناك العديد من الدواوين الشعرية المطبوعة، ولا تزال بعض قصائدهم لم تطبع، ولا تزال حبيسة الأغنية الإماراتية، ومنها. أي القصائد. على سبيل المثال لا الحصر ديوان الجمري، فله قصائد عدة ليست في ديوانه، ولكنها حيّة في الساحة الغنائية مثل قصيدة علي ياخوي قلبي لا تلومه، وقصيدة ألا ياويل من قلبه معنّى، وديوان محمد بن سوقات مثل قصيدة ياهل الهوا سيروله، وقصيدة ياسايرين زيارة، وقصيدة آه أنا ونيت ونة من تأثر، وقصيدة يا هلا بشوفك يالضنا، وديوان حمد بن سوقات مثل قصيدة يا شفا المهود ودوانا، وقصيدة سمعت

البلبل يغني، وقصيدة أبليت عمري في هواكم، وديوان كميدش بن نعمان مثل قصيدة يوم عني يذّت الحيلة، وقصيدة يا حبيبي لا تهين ولا تُجبر، وقصيدة ونتي من علتي ف اليوم ظيج، ولو جمعت قصائد الشاعر عبدالله بن ذيبان من خلال أغاني الفنان ميحد حمد لأنجز ديوان كامل، حيث أن قصائده المغناة تتعدى حاجز الستين أغنية.

أما العامل الثالث في أثر الأغنية الشعبية الإماراتية في الشعر الإماراتي فهو حفظ الأسماء الكثيرة للشعراء في دولة الإمارات، فكم من الفنانين قد تغنّوا بقصيدة أو قصيدتين أو ثلاث لشاعر واحد، وهم بذلك يتركون رسالة بأن هناك شاعراً قد غنيت له قصيدة، مثل الشاعر سالم الزحمي فقد غنى له الفنان علي بو الروغة أغنيتين هما: قصيدة يا نسيم البرّ في ساعة، وقصيدة ما صفا لي سعد حظي والليالي، ولا أعلم له قصائد مغناة غير ذلك، وليس له مجموع قصائد في ديوان أو أي مجموعة شعرية، وغير هذا المثال موجود في باقي الفنانين الإماراتيين. هذا هو المؤثر الأول وهو أثر الأغنية الإماراتية في الشعر الإماراتي.

المؤثر الثاني وهو أثر الفنان والمطرب الإماراتي في الشعر الإماراتي، فنقول: إن الفنان الإماراتي من خلال أغنياته أثر في

صياغة القصيدة الإماراتية، ورسم قصائد جديدة ترتكز على الأوزان الخفيفة، وسهولة الكلمة، والإكثار من الغزل، إضافة إلى ظهور أنواع جديدة من الأشكال الشعرية التي تخدم الفنان في أغنياته، وتساعده على كسب الشهرة، والاستماع إليه من خلال أكبر عدد ممكن من المستمعين، لذلك ساعد هذا الفنان على تحرر القصيدة الإماراتية من بعض الأوزان والبناء الشعري، ومن أهم عوامل الفنان الإماراتي في القصيدة الإماراتية، ثلاثة عوامل هي:

• تغيير القصيدة حسب الإيقاع الموسيقي من خلال تغيير كلمة من البيت الشعري حسب متطلبات النغمة الموسيقية، أو السياق الموضوعي للقصيدة، وعليه يتم هدم وبناء جديد في جدار القصيدة الأصلية قبل أن تصبح أغنية، مثل قصيدة بندب نسيم الصبايا للشاعر كميدش بن نعمان فالبيت الشعري قبل الأغنية هو:

لقياكـــــم يريـــــــح قلبـــــــي
وفـــــي بعدكـــــم واشقايـــــــا

وللتوافق بين الكلمة وبين الموسيقى والإيقاع الداخلي للحن، فقال الفنان علي بو الروغة عندما دخلت الكلمة في طوْر الأغنية واللحن:

لقياكـــــم يريـــــــح قلبـــــــي
وفـــــي بعدكـــــم واشقايـــــــا

وقصيدة يامنادمي وين الظنين للشاعر الجمري، التي يقول فيها قبل الأغنية:

يـــــامنادمـــــي ويـــــن الظـــــنين
لـــي يزورنـــــي فـــــي كـــــلّ حـــــين
عقـــــب المـــــودة والوصـــــال
صـــــدّ ونسانـــــي مـــــن ســـنين

أصبحت بعد الأغنية:

يـــــابـــــوحســـــن ويـــــن الظـــــنين
لـــــي يزورني فـــــي كـــــلّ حـــــين

• حذف بعض أجزاء من القصيدة لمناسبة الإيقاع الموسيقي، مثل أغنية ورقٍ لعى باصواته، وهي من كلمات الشاعر الجمري والتي تغنى فيها الفنان علي بو الروغة، وتقول كلماتها قبل الأغنية

ورقٍ لعـى باصواتـه ع غصـونـه أرق نظيـر العـين
أون مـن ونّاتـــه ولحـونـــه ونّة قلـبٍ حزيـن
يتْسقّـى بحسراتـه مـن بونـــه مـا وقّف م الونين
هـــلّ الموق عْبراتـه ع حضونـــه من افراق الضنين

فأصبحت بعد الأغنية:

ورقٍ لعـــــى باصـــــواتـــــه
أرق نظيـــــر العـــــين
أون مـــــن ونّـــــاتـــــه
ونّـــــة قلـــــبٍ حزيـــــن

يتْسقّـــــى بحســـراتـــــــه
مـــا وقّـــف م الونـــــين
هـــــلّ المـــــوق عْبراتـــه
مـــن افـــــراق الضـــــنين

• زيادة أبيات من القصيدة لاسيما عند افتتاحها أو عند ختامها، مثل قصيدة نامت عيوني من عقب شوق وعنا للشاعر محمد بن سوقات، فالقصيدة تنتهي عند البيتين:

السدّ عنـــدي باجـــيٍ ليـــن الفنـــا
محفوظ ليـــن تْضمنـــا للاحـــادي
ع العهـــد باجـــي ماحـــييت ولك أنـــا
في ضـد من ضـــدّك سعـــى ومعـــادي

وفي الأغنية نلاحظ زيادة بيتين هما ختام الأغنية، وهما

واتلا سلامـــي لك عدد نـــور وسنـــا
واعـــداد صـــوتٍ يرفعـــه لمنـــادي
جدواك يـــامن خصّـــه القول وعـــنى
لك من حشاشـــة مهجتـــي وافـــوادي

ومثل قصيدة الشاعر كميدش بن نعمان، التي يقول فيها باتت دموعي فوق خدي سايله، ففيها زيادة بيت لم يكن في القصيدة، ولا دوّن في ديوانه في القصيدة نفسها، والبيت في الأغنية هو:

مـــن حيث لاتّي ف الصـــلاة آقبلـــه
والصـــوم بنوي له بعـــد شهر الصيـــام

وهذه الزيادة واضحة لأن القافية وهي حرف الميم تخالف القافية الأصلية للقصيدة وهو حرف النون، حيث أن بداية القصيدة الأصلية والأغنية:

باتت دموعـــي فـــوق خـــدّي سايلـــه
مـــا حف جاريها يلـــين الصبـــح بـــان

وجميعها على حرف النون، إلا هذا البيت الذي تمت إضافته من أجل الأغنية.

أمّا المؤثر الثالث وهو أثر القصيدة الشعبية الإماراتية في الأغنية الشعبية الإماراتية، وهذا التأثر جاء من خلال عدة أوجه، تصب جميعها في الأغنية الشعبية الإماراتية، فعملت على تغييرات بعضها جذرياً في بناء القصيدة الخارجي والداخلي، ويتوضّح هذا المؤثر في أربعة عوامل، هي:

العامل الأول، وهو صياغة القصيدة من أجل الأغنية، ويتوضح من خلال ضعف الصياغة، وهذا لا يعود لعدم مقدرة الشاعر، فسوف نرى أن هناك من كبار شعراء الإمارات خاضوا هذه التجربة، ونجحوا فيها نجاحاً كبيراً، ولكن الأغنية تحتاج إلى

كلمات خفيفة، وسريعة، فظهرت العديد من القصائد، هي في واقعها ليست إلا محاكة للأغنية ليس إلاّ، مثل أغنية:

هـــــب النسيـــــم اليمانـــــي
والنـــــوم فـــــارق عيانـــــي

وأغنية

حـــارب الجمـــــري منامـــــه
قـــــام يلعـــــي والندامـــــة

وأغنية

ياهـــــل الهـــــوا سيرولـــــه
عـــــن حالتـــــي قولوالـــــه

وأغنية

شفـــــت بـــــرقٍ لاح
أمـــــس صـــــوب وشـــــاح

وأغنية

سيـــــدي ياسيـــــد ســـــاداتي
سيّـــــد الخـــــود المزايـــــني

وأغنية

تسأليـــــني عـــــن غـــــلاج
وانـــــتي أغلـــــى م العيـــــون

وأغنية

سمعـــــت البلبـــــل يغـــــني
علـــــى الاغصـــــان والفـــــنّي

وأغنية

ياسايـــــريـــــن زيـــــارة
صـــــوب الحـــــبيب وداره

وأغنية

شاقنـــــي لحـــــن الحمـــــام
اللي علـــــى الاغصـــــان شـــــادي

وأغنية

يارايـــــح دبـــــي انتظـــــر
ودّ إلعلـــــي منّـــــي ســـــلام

وأغنية

ياطارشـــــي رد الســـــلام
بالطـــــرس بكـــــتب لك سطـــــر

وأغنية

حبيـــــبي زهـــــرة الدنيـــــا
ومـــــاي الورد يسقيهـــــا

العامل الثاني، وهو صياغة وكتابة قصيدة جديدة من القصيدة

الأصلية، وتأتي هذه الإضافة بهدف الغناء، مثل قصيدة

البارحـــــة ما زال جفـــــــني يـــا علـــــــــي
مـــــن زود لا هـــــوبٍ يشـــــبّ ويشعلـــــــي

وهذه القصيدة للشاعر سالم بن محمد الجمري يرثي فيها صديقة الشاعر محمد بن علي الخطيبي، وهي طويلة، ولكن من أجل أن تغنى، احتفظ الشاعر الجمري بالأبيات الستة الأولى كما هي، وحذف كلمة يا علي واستبدلها بكلمة يا هلي في البداية، وكتب قصيدة جديدة، وغنيت بشكلها الجديد، لذا تعتبر هذه القصيدة في واقع الحال قصيدتين وليس قصيدة واحدة، لأن الأصلية كاملة، والأغنية كاملة. وهناك قصيدة أخرى للشاعر علي بن رْحمة الشامسي، ويقول فيها:

يـــــا بـــــــــوخـــــــــدود انعامـــــــي
يـــــا بـــوعـــــــــــــودٍ رفيـــــــــع

ويقول الشاعر علي بن رْحمة الشامسي عن هذه القصيدة، إنه كتب جزءاً منها، وتركها، وبعد فترة طلب منه الفنان ميحد حمد أين يعرض عليه بعضاً من قصائده للغناء، فعرض عليه جملة من القصائد، ومن بينهن هذه القصيدة، فأعجب بها الفنان ميحد حمد وطلب منه إتمام القصيدة للغناء.

العامل الثالث، وهو اشتهار القصائد المغنّاة أكثر من القصائد الأخرى التي لم يتغن بها الفنان، مثل اشتهار قصيدة إن رحت عني راحت الروح مني للشاعر أحمد الكندي أكثر من باقي قصائده، واشتهار قصيدة آه يامن ون والجفن محروم للشاعر خليفة بن مترف أكثر من باقي قصائده، وهكذا مثل قصيدة تريد الهوا لك على ما تباه، يا طير سلّم ع الحبيب، من ظميري دار دولاب المثل، وكلها للشاعر سالم بن محمد الجمري.

العامل الرابع، وهو اشتهار الشعراء ببعض القصائد التي غنيت لهم، مثل اشتهار الشاعر علي بن رْحمة الشامسي من خلال أغنية أحبك يا نظر عيني غناتي، واشتهار الشاعر خليفة بن مترف بأغنية أحب البر والمزيون، واشتهار الشاعر الخضر بأغنية هود يا هل اباب لمبوب، واشتهار الشاعر معضد بن ديين الكعبي بقصيدة دوم أفكر واستعيد الذكريات ■

توظيف الحيوان في الأدب الإماراتي

محمد الحسي

يأتي توظيف الحيوان في الأدب الإماراتي ممتدًا من سنواته القديمة قبل قيام دولة الإمارات العربية المتحدة مرورًا بفترة الإتحاد، حتى يصل إلى أيامنا هذه، ففي الفترة القديمة كانت أغلب حكايات الأجداد وأمثالهم وخراريفهم تتطرق لتوظيف الحيوان والاستدلال به، إن كان حيوانًا بريًا، أم من ضمن الحيوانات الجوية كالطيور والكواسر، أوكان ضمن الحيوانات المائية كالأسماك والدلافين وغيرها.

وفي أيامنا هذه.. نجد كذلك بعض الروايات الأدبية تناولت الحيوان بطريقة مباشرة وغير مباشرة، وعلى شاكلة الرواية تأتي أيضًا الأشعار والأمثال متطرقة لتناول الحيوان، ولا ننسى كذلك أدب الطفل المتنوع في هذا المجال تناولاً وتصويرًا وتخيلًا، وأمّا الدراسات المعنية بشريحة الحيوان فهي لا بأس بها كمًا وكيفًا، فمنها ما تناول الموضوع بطريقة مباشرة، ومنها من أتى بطريقة غير مباشرة، كما ومنها كذلك من تناول الحيوان بطريقة ضمنية كالكتابات المعنية بالمعاجم، ومثال على هذا نذكر «معجم الغوص واللؤلؤ في الخليج العربي» للباحث والمؤرخ فالح حنظل، حيث تطرّق فيه الباحث إلى بعض المخلوقات البحرية، وأيضًا نأتي بذكر معجم آخر ألا وهو «معجم ألفاظ لهجة الإمارات وتأصيلها» للكتاب أ. د. عبدالفتاح الحموز، وفايز القيسي، وأخيرًا الكاتبة شيخة الجابري. ويأتي توظيف الحيوان في الأدبيات الإماراتية لأهداف وغايات مختلفة، فمنها ما يهدف إلى تسليط الضوء على صفات الحيوان وأطباعه، ومنها ما يهدف إلى خلق رمزية من ذلك التوظيف للدلالة على المبتغى الذي يعنيه ويقصده، كما وهناك من يهدف وراء توظيفه إلى تحقيق غاية أخلاقية وتعليمية وتثقيفية كذلك إن صح القول.

وفي مقالنا هذا.. سنتطرّق إلى توظيف الحيوان في الأدب الإماراتي بأشكاله المتنوعة، حيث سنعطي أمثلة للأدب الروائي الإماراتي، وأمثلة للأدب القصصي، وهناك ما يخص أدب الشعر النبطي، منحدرًا منها كذلك الألغاز الشعرية التي تناولت الحيوان توظيفًا فكريًا ماتعًا، وخلاصة القول أنّ مقالنا هذا سيتناول أمثلة للتوظيف الرمزي للحيوان، وأمثلة للتوظيف التربوي، وكذلك ما يخص التوظيف الفكاهي، مرورًا بالتوظيف الفكري، حتى نصل في الأخير إلى التوظيف الوصفي للحيوان في الأدب الإماراتي.

أنواع تجليّات الحيوان في الأدب الإماراتي

تتنوع تجليّات الحيوان في الأدب الإماراتي بصور مختلفة، وبألسن متنوعة، وإن كانت هذه التجليّات ليست بتلك الكثرة في التناول والتوظيف من قبل الكتّاب وناشئ هذا الأدب؛ إلّا أنّ لها وزنًا وثقلًا ثقافيًا وأدبيًا في المكتبة الإماراتية، إن كانت المكتبة الملموسة بذخائرها من الكتب والمنشورات والوثائق، أو إن كانت المكتبة الشفهية الغزيرة بمثقلات خزائنها المعرفية

جمال الشحي

محمد الحبسي

لطيفة بطي

عمر العامري

ناديه النجار

أدبًا وثقافةً وفكرًا. وتأتي صور التجلّي عديدة ومتنوعة لدى أدبيات الساحة الإماراتية للحيوان، فهناك تجلّي للحيوان بلسانه الناطق، ومدلول تعبيره بحال ذاته ونفسه، ونلمس هذا الأمر في قصة «جربوع الفربوع» للكاتبة نورة خوري، وأيضًا قصة «النمر الأرقط» للكاتبة ناديه النجار، وفي الجانب الآخر هناك تجلّي الحيوان كإشارة عابرة يهدف الكاتب من خلالها إبراز هذا الحيوان للتعريف والتشهير به، وليس بالضرورة أن يكون للحيوان المشار إليه تعبير كلامي، أو لسان ناطق في تلك الإسقاطة الأدبية، ومثال ذلك رواية «كوخ الشيطان» للكاتب محمد الحبسي والتي أشار فيها لحيوان الوشق الجبلي، وهو ما يسمّى محليًا في تلك البيئة بـ «الحمرا»، وأشارت أيضًا روايته لحيوان النمر الجبلي، فالإشارة إلى هذين الحيوانين جاء في تلك الرواية كإشارة تعريفية لبعض المخلوقات التي تقطن البيئة الجبلية والتي دارت فيها أحداث الرواية. كما وقد يكون هناك تجلّي للحيوان يأتي مسرودًا بلسانه ولسان الإنسان، أي يكون الحوار متجليًا بين الحيوان والإنسان، ومثال على ذلك قصص «القط المشاكس» للكاتبين جمال الشحي، ومحمد خميس، وهناك تجلّي آخر في الأدبيات الإماراتية للحيوان يظهر فيه هذا الكائن بصورة خيالية أو خرافية إن صح القول، وهو ما يسمّى في أدب التراث الشعبي بالكائنات الخرافية، ومثال على هذا نذكر رواية «غام غام» لكاتبها جمال الشحي الذي تناول حيوانات وكائنات خرافية في روايته المذكورة.

التوظيف الرمزي

من أمثلة التوظيف الرمزي للحيوان في السرد الإماراتي نذكر في مقالنا هذا رواية «حدث ذات شتاء» للكاتب الإماراتي عمر العامري، حيث تناولت تلك الراوية حدث حقيقي حصل قبل مائتين عام في كندا أدّى إلى ما يسمى بحمى الذهب، وغزو المستوطنين لغابات كولومبيا شمال غرب كندا، وأخذ الكاتب يروي حادثة حصلت لدب صغير تُقتل والدته أمامه بواسطة الصيادين، ثم تمزّق جثتها بواسطة قطيع من الذئاب.

ومن خلال سيرة حياة هذا الدب، ومن خلال مشاعر الكره والانتقام، وتفاعله مع الأحداث أراد الكاتب أن يجيب القارىء على سؤال هل هذه الأرض تتسع للجميع أم لا؟

أمّا رمزية العلاقة بين الدب والغزالة أتت لتسلط الضوء للعلاقة بين أي اثنين مختلفين، كبين الغني والفقير، أو بين الأبيض والأسود، أو بين آسيوي من الشرق وعربي من الغرب، أفريقي من الجنوب أو أوروبي من الشمال وهكذا.

التوظيف التربوي

وأمّا إن أتينا إلى جانب التوظيف التربوي في السرد الإماراتي فهناك مجموعة من القصص وأدب الطفل ما تناول هذا الجانب، ونسرد هنا من باب الأمثلة قصة «سلوقي والسلطة» للكاتبة لطيفة بطي، والتي جاءت قصتها لتركز على أهمية اتباع تناول الطعام الصحي،

أي تناولت الجانب التربوي الصحي في تلك القصة.
ومن جانب آخر نتناول قصة «مصباح وبندق» للكاتبة نسيبة العزيبي، والتي جاء توظيفها متطرقًا لأهمية الإنتماء والولاء للمكان والوطن والذكريات.
ومثال آخر أيضًا قصة «رحلة السيرك» للكاتبة أمل الشامسي، والمتناولة للتوظيف التسامحي، حيث ركّز الشق التربوي فيها على أهمية التسامح، وضرورة الأخذ بالرفق الحيوان، وهي قصة أعطت سردًا تربويًا جميلًا في ذلك الشأن.

التوظيف الفكاهي

في التوظيف الفكاهي أتى الأدب الشعبي الإماراتي بالذات بالكثير من الأشعار التي تناولت قصصاً أو توظيفًا للحيوان فكاهيًا، ولا نعني هنا بالفكاهي أي بهذا الغرض أو الهدف تحديدًا، وإنما تأتي هناك أمور تربوية ورمزية كذلك تتماشى وظائفها مع التوظيف الفكاهي، وهنا نسرد لكم إحدى قصائد الشاعر والفنان رحمة الله عليه سلطان الشاعر، في قصيدته المعروفة بين القط والفار، والتي طغى عليها الجانب الفكاهي عن الجوانب الأخرى، حيث يقول رحمه الله:

وينهـــا القطـــــوه وشلـــذي صـــار
آنـــــا مخلنـــــــج تحرسيـــــن
الفـــار خبّـــق كـــــل لقشـــــار
وانـــتي علامـــج مـــــا تحرجـــين
خابـــر القطـــوه تاكـــل الفـــــار
وانـــتي صداقـــه ويـــا الفياريـــــن
مـــــا بينكـــــم آحيـــــد لنكـــار
خابـــر عداوتكـــم مـــــن سْـــنين
مجنونـــة مـــــا عنـــــدج افكـــار
هـــذا صديـــج مـــول مـــا يْعيـــن
يـــوم اتفقتـــوالصلـــح صـــار
هـــل كيـــف حقـــي مـــا تقوليـــن
باخـــوّز اقشـــــاري عـــن الضـــار
مـــا تعلمـــين انهـــم مخربـــين
واليـــوم بـــاحملـــج لخســـار
واطلبـــج يـــا هالقطـــوه ألفـــين

التوظيف الفكري

بما يخص هذا التوظيف والمعني بالفكر، سنتطرق إلى حقل أدبي إماراتي ماتع، ألا وهو حقل «الغطو» في الشعر النبطي الإماراتي، ويأتي اسم الغطو منشقًا من كلمة الغطاء، أي الشيء المغطّى، وهو المستتر، وعليه يأتي القصد من كلمة الغطو في الشعر النبطي هي الأبيات الملغّزة، أي التي تحمل لغزًا أو شيئًا مستترًا معناه بين أبياتها، وعلى هذا المنوال خاض عدد من شعراء الشعر النبطي في الإمارات هذا الفن بكل جدارة، ونركّز على كلمة عدد، حيث ليس كل الشعراء كانت أو تكون عندهم القدرة على الخوض في هذا المضمار، حيث يبقى لهذا المضمار فكره الخاص، ومنهجيته المتبعة بكل دقة وفنية، والتي كان يلم بها وحولها بعض من شعراء العصر السابق تحديدًا، كأمثال الشاعر سالم الجمري، والشاعر راشد بن طنّاف، وكذلك الشاعر راشد الخضر وغيرهم رحمهم الله جميعًا. وفن الغطو هذا.. يأتي على ثلاث منهجيات في الساحة الشعرية الإماراتية، المنهجية الأولى هي منهجية الدرسعي، وهو أن يؤتى بكلمة أو حرف بين الأبيات يقصد بها بالأساس حروف أخرى تقابل تلك الحروف المذكورة، وعلى ضوئها يفك الغطو عند الشخص الملم بقائمة الحروف وما يقابلها من حروف مقصودة، وأمّا المنهجية الثانية فهي منهجية الجُمّلْ، وهو أن يؤتى بأرقام أو بأعداد تتخلل الأبيات الشعرية المطروحة، وكحال المثال السابق تعنى أو تقابل تلك الأرقام حروف أبجدية معينة، والخبير هو من سيفك الغطو أو اللغز المطروح حينها. وأمّا المنهجية الثالثة لفن الغطو والتي تهمّنا في موضوع مقالنا هذا فهى منهجية الريحاني، والريحاني هذا يبتعد في منهجيته عن طرح الحروف والأرقام في الأبيات، وإنما تُستخدم في هذه المنهجية كلمات وأسماء، وعلها يستنبط من تلك الكلمة أو ذلك الاسم الحرف الذي يقابلها في فن الغطو، ومن ضمن تلك الأسماء تأتي أسماء الهوام والسباع والطيور وغيرها من المخلوقات وهي ما تهم ورقتنا هذه مثلما ذكرنا.

وكمثال لهذا الأمر، نذكر هنا غطوًا دمج فيه الشاعر سالم الجمري رحمه الله الدرسعي والريحاني معًا، حيث يقول في أبياته الآتي:

اللّـي ذكْرت اسْمـــه مغلّـــس تغلّيـــس
نـــونْ ودال وْعيـــن والأْلْـــف يافـــي
باقـــول لك كلـــبين عنـــده حراريـــس
وعقـــرب مع البـــوّاب تلْـــدغ اللافـــي

والجواب هنا هو إسم «نورة»، واستخدم الشاعر

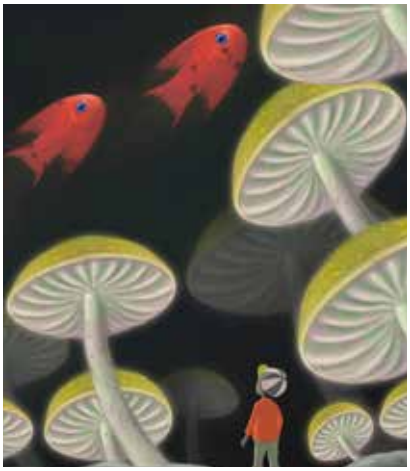

هنا كلمة كلبين، وهي في منهجية الريحاني تدل الكلاب على الهوام، وبالتالي على حرف الهاء، وأمّا حروف النون والدال والألف جاءت على منهجية الدرسعي وهو ما استُدّل بها على حروف الإجابة الأخرى.

ومثال آخر يقول الشاعر راشد بن طنّاف رحمه الله:

تمّـــت وشـــل الســـــين يريـــــور
سِـــــــبْعٍ وفوقـــــه كرّوانـــــــــه

وعلى شاكلة المثال السابق دمج الشاعر منهجيتا الدرسعي والريحاني في بيته الملغّز، حيث دلّت كلمة سِبْعٍ على الهوام وهو ما يدل على حرف الهاء، وأمّا كلمة كرّوانه دلّت على جنس الطيور، وهو ما يستدل به على حرف الطاء، ومع حرف السين الذي ذكر في صدر البيت وهو ضمن منهجية الدرسعي صار الجواب واضحًا لنا باسم «فاطمة».

التوظيف الوصفي

وأمّا ما يخص التوظيف الوصفي فقد تناول الأدب الإماراتي كمًا لا بأس به من هذا التوظيف، إن كان في سردياته الأدبية، أو في الأشعار الشعبية، فمثلًا يقول الشاعر سالم الجمري رحمه الله

مـــــن ضمـــيري دار دولاب المثـــــــل
شفت ظـــــبي يا مـــلا مالـــــــه مثيـــل

فهنا شبه الشاعر حبيبته بالظبي، وهو نوع من أنواع الغزلان، وهو ما يتطرق إليه كثير من الشعراء في وصف الحبيبة، إن كان وصفًا بالغزال نفسه، أو يوصفون عينا الحبيب كذلك بعين الغزال، أو أجناسه المختلفة كانت ظبيًا أو سولعيًا أو غيرها.

وفي بيت شعري آخر يقول كذلك الشاعر نفسه:

على حســـــاب سلمـــى قمـــت أجر النـــــوح
ولعـــــي كمـــــــا الورق يلعـــــــى براس

الدوح

فهنا شبه الشاعر ليعته على حبيبته سلمى كمثل ليعة الورق، أي الطير، حيث يأتي هذا الوصف ليبين شدة لوعة الشاعر، فأنين الطير إن صح القول يأتي صوتًا رخمًا متكررًا لا ينقطع، فهذا الوصف مثلما ذكرنا آنفًا أراد الشاعر أن يوصل مدى لوعته المستمرة على الحبيب.

النتيجة

توظيف الحيوان في السرديات الإماراتية يأتي توظيفًا نوعيًا ذا تجليات مختلفة، وذا وظائف متعددة مثلما تمّ ذكر بعض منها في هذه الورقة، وبغض النظر عن الكم، إلّا أنّ للمكتبة الإماراتية ما تفخر به من تناول سردي وشعري وحكواتي وكذلك ما تضمنته الأمثال الشعبية لجنس الحيوان، ولربما أختم هذه الورقة متمنيًا أن يكون هناك في الوقت القريب ما يحصي هذا الطرح الأدبي في الساحة الإماراتية، وما يحلّل تجلياته وتوظيفاته لجنس الحيوان، ممّا سيعطي في الأخير مرجعًا قيّمًا للأنواع المختلفة للحيوان، وما هو المحلي منها وغير المحلي، والقضايا التي تناولها السرد الإماراتي، المجتمعي منها، والإنساني، وغيرها من القضايا والمعالجات المتطرّق إليها من خلال الكتّاب، ومن خلال السرد الذي وظف جنس الحيوان لذلك كله ■

الشاعر عبيد بن محمد النيادي

مريم النقبي

يعتبر الشاعر عبيد النيادي أحد الشعراء المعمرين في دولة الإمارات العربية المتحدة، من مواليد 1904،وتوفي رحمه الله في فبراير 2021عن عمر 117 عاماً تقريباً، صدر له «ديوان النيادي» يضم 110 قصائد عن نادي تراث الإمارات من جمع الباحث الدكتور راشد المزروعي، حيث اشتهر بأشعار «العزاوي» أحد أنماط الشعر النبطي، إضافةً للشلات والونّات وأشعار المديح والمناصحة والمشاكاة. ويعتبر من أشهر مدربي ومؤدبي الإبل. من أشعاره في مدح الشيخ زايد طيّب الله ثراه:

إذا طلب الفقـــير حاجـــة من الكريـــم
فـــلا ييأس الفقـــــير من الكريـــــم
فـــإن الأرزاق بيد اللـــــه قد قسمـــت
ولا ينفقهـــــا إلا الرجـــل الكريـــم
كريـــــمُ ذو عطـــــفٍ ومـــــروةٍ
علـى المحتـــاج ذو القلـــب الرحيم
أيـــــا زايـــد تقبـــل مني تحـــيتي
وانـــت على مـــا اقـــول فهيـــم
اســأل اللـــه أن يمـــــدّك بالبقـــاء
بجـــاه االعزيـــــز الحيكـــم

ولد في عهد الشيخ زايد الأول حاكم أبوظبي (1855 - 1909)، إلا أنه لا يذكر أنه رآه، فيما عاصر وعاش في زمن الشيخ سلطان بن زايد الأول، والشيخ خليفة بن زايد الأول، والشيخ صقر بن زايد الأول، والشيخ حمدان بن زايد الأول، والشيخ هزاع بن زايد الأول، إضافةً إلى أنه عاصر الشيخ محمد بن خليفة آل نهيان، والد كل من سمو الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان، ممثل حاكم أبوظبي في منطقة العين، وسمو الشيخ سرور، وسمو الشيخ سيف، وسمو الشيخ سعيد، ووالد المغفور له الشيخ مبارك والمغفور لها الشيخة حصة.

عاصر بعد ذلك الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان، والشيخ خالد بن سلطان، وصولاً إلى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، قبل أن يتولى منصب ممثل الحاكم في العين ومن ثم حاكم أبوظبي، إلى أن توفاه الله، فمنّ الله عليه بطول العمر ليشهد ولاية صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان. تعلّم النيادي في شبابه القرآن على يد «المطاوعة»، وعلمه وتم تعيينه إماماً في مسجد النيادات في مدينة العين .

قرض الشعر بالفطرة كما هو الحال عند أبناء البادية .ولم يكن بحسبانه أن ماكان يقوله من أبيات شعرية في «الشلات» و«الونّات»، سيصبح مرجعاً ثقافياً لتاريخ الشعر النبطي في الإمارات، كما عمل الشاعر المعمر بداية حياته في نقل

«الجربات» أي نقل الناس الذين يكترون الإبل لترحالهم وتنقلهم، الأمر الذي يتطلب قوة وقدرة على تحمّل عناء السفر، التي يعالجها من خلال الشعر والحداء.

من أشعاره :

عبره

هـل دمـع العـين من عـبره وهـل
من لفانـي الشـيب فارقت الاخيـار
مـن عقـب سـيرات وركـوب الذلل
فـوق حـولٍ لـي مناكبهـن اكبـار
فوقهـن منشـول لي رقمـه عـزل
خدمـة الاستـاذ لي نقشـه اصغـار
والخـري مرقـوم ومشكـل شكـل
يزهي بمنشـول فـي ظهور الابكـار
يفـرح المضيـوم لي بده عضـل
كـان سيره ليـل والا فـي نهـار

دنيا ممر

دنيا ممـر ولا مقـر اسكونهـا
يوم قلـت ياسالم* تبـدّل سونهـا
صايب كلامـك ماقصـر من دونهـا
دارس مواضيـع الدهـر وافنونهـا
شوفهـا ترحـب الذي يلفونهـا
لا لهـم بهـا سابـق ولا يطرونهـا
هشّـت وبشّت وابسمـت بسنونهـا
ومن دون اهلهـا غمّضـت بعيونهـا

اشوف نـاسٍ اتمتعـوا بحضونهـا
عافـت ولدهـا والذي يعنونهـا
شبّانهـا يـوم العسـر واركونهـا
لـي مـن العـدوان هم يحمونهـا
بنت الدهر مـا تنصحب مـن بونهـا
لو باتعاهـد بالعهـود اتخونهـا

*يقصد به الشاعر سالم الكاس رحمه الله

محمد بن خليفة بن يوسف السويدي

خليل عيلبوني

أعتبر البحث عن سير الرجال الذين كان لهم دور فعال في خدمة وطنهم الإمارات العربية المتحدة، هو واجب يمليه علينا الاعتراف بالفضل والجميل لهؤلاء الرجال في وقت قلّ فيه المتعلمون وعز فيه أولو العزم والهمة العالية، وفي زمن سبق اكتشاف البترول وسبق تصدير الشحنة الأولى منه في عام 1962. كانت أبوظبي في ذلك الوقت كبقية الإمارات تعتمد في اقتصادها على البحر بالدرجة الأولى حيث كان الغوص طلباً للآلئ الثمينة هو العمود الاقتصادي الوحيد وخاصة لإمارة أبوظبي.

في ذلك الزمن وفي هذا الوضع الاقتصادي الصعب ولد محمد بن خليفة بن يوسف بن أحمد بن عبيد السويدي، حدث ذلك في الخامس والعشرين من ديسمبر 1949، وكان والده خليفة بن يوسف السويدي يتقلد منصب المستشار السياسي للمغفور له بإذنه تعالى الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان وذلك من عام 1940 وحتى عام 1966. ولعل هذا ما جعله ينهل العلم من خلال الكتاتيب التي كانت تقوم مقام المدارس في ذلك الزمن الصعب.

ولأن الوالد خليفة اليوسف له تجربة طويلة في مساعدة الحاكم والقيام بمهمات تحتاج إلى قوة الشخصية وحكمة التصرف والصبر والتحمل، فقد انعكست ميزات هذه الشخصية على ولده محمد الذي نشأ في عائلة عريقة وفي رعاية أب له شأنه وله أهميته لدى الحاكم والشعب.

ومنذ بداية شبابه التحق بالكلية العسكرية بباكستان وتخرج منها وعاد الى وطنه ليسهم في تأسيس قوة دفاع أبوظبي وهي أول جيش وطني نظامي، ونظراً للعلم الذي اكتسبه والشخصية التي تحلّى بها، تولّى مسؤولية نائب رئيس ديوان وليّ عهد أبوظبي لشؤون الدفاع، وذلك من 1967 وحتى عام 1971، حيث عمل على دعم حاكم إمارة أبوظبي وولي عهده آنذاك في تنفيذ واجباتهما المحلية والدولية ورغم صغر سنه وضخامة المسؤولية إلاّ أن استمراره أربع سنوات فيها أكد قدرته الفائقة على ذلك العمل الكبير.

بعد ذلك تولّى مسؤولية مدير عام دائرة الشؤون الاقتصادية والتعاون الدولي في وزارة الخارجية لدولة الإمارات العربية المتحدة وذلك من 1972 وحتى عام 2001.

وهنا ظهرت مواهب هذا الرجل في العمل الدبلوماسي، وحقق مساهمات بارزة في تدعيم علاقات الإمارات بدول العالم، وكان عضواً في مجلس السلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية مشاركاً في توسيع العلاقات الدبلوماسية بين الإمارات والعالم.

ولم يقتصر الدور الذي قام به محمد خليفة بن يوسف السويدي على العمل الدبلوماسي، بل امتد ليشمل النشاط الاقتصادي.

فقد شغل منصب محافظ دولة الإمارات العربية المتحدة في بنك التنمية الإفريقي، كما أسس وترأس الشركة المشتركة بين الإمارات والسودان، والشركة العربية المشتركة بين الإمارات وجمهورية مصر العربية.

استمرت عضوية محمد خليفة بن يوسف السويدي في مجلس إدارة بنك أبوظبي الوطني الذي أسسه والده خليفة بن يوسف اثني عشر عاماً وذلك قبل عملية الدمج التي حدثت بينه وبين بنك الخليج الأول.

وخلال وجوده في مجلس الإدارة، كان له دور بارز في توسيع نشاط البنك وانتشاره.

كذلك كان مؤسس وعضو مجلس إدارة بنك رأس الخيمة الوطني ومجلس إدارة شركة الخزنة للتأمين.

كانت أبوظبي في ذلك الوقت كبقية الإمارات تعتمد في اقتصادها على البحر بالدرجة الأولى حيث كان الغوص طلباً للآلئ الثمينة هو العمود الاقتصادي الوحيد وخاصة لإمارة أبوظبي

وفي جميع هذه النشاطات الاقتصادية كان لهذا الرجل الكبير دور مميز ومشهود في نجاح جميع تلك المؤسسات الاقتصادية التي شارك في إدارتها.

كان محمد خليفة بن يوسف السويدي يدرك أن أي نجاح يحققه سينعكس إيجابياً على وطنه وعلى مستقبل شعبه، فهو يدرك جيداً أن البترول سلعة مؤقتة ومصدر غير دائم للدخل، وعليه يجب الاعتماد على مصادر أخرى وأعمدة ثابتة لا تختفي للاقتصاد الإماراتي.

وكما كان محمد بن خليفة بن يوسف السويدي مميزاً وناجحاً في العمل الدبلوماسي والاقتصادي كان كذلك ربّ أسرة مثالياً وقدوة لأبنائه وبناته.

تزوج الرجل من السيدة شيخة بنت محمد السويدي وأنجب منها حسب تواريخ الميلاد: عائشة، وخالد، وخليفة، وخلف، وعبد الله ثم تزوج من السيدة موزة كريمة ابن خاله معالي أحمد خليفة السويدي الممثل الخاص لصاحب السمو رئيس الدولة، وأنجب منها شمسة، وحمدة، ومريم، وأحمد، ومنى، وشرينه، وفاطمة، وحامد، واليازية، وناصر، وعمر وكان حريصاً على تعليم جميع أبنائه وبناته،

فالعلـــــم يـــبني بيوتـــاً لا عمـــاد لهـــا
والجهـــــل يهـــدم بيت العـــز والكـــــرم

كان دائما يردد هذا البيت من الشعر، ويتحدث مع الجميع عن سلاح العلم الذي يبني الوطن وآفة الجهل التي تدمره.

ولو تتبعنا مسيرة أبناء وبنات هذا الرجل العظيم محمد بن خليفة بن يوسف السويدي، لأدركنا كم بذل هذا المواطن الرائع من جهد ومن تضحيات حتى يفوز أبناؤه وبناته بأعلى الدرجات والمستويات العلمية.

مسيرة محمد خليفة يوسف السويدي تستحق من الأجيال المتعاقبة للإمارات أن تدرسها وأن تطلع عليها لتقدر الدور الكبير الذي قام به هو وكثيرون من أبناء دولة الإمارات في الزمن الصعب وفي زمن البدايات.

كـــــانَ المحِـــبّ لمَوْطِـــنِ الآبـــــاء
يحيَـــــا لديـــــه بِعـــــزّة وإبـــــاء
أعطى لـــه زَهرَ الشبـــــاب مكافحـــــا
لم يكـــــترث بضخامـــــة الأعبـــــاء
حتى تحَـــــقق مـــــا أراد وهـــــذه
بعض الفصـــــــولِ لســـــيرة غـــرّاء

نشأ محمد خليفة يوسف السويدي في كنف المغفور له الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان منذ نعومة أظافره وتعلم منه الكثير، وكان مقرباً من المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان وصاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة وأوكلت اليه العديد من المهام الوطنية، وكان عضواً بارزاً في المجلس البلدي قبل قيام الاتحاد.

خلال النصف الأول من القرن العشرين

الدور القومي لصحف الإمارات

د. خالد بن محمد مبارك القاسمي

عرفت الإمارات الصحافة المقروءة من خلال الصحف التي كانت تصدر في الدول العربية، وكانت الصحف المصرية أولى الصحف التي دخلت البلاد مع التجار والسفن والمارة بعد افتتاح قناة السويس في سنة 1869م وانتعاش حركة الملاحة بمياه الخليج وسواحله تبعاً لذلك، كما أتت الصحف من بلاد الشام بعد إنشاء الخط الصحراوي بين دمشق وبغداد سنة 1924م وتردد أهل الفكر من أبناء العراق وسوريا على إمارات الساحل مثل الشيخ «رشيد رضا»، و«عبد العزيز الثعالبي»، وارتباط أهل الثراء والكفاح بمدينة بومباي الهندية، حيث كانت محط أنظار مفكري أبناء الخليج وقادة الرأي فيهم والتجاروسكناً لبعض التجار العرب[1].

وقد أتاحت الصحف، التي كانت تصل عن طريق الهند أو الكويت إلى دبي والشارقة، للمواطنين والزائرين الاطلاع على أخبار الوطن العربي والعالم، بالرغم من وجود رقابة إعلامية كان يقوم بها مكتب المعتمد البريطاني في المنطقة بواسطة الوكالة الإعلانية التي كان لها دور كبير في نشروتوزيع كتيبات ونشرات مترجمة تدعو إلى فكرة تقبل الوجود البريطاني على أرض المنطقة بالإضافة إلى تزييف وعي المواطنين بقضاياهم الوطنية والقومية، فضلاً عن أن هذه الكتيبات وهذه النشرات كانت تدعو إلى احتذاء أخلاق الأوروبيين وعشق كل ما هو أجنبي ضمن استراتيجية ممنهجة لتغريب الإنسان العربي عن تاريخه وتراثه وثقافته وبالتالي شخصيته[2]. وقد تأخر ظهور الصحافة في منطقة الخليج والجزيرة العربية بصفة عامة مقارنة بظهورها في أقطار عربية أخرى حيث ظهرت أول صحيفة في مصر عام 1828م وهي «الوقائع المصرية» التي أصدرها محمد علي، في حين ظهرت أول صحيفة في الحجاز عام 1908م، وهي صحيفة «الحجاز» التي صدرت في مكة، وفي ساحل الخليج العربي عام 1928م ظهرت صحيفة «الكويت». ولا يعني هذا التأخير النسبي أن أهل المنطقة كانوا منقطعين جملة عن الصحافة، وإنما على العكس شهد الخليج ظهور أشكال أخرى من التعاطي مع العمل الصحفي مثل الصحافة الوافدة، والصحافة الخطية، مما يؤكد الشعور المبكر بأهمية الصحافة ودورها على الرغم من عدم توافر آليات إصدارها[3]. وقد كان هناك اتصال بين مثقفي الإمارات وبين صحف ومجلات الدول العربية، فقد اشترك عدد كبير من المثقفين في الصحف العربية التي كانت تصل إلى البلاد بواسطة السفن التجارية، ومن أهم تلك الصحف: الفتح، والهلال، والأهرام، ومجلة الكويت لعبد العزيز الرشيد، ومجلة البحرين لعبد الوهاب حجي الزياني، والمنار وغيرها من الصحف التي كانت تصل البلاد عن طريق بومباي أو بغداد، ثم تنتشر بين المثقفين الأوائل حتى أن بعض المثقفين من أمثال مبارك بن سيف الناخي، وإبراهيم بن محمد المدفع، والشيخ عبد الله بن علي المحمود يكتبون المقالات ويرسلونها لتنشر في الصحف العربية[4].

وعلى الرغم من أن البدايات الأولى للصحافة في الإمارات كانت بدائية جداً وعفوية إلا أن هموم الصحفيين وتطلعاتهم في ذلك

الوقت كانت أكبر بكثير من إمكانياتهم المحدودة، والتي كانت تتماشى مع مستوى البيئة آنذاك. وقد لعبت بعض العوامل السياسية والاقتصادية دوراً في تأخير ظهور الصحافة في الإمارات، وأهم هذه العوامل:

1 - دور الاستعمار الإنجليزي، وممارساته القمعية ضد شعب المنطقة خاصة بعد معاهدة السلام التي عقدها الإنجليز مع حكام الإمارات في سنة 1820م.

2 - تأخر ظهور التعليم النظامي وافتتاح المدارس الحديثة في الإمارات حتى عام 1953م.

3 - تأخر ظهور المطابع الوطنية حتى عام 1958م، ففي هذا العام فتحت مطبعة الرضوان في دبي، ومؤسسها «محمد علي الرضوان»، وفي عام 1959م فتحت المطبعة العمانية التي أسسها السيد هاشم بن السيد رضا الهاشمي[5].

ومن الصحف الرائدة التي ظهرت في الإمارات نذكر:

• صحيفة عُمان

أسس الأديب «إبراهيم المدفع» أول صحيفة كانت تسمى «صحيفة عُمان» في عام 1927م، وهي صحيفة حائطية كانت تكتب باليد بمادة حمراء تؤخذ من السمك تسمى «المغر». ومن هذه الصحيفة التي يحررها يوزع منها نحو خمس نسخ تتداول بين الأصدقاء في الفريج[6]، ليقرأها عدد من الشخصيات والمثقفين والشيوخ ومنهم على سبيل المثال: الشيخ «سلطان بن صقر»، والشيخ «عبد الله بن علي المحمود»، والأديب «مبارك بن سيف الناخي»، و«محمد بن علي المحمود» وغيرهم من مثقفي الشارقة، الذين يأتون إلى مجلسه المشهور ويستهويهم ما يكتبه إبراهيم المدفع نقلاً عن بعض المجلات والصحف العربية، وما يرد إليه من أخبار العالم العربي[7].

ونشر بصحيفة عُمان أيضاً، كما يقول «إبراهيم المدفع»، أخبار البلد والأسعار والمناظر المؤذية وحكايات عن البدو وأخباراً

عن الغوص والأسفار، وكذلك احتوت عل مواضيع سياسية، مثل كفاح «عمر المختار ضد الإيطاليين»، وعن فلسطين أيام «القاوقجي» و«الحسيني». وكانت من مصادر الأخبار العربية أيضاً لصحيفة «عمان» تلك الرسائل والخطابات التي تصل «إبراهيم المدفع» من الهند حيث التواجد العربي الخليجي في أسواق تجارة اللؤلؤ في بومباي وبينهم بعض المنفيين من بلادهم بواسطة الإنجليز[8]. وقد اشترك في تحرير صحيفة عُمان أدباء وشعراء من المنطقة مثل: المؤرخ «عبد الله بن صالح المطوع»، و«أحمد بن حديد»، و«مبارك بن سيف الناخي»، و«حميد بن عبد الله الكندي»، و«حمد بن عبد الرحمن المدفع». وهي صحيفة نصف شهرية، وعن توجيه تلك الصحيفة الحائطية التي كان يحررها يقول إبراهيم المدفع: إن صحيفته كانت صحيفة حرة تنقل الأخبار وتنشر الأشعار اللاذعة ضد الإنجليز، مما عرّضها لبعض المضايقات من قبل القنصل «عبد الرزاق الرزوقي» الذي لم يطق ما يكتب فيها من أشعار، وفي ذلك الوقت ظهرت بعض النشرات والملصقات التي كانت تعلق على باب السوق الكبير في دبي في سوق «حصة». ومن هذه الكتابات على سبيل المثال «بلاد عربية»، حكومة عربية، وإعلانات باللغة الأجنبية، فإن لم تكن بالعربية فلابد من لهيب الغيرة الوطنية" فهذه أحد الشعارات التي تدعو لاستخدام اللغة العربية في الإعلانات بدلاً من اللغة الإنجليزية أو غير العربية، ومما حرك هذا الشعور المراكب القادمة من الهند وإيران إذ كانت غالبية إعلاناتها بلغة غير عربية، مما أشعل نار الغيرة على اللغة الأم، وحرك شعور المثقفين ودفعهم بأن يكتبوا وينتقدوا الوضع غير مبالين بما قد يفعله الإنجليز ووكلاؤهم[9]. وقد أسهمت صحيفة عُمان، على الرغم من ظروف نشأتها، بحفظ شيء من كنوز الأدب المحلي، وتدوين الأحداث بخط جميل وبلغة عربية فصيحة، وهي بهذه الصورة صحيفة متنوعة سياسية ثقافية واجتماعية وأدبية، ولولا أهميتها وتنوعها لما كانت تنتشر في المحيط الاجتماعي ويصبح لها قراء من العرب والمواطنين، فلقد أخذت هذه الصحيفة على عاتقها نشر الأخبار العربية والتطورات التي تحدث على الساحة العربية خاصة الثورات والحركات التحررية. وهكذا ارتبطت أول صحيفة في الإمارات بالهمّ العربي وبالواقع العربي، ولم تنسلخ عن هذا الواقع أبداً لأنها جزء منه، ولابد أن تحمل هذه الرسالة إلى أبناء العروبة في الصحراء وتحت الخيام وفي الجبال وداخل القرى والمناطق البعيدة[10]. ويذكر «عبد الوهاب قتاية» في مقالته عن تجربة المدفع وزملائه في كتاباتهم وقصائدهم فيقول: «إن إبراهيم المدفع والنخبة القليلة من رفاقه كانوا يكتبون أفكارهم

أول معرض للكتاب العربي في بلادنا

المعرض يفتح أبوابه في النادي السياحي يومياً حتى ٢٠ ديسمبر

عظمة حاكم ابوظبي يأمل بأن يقوم الاتحاد قبل نهاية السنة ويقول إن إتحاد الامارات هو توفير الأمان والاطمئنان في الخليج

بشهد على احد اجتماعات حكام الامارات

إبراهيم المدفع

مصبح الظاهري

من قصائد ومقالات ورسائل يعبرون بها عن مكنون أنفسهم بسبب ما تحويه سطورها من عرض لهموم الوطن والأمة، وفضح لبطش الاستعمارواستغلاله ... إن من يتاح له الاطلاع على كتابات المثقفين الرواد في تلك المرحلة من أمثال «إبراهيم المدفع» سيجد بين يديه صوراً حية ناضحة من الوعي الوطني والقومي، إنها حقيقة، فمن يتعرف على الشخصيات الريادية يستطيع أن يقف على الكثير من الدلالات على صدق التوجه الذي حمله هؤلاء في ذلك الوقت. فلولا الشعور الوطني الصادق والانتماء الأصيل لما أسس إبراهيم المدفع صحيفته»[11]. وتوقفت صحيفة «عمان» بعد سنة من صدورها لأسباب سياسية واقتصادية عامة، لكنها لم توقف على أيّ لظروف ذاتية أو إرادية[12].

• **صحيفة العمود:**

ثاني صحيفة يؤسسها «إبراهيم المدفع» نحو عام 1931م، وهي صحيفة عمودية إلا أنها فكاهية سياسية ساخرة، وكانت تركز على أخبار الإنجليز، وما يفعلونه في المنطقة، وكانت ترصد الأحداث الجارية في الخليج العربي والمؤامرات التي تدبر والمكائد التي تحاك آنذاك، والعمود تسمية تعني «عمود النور أو الكهرباء»، أو عمود الدرس أو راية العلم في الأروقة القديمة[13].

• **صحيفة صوت العصافير:**

وهي ثالث صحيفة يصدرها «إبراهيم بن محمد المدفع» ورفاقه في ذلك الوقت. وقد صدرت عام 1933م. وقال عنها «إبراهيم المدفع»: «صحيفة تنقد الأوضاع المحلية بأسلوب لاذع وتهاجم التدخل الأجنبي». وكان يكتب في هذه الصحيفة «حسن المدفع» و«حنظل صالح» و«علي محمد الشرفا» «وعبد الله الصانع» من الكويت و«عبد الرحمن المعاودة» من البحرين[14].

وكانت صوت العصافير تصدر كمنشور سري في دبي والشارقة، وتهاجم الوكالة الإنجليزية، وتنقد الممارسات الاستعمارية، ويتم إلصاق عدد منها على الجدران في الأسواق كسوق الصخام في دبي، وسوق العود وسوق الطواويش. وكان لهذا المنشور دور كبير في إيقاظ وعي الجماهير، ولفت أنظارهم إلى عدم السكوت على الوضع آنذاك[15]. وكانت تلك المحاولة تصدر بصورة غير منتظمة، ويتضح تأثير تلك النشرة من أن محاولات مشابهة كانت تقابلها من دار المعتمد البريطاني للرد عليها (حيث كان جاسم الكضماوي ممثل دار الاعتماد يصدر نشرة أخرى تكتب باليد أو بالآلة الكاتبة للرد على صوت العصافير) ويعلّق تلك النشرة في نفس المكان الذي تعلق عليه صوت العصافير[16].

• **صحيفة النخي:**

تذكر المصادر أن بداية الصحافة في أبوظبي كانت من مدينة العين على يد «مصبح بن عبيد الظاهري» في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين من خلال دكان صغير كان يمتلكه في مدينة العين التابعة لإمارة أبوظبي، ومن هذا المحل الذي كان يقدم

المشروبات ويبيع «النخي» (الحمص المسلوق أو المشوي) انطلقت باكورة صحفية في الإمارات وهي صحيفة «النخي»، وكان يكتب أخبارها مصبح الظاهري بنفسه وعلى أكياس الورق، ويتطوع لقراءة تلك الصحيفة لمن لا يجيد القراءة والكتابة[17].

وقد اعتبر ذلك نوعاً من الصحافة الشعبية البدائية، حيث كان يجتمع مع الناس في الصباح الباكر حول مقهى شعبي وسط مدينة العين، ومن خلال الحوار وتبادل النقاش تتولد الأخبار فيأخذها نقلاً عنهم ثم يعود إلى بيته في المغرب ليكتب هذه الأخبار على ورق الكرتون، وفي صباح اليوم التالي يعلق هذه الصفحات أمام دكانه، ومن يشتري «النخي» يقرأ الأخبار، في محاولة منه لترويج تجارته التي أصابها الكساد بعد منتصف عشرينيات القرن العشرين، ومن أكياس الورق التي يضع فيها التسالي خطرت إلى ذهنه فكرة وهي أن يكتب تحياته على هذه الأوراق لكل من يشتري بضاعته، ثم تطورت إلى السؤال عن الأهل والأولاد، ثم ضمنها أخبار الحوادث وجرائم قطاع الطرق وأخبار الأعراس والمواليد، وكذلك أخبار الوفيات، وكان ينظم الأخبار في موقعها حسب أهميتها، فأخبار الحاكم أولاً ثم أخبار القبائل، بالإضافة إلى إحصائية يومية بعدد القادمين إلى مدينة العين والمغادرين منها[18]. يذكر أن من الأخبار المهمة التي نشرتها «النخي» كان خبراً عن شراء ماكينة للري بالعين في بداية الثلاثينيات، وكانت صيغة الخبر كالتالي: «أفادت الأنباء أن ذهن الإنسان لم يتوقف عند شيء فهو في جديد دائماً، وقد علمنا أن الشيخ خليفة بن زايد اشترى ماكينة للري ترج الأرض رجاً وتعج الماء عجاً، لها أزيز الريح، وخرير المطر تنتفض كأنها زلزال لا يطاق، فتنفجر الأرض عيوناً وينابيع». وقد أثار هذا الخبر فضول المواطنين الذين تجمعوا حول القصر أياماً يشاهدون الماكينة وهي تعمل[19].

كان أسلوبه في نشر «النخي» أن يبدأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم الصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم)، وبعدها يدرج الأخبار، وفي زوايا صغيرة مرسومة بطريقة جميلة كان ينشر الشعر والمقامات الأدبية، ومعظم الشعر المنشور كان في الغزل والفخر، أما عن توقف «النخي» عن الصدور فكان كما يُذكر في بداية الثلاثينيات؛ حيث كتب «مصبح بن عبيد الظاهري» ينتقد الأوضاع السياسية في منطقة الخليج، وتناقلت إحدى صحفية الخليج البحرينية ما كتبه، وتحسباً من الدخول في المتاعب بسبب تطرقه إلى القضايا السياسية قرر إغلاق صحيفته والتفرغ للتجارة[20].

* باحث من الإمارات

الهوامش:

1. ناديا محمد علي فواز: الدور الحضاري لطبقة كبار تجار الإمارات العربية في النصف الأول من القرن العشرين. إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، 2011. ص 99.
2. محمد حسن الحربي: تطور التعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة. الطبعة الأولى، الشارقة، 1988. ص 104.
3. د. محمد يونس: نشأة الصحافة الخليجية (رصد للبواعث الثقافية والعوامل الاجتماعية). مجلة الرافد الصادرة عن دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة - العدد (195) نوفمبر 2013. ص 28.
4. عبد الله علي الطابور: ملامح التاريخ الثقافي في الإمارات العربية. مجلة الرافد الصادرة عن دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة - العدد (44) إبريل 2001. ص 22.
5. د. عبد الله علي الطابور: رسائل الرعيل الأول من رواد اليقظة في الإمارات العربية المتحدة، الجزء الأول (مدخل عام لملامح اليقظة). دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 1999. ص 164.
6. الفريج: الحي. وهو لفظ مستخدم في دول الخليج العربية، وجمعه "فرجان"، وأصل الكلمة فصيحة من الفريق.
7. د. عبد الله علي الطابور: رجال في تاريخ الإمارات - الجزء الثاني. مركز زايد للتراث والتاريخ - الطبعة الأولى - 2003. ص 27.
8. عبد الله عبد الرحمن: محطات في حياة شخصيات ريادية .. إبراهيم بن محمد بن عبد الله المدفع الحلقة الثانية. مجلة تراث - الصادرة عن نادي تراث الإمارات - أبوظبي. - العدد الثالث - فبراير 1992. ص 30.
9. د. عبد الله علي الطابور: رجال في تاريخ الإمارات، ج2، مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1، 2003. ص 29.
10. نفس المرجع والصفحة.
11. نفس المرجع ص ص 29 - 30.
12. عبد الله عبد الرحمن: محطات في حياة شخصيات ريادية - المرجع السابق - ص30.
13. آمنة محمد علي الرشيد، ومنى راشد حسن السلمان: الشارقة رائدة العلم (دراسة توثيقية)، المتميزون للتصميم والطباعة، الطبعة الثانية، 2010. ص 64.
14. د. عبد الله علي الطابور: رسائل الرعيل الأول، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 173.
15. نفس المرجع - ص ص 173 - 174.
16. ناديا محمد علي فواز، مرجع سابق، ص 108.
17. ناديا محمد علي فواز، مرجع سابق، ص 103.
18. نفس المرجع والصفحة.
19. عبد الله عبد الرحمن: الإمارات في ذاكرة أبنائها (الحياة الثقافية العامة). اتحاد كتاب وأدباء الإمارات - الطبعة الثانية - 1995. ص 213.
20. نفس المرجع السابق ص 212. وناديا محمد علي فواز - المرجع السابق - ص 103.

الغطو

د. عبد العزيز المسلّم
رئيس معهد الشارقه للتراث

الغطو هو البيان المعنوي المستور بين طيات الكلام، المتواري عن العارفين في صلب القصيدة أو الرواية الشفاهية كيفما كانت، وقد عمد الإماراتيون وأهل الخليج العربي إلى استخدام الغطو لتمرير رسائل عديدة في العشق والحرب والدعابة، فيخفون اسم أو كنية أو عيباً يجب ألاّ يعرفه إلاّ من تعنيه المسألة، أما غيره فله المعنى الظاهر فقط، فقد كانت معظم الرسائل تنقل مشافهة بواسطة مراسل شخصي، أو عن طريق إشاعة الرسالة (خصوصاً إن كانت قصيدة) بالتواتر والنقل المتسلسل بين الناس بشكل شبه عشوائي.

والغطو هو اللغز وجمعه غطاوي، ويذكر بصيغ متعددة، كالتورية بالكلمات أو بالمعاضلات اللسانية، أو بتركيبات الحروف المعلومة كالريحاني والأبجدي والدرسعي كما سيرد فيما بعد بشيء من التفصيل.

أما الريحاني فهو نمط من أنماط الغطو يرتبط بلغة الإشارة، فكل حرف يرتبط برمز شكلي، فالمدينة ترمز لحرف الميم وضرع البقرة يرمز لحرف الحاء (الحليب) أما الفواكه فترمز لحرف الفاء والطيور ترمز لحرف الطاء، وليس من الضروري مثلا لفظ كلمة مدينة لكن يمكن أن تقول الشارقة فيُعرف بأنك تعني حرف الميم، وذكرك للصقر يرمز لحرف الطاء، وذكرك للتفاح يرمز إلى أنك تعني حرف الفاء وهكذا. الشاهد أن عدداً من الشعراء الأولين كانوا لا يستخدمون هذا النمط من الغطو في الشعر وبواسطة الكلمات فقط، لكنهم استخدموه أيضاً بلغة الإشارة المرئية فيما بينهم خصوصاً في رحلات الغوص للبحث عن اللؤلؤ.

من أشهر النماذج ذكرها الشاعر راشد بن طنّاف (رحمه الله):

مـــن الـفـــواكـــه طيـبـي ومـــن الطيـــور عُقـــاب
والبصـــره يـــت يليبـــي عـــلـى ظهـــر خبّـــاب

الفواكه: ف، العقاب: ط، البصرة: م، خبّاب: هامشه (الهامشة مفرد جمعها هوامش وهي تعني الهوام من الوحوش) الاسم المخفي في الأبيات (فاطمة).

أما الأبجدي فهو مصطلح شائع في الإمارات لعددية الحروف العربية المسماة حساب الجمّل (بتشديد حرف الميم) وحساب الجمل يضع وزن عددي لكل حرف، ترتيبها (أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ)، التسعة حروف الأولية آحاد، والأخرى عشرات، والأخرى مئات، أما الحرف الأخير فيساوي ألف (1000).

الدرسعي نمط آخر من الغطو الذي يُبْدل مكان حرف بحرف آخر، فحروف مثل (ي، و، ح، ك، ل = يوحكل) إذا وجدها الشاعر منثورة بين ثنايا قصيدة ما عرف أنه يجب عليه مقابلة كل حرف بحرف آخر بطريقة الدرسعي فتصبح على النحو التالي (ي: ف، و: ا، ح: ط، ك: م، ل: ه) هنا نجد ان الاسم المخفي أيضاً هو (فاطمة).

مقهى ريش: سيرة المكان

د. فاطمة حمد المزروعي
كاتبة وباحثة من الإمارات

يقول المثل الفرنسي: «في حياة كل كاتب امرأة تلهمه، ومقهى يجذبه». هل يمكن للمقاهي أن تكتسب دورًا أبعد من كونها مكانًا للقاء بين الأصدقاء، للحوار خلال تناولهم القهوة والشاي وغيرها من المشروبات؟ أومكانًا مفضلًا لأحد المبدعين للكتابة أو الاسترخاء. ربما تكون خير إجابة لهذه التساؤلات هو صدوركتاب مقهى ريش: عين على مصر، للأديبة الإماراتية ميسون صقر القاسمي، الذي صدرفي 2021، عن دارنهضة مصربالقاهرة.

العنوان الرئيس للكتاب يحيل إلى مقهى ريش في القاهرة، وهو المحدد مكانًا ضمن بقعة جغرافية مهمة؛ حيث يجاوره عدد من أهم ميادين القاهرة.

وزمانه ابتداء من بنائه مرورًا بأكثر من مئة عام حتى اللحظة الحالية. والمؤلفة جعلت المقهى عينًا على مصر، التي تعني بها القاهرة تحديدًا، على ما درج عند عامة أهل مصر بإطلاق الاسم على العاصمة. فأيّ عين هذه؟ عين المثقف، أم الفنان،أم المعماري،أم الوثائقي؟ أم عين العاشق الذي يسرد سيرة المكان؟ وما حوله بتجلياته الفنية والثقافية والسياسية والمعمارية والتاريخية؟ أم عين ميسون صقر العاشقة لمصر؟ أم كل هذه العيون؟ وهل مقهى ريش هو مكان فحسب؟ أم زمان أيضًا لدوره لا لعمربنائه؟ يقول خيري منصور: إن بعض الأمكنة تتحول إلى أزمنة، ولا تعود مجرد أمكنة محايدة. فكيف صار هذا المقهى حاضنًا للحمولات التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية؟ متجاوزًا حدود المكان ليصنع جزءًا من تاريخ مصر المعاصر؟

لقد تأسس المقهى عام 1908 في البناية 29 بشارع مصر العتيقة وتغير اسم الشارع ثلاث مرات؛ ليستقر على اسم شارع طلعت حرب، وأما اسم ريش فأطلقه عليه صاحبه هنري ريسينيه ويعني بالفرنسية الفاخر. كان المقهى على مدار مئة عام مواكبًا برواده أحداث مصربداية بثورة 1919 التي طبعت منشوراتها في قبو هذا المقهى، مرورًا بمقاومة الاحتلال الإنجليزي، ثم ثورة يوليو1953، ثم حرب 1973، وانتهاء بالثورات الحديثة 25 يناير2011 و30 يونيو 2013. شهدت جدران المقهى نقاشات عدة ثقافية واجتماعية وسياسية، كما كان للفن والطرب حضور لافت، لوجود مسرح غنّى عليه بعض عمالقة الفن في مصر. كما تتزين جدرانه بصور الرواد والعلماء والفنانين الذين قضوا فيه وقتًا طيبًا. وهكذا صار المقهى لرواده في وقت ذروة الأحداث حصنًا حصينًا، ناديًا ثقافيًا،برلمانًا حرًّا، وصالونًا دافئًا جمع الأصدقاء؛ كي يتناقشوا، يسطروا تاريخ مصر، من خلال الكلمة المكتوبة، في شكل مقالة، أو قصة،أو قصيدة أو أغنية، أو أيّ شكل من أشكال الإبداع. إن رواد المقهى لم يكتبوا التاريخ فحسب ، لكنهم يستردونه أيضًا في زمن آخر، مثلما فعل رواد مقهى ريش حين رفعوا صورتين لرفاعة الطهطاوي وطه حسين، على الملصقات التي صممها أحمد اللباد على واجهة المقهى في ثورة 2013.

يتكون الكتاب من تمهيد وأربع فصول، تناول التمهيد القاهرة في العصور القديمة، منها الفترة الرومانية وفتح مصر، والقاهرة الخديوية التي خصصت لها المؤلفة الفصل الأول، وما تتضمنه من حدائق، ميادين منها الأوبرا، ميدان طلعت حرب، والكباري مثل كوبري الجلاء، وأبو العلاء، وعمارات وسط البلد، مع دراسة بعضها مثل بناية عمر أفندي. في حين أن الفصل الثاني تناول أنواع المقاهي، ألا وهي المقهى الشعبي، المقهى الأفرنجي، وبعض المقاهي الشعبية الأخرى، مع دراسة مقهى جروبي وريش. في الفصل الثالث تركز الحديث على مقهى ريش، ملاك المقهى على مدار السنين، وأصحابه ومدراؤه، وعقوده ومراسلاته، ووثائق المحاكم. واختتم الكتاب بالفصل الرابع عن أدوارالمقهى في الحياة السياسة والثقافية والاجتماعية، وحكايات عن قصص الحب التي حدثت فيه والفعاليات، منها توقيع الكتب والندوات الأدبية والثقافية.

وهكذا سردت ميسون صقر القاسمي سيرة القاهرة من خلال مقهى ريش، الذي واكب أحداث مصر خلال أكثر من مائة عام، من خلال الوثائق وحكايات رواده المبدعين في مجالات مختلفة ■

إعلان طباعة كتب

وَضَع نادي تراث الإمارات ومركز زايد للدراسات والبحوث خطُة لرفد المشهد الثّقافيّ الإماراتيّ بإصدارات متنوّعة كلَّ عامٍ فيما يخص تراث وتاريخ الإمارات فقط. تغني المكتبة التراثية الإماراتية، وتفتح منافذ معرفيّة جديدة أمام الباحث الإماراتي والعربيّ، وذلك بدعوة المؤلّفين والباحثين والكُتّاب والأدباء الإماراتيين والعرب إلى طباعة كتبهم وتسهيل نشرها وتوزيعها في المركز والمشاركة بها في المعارض والفعاليّات الثّقافيّة، ويمكن للراغبين في ذلك إرسال مؤلّفاتهم؛ لنشرها بعد أن يُقِرّها فريقُ تحكيم من المختصّين. يُقدِّم المركز لمؤلّف الكتاب مكافأة ماليّة تتراوح بين (1500 - 2500 دولار أمريكي). يَشْمل هذا المبلغُ التعويضَ عن حُقوق نَشْر الكتاب، وطباعته، وترجمته، لمُدة خَمْسِ سَنَواتٍ من تاريخ إبرام العَقْدِ بين المركز والمؤلّف. كما يُقدِّم المركز عشرين نسخة للمؤلّف بعد طباعة الكتاب.

شروط النّشر

- أن يكون موضوع الكتاب متصفاً بالجِدّة، والموضوعيّة، وشمول المعالجة، والفائدة المعرفيّة، وألا يُخلَّ بالقيم العربيّة الأصيلة.
- ألا يكون الكتاب رسالة من رسائل الماجستير أو الدكتوراه أو جزءاً من هذه الرّسائل.
- ألا يكون الكتاب منشوراً سابقاً.
- ألا يكون الكتاب مُقدَّماً للنشر في جهة أخرى.
- أن تكون لغة الكتاب هي اللّغة العربيّة الفصيحة.
- ألا يكون الكتاب مترجماً.
- أن يلتزم الكتاب بالمنهجيّة العلميّة في التّأليف، وخصوصاً الأمانة العلميّة، والإحاطة بالموضوع، والاعتماد على المصادر الأصيلة، وتدوين الهوامش في أمكنتها من كلّ صفحة.
- أن تُدوَّن المصادر والمراجع في نهاية كل كتاب مرتبة ترتيباً ألفبائيّاً بحسب لقب المؤلّف، أو أسرته، أو قبيلته، وأن تُقسم بحسب أنواعها: المصادر، المراجع، الدّراسات، وبحسب لغتها العربيّة أو الأجنبيّة.
- أن يكون الكتاب مُنضَّداً بالحاسوب بصيغة الوورد، ومُصحّحاً، ومرفقاً بنسخة ورقيّة على وجه واحد.
- يُرفَق الكتاب بخلاصة وافية في حدود مائتي كلمة باللغة العربية.
- يُرفق الكاتب مع الكتاب نبذة مختصرة عن حياته العلمية، تتضمَّن اسمه الثلاثي، وبلده، وعنوانه البريديّ والإلكترونيّ، وعمله، وصورة شخصية ملونة حديثة له.
- ألا يقل الكتاب عن (مائة وخمسين صفحة)، وألا يزيد عن (250 - 350 صفحة)، على قياس A 4 وبونط 16 Simplified Arabic أو Times New Roman
- تَتَولَّى هيئةُ تحكيمٍ مختصةٌ مراجعةَ الكتاب وتَقييمِه وإصدارِ قرارٍ نِهائيٍّ في أمر طباعته خلال شهرين من تاريخ إرساله.
- يلتزم الكاتبُ، في حال الموافقة على طباعة الكتاب شريطة تنفيذ بعض التّعديلات، بإجراءَ التعديلات المقترحة من هيئة التحكيم.
- لا تُرَدُّ الكتب المُعتذَر عن نشرها إلى أصحابها.
- يُستبعَد أيُّ كتاب مخالف للشروط المذكورة.
- تُرسَل الكتب على نسختين وورد وبي دي اف على الإيميل الخاص بالكتب وهو: torathbook@ehcl.ae

السلسلة التراثية الثقافية (6)
مركز زايد للدراسات والبحوث

البحر
في تراث دولة الإمارات العربية المتحدة

شمسة حمد العبد الظاهري

«البحر في تراث دولة الإمارات العربية المتحدة» كتاب يتناول الدور الحيوي الذي لعبه البحر في حياة أهل الإمارات في فترة ما قبل اكتشاف النفط، وكيف شكل لهم تراثاً غنياً متنوع الجوانب والألوان وفيه العديد من الدلالات والمعاني، فهو يشمل رحلات الماء وما تحمله من وقائع وحكايات وسرديات وتاريخ وأهازيج شعبية، وأمثال وألغاز، ومصطلحات بحرية شكلت معجماً لغوياً شفوياً غنياً بدأ يتراجع أمام التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها التي طرأت على حياتنا المعاصرة؛ ومن هنا تأتي أهمية جمع هذا التراث البحري ونقله إلى الأجيال المقبلة.

ويتناول هذا الإصدار موضوعات مختلفة كطرق الصيد القديمة التي زاولها أبناء الإمارات وعن مغاصات وصيد اللؤلؤ وزراعته وتجارته، وعن صناعة السفن والمراكب وعن أنواع سفن الغوص والموانئ البحرية في الإمارات.

كما يتطرق بالحديث عن البحر في الأدب الشعبي الإماراتي، وعن ذكريات وقصص أبناء الإمارات مع البحر ودور الطب الشعبي في علاج أمراض الغوص. ويضم الباب الأخير مجموعة من القصص والحكايات من التراث البحري الإماراتي برواية خميس بن راشد بن زعل الرميثي، أحد أهم رواة التاريخ الإماراتي الحديث، وهو مختص في التراث البحري الإماراتي.